الأعمال الروائية الكاملة 2

غالب هلسا

البكاء على الأطلال
ثلاثة وجوه لبغداد

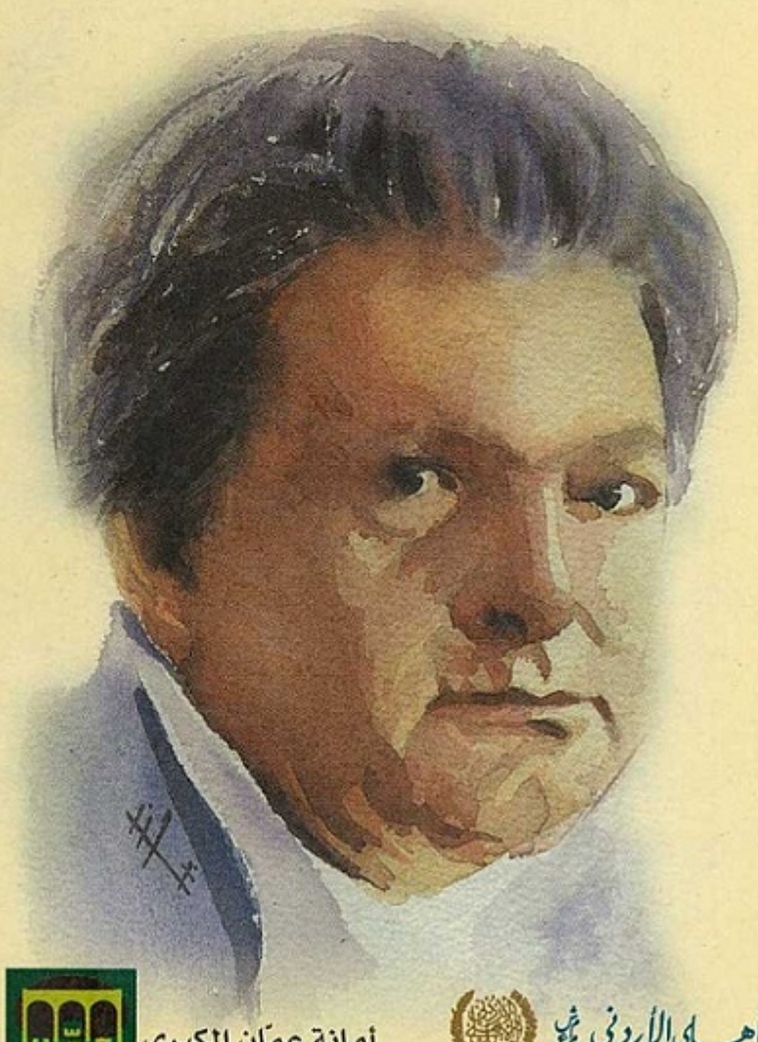

إذا أعجبك الكتاب، فرجاءً حاول شراء النسخة الورقية
تذكر أن الكتاب العرب معتزون والكل يستوطي حيطهم
دعمنا لهم يضمن إستمرار عطائهم
(أبو عبدو)

أزمنة
البنك الأهلي الأردني
أمانة عمّان الكبرى

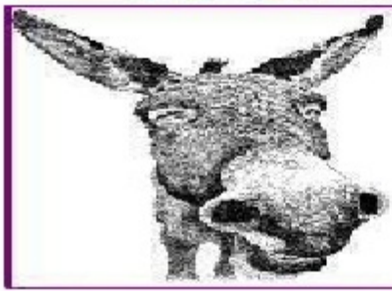

http://abuabdoalbagl.blogspot.com

أبو عبدو البغل

كـــأني غـــداة البين يوم تحـــملوا　　لدي ســـمــرات الحي ناقف حنظل

***

وإن شــفــائي عــبــرة مــهــراقــة　　فــهل عند راسم دارس من مـعــوّل

كـــد أبك من أم الحـــويرث قــبلهـــا　　وجـــــارتـهــــا أم الرباب بمأسل

إذا قــامــتــا تضــوّع المسك منهــمــا　　نسـيم الصـبـا جـاءت بريا القـرنفل

***

وواد كــجـوف العــير قـفـر قطعـتـه　　به الذئب يعــوي كـالخليع المعــيّل

فــــقلت له لما عـــوى أن شـــأننا　　قـلـيـل الـغـنـى إن كـنـت لما تموّل

كـــلانا إذا مـــا نال شــيــئـــاً افـــاته　　ومن يحـتـرث حرثي وحـرثك يهزل

معلقة امرئ القيس

١

إيقاع المهباش

كانت لوعة تسربت في يديه.

على سطح الطرابيزة الخشبية الصغيرة، البنية ـ السوداء، (اللون البني لمعة تنبثق من قتامة اللون الأسود) بأرجلها العريضة ذات السطح المتموج، أخذ يدق الإيقاع بقبضة يده اليمنى وبأصابع يده اليسرى. تب. يدق بقبضة يده اليمنى. تك ت تك بأصابع يده اليسرى.

تصحو الذكرى، تتمطى، تنوء، وتشتمله. تب، تب، تك تَ تك.

إيقاع قديم مكتَنف بعطر العود والمسك والبخور ينبعث من أثواب النساء السابغة الضافية، تلتف حول أجساد قوية، مرغوبة، أجساد لها حرمة أجساد الأمهات، دونها تقف فوهات البنادق، ولها نداء لا ينطفئ. وللإيقاع، عندما توغل في الذكرى، عندما تتلبسك الذكرى كأنها حالة انجذاب، مذاق البن ونفحه القوي:

انكشف الغطاء عن بئر الذكريات فهبت روائحها، كما ينكشف الغطاء الخشبي البيضاوي الشكل عن صندوق عطار. وتتخلله كلمات القصيدة يئن معها لحن الربابة «يفوح من صدره كما ريح صندوق. ريحة عنبر من ديرة بني ياس». أصوات النساء منغومة، ناعمة، ثرية، من بعيد تأتي، ودوي أحاديث متداخلة: صهيل الخيول الأصيلة مقتضباً وهي تدق الأرض بأقدامها واقفة في الحوش الواسع المسوّر، وقرقرة المياه في النارجيلة.

وفي الخلفية تقف آمنة. كانت ملثّمة، فارعة كأنها انبثقت من الأرض لتوها صاعدة إلى أعلى، ترقص، محاطة بنصف دائرة من الراقصين والخنجر في يدها ترسم به دوائر في الفضاء.

تب.. ثم تك، ت تك... تمور اللوعة، تلوب لاذعة أحشاءه، تدعوه إلى الانخراط والغوص، دافعة به إلى ماض يستحيل استعادته.

وهو خلال ذلك يلتزم بمظهر يطالبه به مضيفوه : الأب والأم والطفلة . . . ويضيف من عنده كلما استعاد المشهد صورة كلب لا وجود له .

الطفلة تطالعه بعينين سوداوين ، ناعمتين . في بياضهما لمسة من زرقة القيشاني (يتذكر ، والثلج يكسو الأرض والسماء جهمة ، أنه كان يرى الثلج تخالطه زرقة معتمة) . كانت واقفة ، تميل برأسها على الكتف الأيسر ميلاً خفيفاً ، في وجهها تعبير إصغاء وتساؤل جاد مهموم كأنها تتسمع لأصوات قادمة من خلفها ، بعيدة ، منذرة بالكارثة . يداها مسبلتان إلى جانبيها ، وفمها مفتوح قليلاً .

كانت تقف تاركة الإيقاع يتخللها .

اضطرب ذلك التكوين المضحك بجديته ، وانتفض جسدها اللدن الطازج وأخذ يتمايل مع الإيقاع . ثم انفلتت قدماها من إسارهما وأخذت ترقص ، معلقة إلى الإيقاع بخيوط سائلة . أصبح الدق على سطح الطربيزة مسئولية : عبء ومبعث زهو . إنه الآن يمتح الذكرى متقصداً ليستعين بها على الاستمرار . ثم انفصلت يداه عنه ، أخذ يرقبهما كغريبتين عليه ، تبثان الإيقاع بدينامية مبهمة ، مجهولة ، خاصة بهما .

تسارع الإيقاع ، محاوراً ، مبتعثاً صور الماضي البعيد . أصبح قديماً قدماً مضنياً فامّحت الشخوص وأصبحت الذكرى مجرد مساحات من الأرض البيضاء المشمسة . أسرعت الراقصة ، أصبحت بلا خصائص . تدوّرت عيناها واتسعتا ، التمعتا بضوء أسود رقراق ، حاض بعينيها كالدموع . ارتفعت أمام عينيه صورة أشعة شمس الغروب البارد ، متسللة من الشبابيك الغربية العالية لجامع قلاوون ـ جواهر خضراء مائعة ، تنسكب ، القطع الزجاجية الحمراء تشتعل باحتراق داخلي وتضع بصمة نارية ـ يكاد يحس لسعها ـ على جزء من عمود النحاس الأصفر .

(قال لنفسه ساعتها : هذا هو اللون الأخضر الحقيقي . لم يعد له وجود الآن ، أما هذه الألوان التي تقابلنا في كل مكان متربة ، ناصلة . . .) .

يداه اللتان تدقان معلقتان بجسد الطفلة التي تسارع إيقاعها . اليدان مأمورتان ، وقد أصبح داخله مصمتاً ، قابضاً على الانفعال الملتاع ، ومنشغلاً عنه . يبدو وجه ، له وضوح أبيض وسط العتمة ، يظل معلقاً ، منتظراً أن يخلو إليه .

الأم تطالع الطفلة وهي ترقص ، عيناها تومضان بنور الضحك ، تلمع بين شفتيها

المكتنزتين أسنان برّاقة البياض. يضاد ذلك وجه رصين، محتشم. خطفة ابتسامة تنفجر، تمد الأم يداً جميلة، أصابع افريقية طويلة، لدنة، أنيقة الأظافر، فتمحو البسمة كأنها تزيل بقايا طعام. تتنهد، يصبح وجهها مكدوداً، ابتعدت. عيناها على الطفلة، الآن، بنظرة غائبة. أحس هو بها متعالية عليهم، فذلك التعبير المهموم ينبثق من جذور اليأس الناتج عن اكتشاف عبثية الوجود في الكون.

كان الأب يتفرس بالطفلة بعينين واسعتين جداً، تطل منهما نظرة تقية، قاتمة، تجعله بحق يسود المرأة التي تجاوره. فمه محكم الإغلاق بتهذيب جم، ووجهه أسمر، أسمر، وكبير، وخشن، فيه قوة كامنة، مؤجلة. نبي عبراني يطالع المارقين بغضب صاعق لأنهم خيّبوا توقع يهوه، يغذّي جموحه ضيق أفق لا شفاء منه.

طعنة حادة كوميض البرق اندفعت من الماضي واخترقت اللحظة، ثم اختفت. اختلج بها قلبه فأوجعته. وجه أمه أطل من زاوية الحجرة الخارجية وأخذت تعبر الحوش مقتربة، عيناها محتجبتان بتجهم الوجه لأن ضوء الشمس كان يسقط فيهما، والفتاة قريبة منه، تكاد تكون ملتصقة به، عندما تلتفت إليه يتلامس الجسدان. الإيقاع يبطئ ويزداد عمقاً. انفصلا في ذعر، وضاعت الفرصة. «ماذا كان علي أن أفعل؟» أخذ رأس الطفلة يتمايل مع الرقص، ومضى الإيقاع «بياع.. بياع البيارق طل، طل، بياع البيارق طل..» وأبله القرية يومئ برأسه ويوقّع بقدميه: «بياع البيارق طل»، ويرتفع وجه آمنة، ويتجمد كل شيء.

للمس الجسد القوي نشوة دائمة، تحضره الآن (مع التفاتتها إليه يضغط الثدي اللدن على كتفه (معهن لا تعلم أبداً إذا كان ذلك مصادفة أم متعمداً). الخجل جعل الذكرى حادة الحضور. يود أن ينساها ولكن تلك الفرصة التي ضاعت ظلت معه. ما لا يتحقق يعيش في داخلنا.

تولته رغبة مفاجئة ـ كاللهفة ـ بالكلام. امّحت الذكرى. أوقف الرغبة بجسمه ومضى يدق سطح الطرابيزة الخشبية، ولكن خللاً ما تسرب إلى الإيقاع، أحس به قبل أن يستطيع تداركه. أنهت الطفلة رقصتها، ووقفت مستقيمة، مدوّرة، تطالعه بعينين كأنهما بليتان، يغلفهما غشاء مبلول لامع يحد من اتساع بياضهما. «ما أنت؟» قالت العينان.

ربكة وخجل يعتريانه من نظرتها الصريحة، العارفة. يعزم أن يذكر الطفلة أنها

صغيرة فيواصل الدق محاولاً أن يستعيد عالماً بأكمله قد ضاع منه عندما استولت عليه الرغبة في الكلام. مال رأس الطفلة ميلاً خفيفاً إلى اليمين، تملته بتلك النظرة النافذة المستنكرة التي لا تعرف الخجل وتعلو على المواضعات الاجتماعية. قالت العينان :

«ما الذي جاء به؟»

أوجعه ذلك، فقد كاد يعتقد أنه كسب صداقتها. استنجد بالأب والأم. كانا لا يريانه. احتمى بالإيقاع. ثم اتجهت إليه الطفلة، أسرعت نحوه، قدماها تلعقان السجادة بتتال حلو. تراءى له أن شيئاً غريباً سوف يحدث، لم يحدث من قبل قط، فخاف. هذه الطفلة الرعب. توقفت أمام الطرابيزة، أحنت جسدها ومدت يديها الاثنتين. حاولت أن تمسك بهما الفراغ، ثم أمسكت بيديه اللتين لم تتوقفا عن الدق، أوقفتهما عن الحركة محاولة أن تقبض على الإيقاع. نظرت إلى وجهه مندهشة ثم استدارت مبتعدة.

عينا الأب كبيرتان بالدهشة وقتامة الانزعاج. يضم شفتيه معلناً حياده ترفعاً عن أمثال هذه السفاسف. الأم تحني رأسها إلى الأمام ويقترب كتفاها، تتفحص الطفلة بعيني قصار النظر وجفناها يرتعشان، وقد انحسرت شفتها السفلى بين أسنانها. بدت وكأنها تريد أن تتأكد أن هذه هي ابنتها بالفعل. توقع هو أن تمد الأم يدها وتلمس الطفلة لتخرجها من دائرة الاستحالة، ولكنها اكتفت بمتابعتها بعينين متقلصتين، مدققتين كأن الطفلة أدق من أن ترى بالنظرة العادية. وهو يعاني زهواً خجلاً، وقد تقمصه حذر دفاعي كأنما ارتكب بذاءة ما ـ ملمس الطفلة الليّن المبلول واستجابات جسدها السريعة الطيّعة كانت، لسبب ما، لها وقع الفضيحة. «هل يشكّون؟» وعلى الفور تساءل منزعجاً : «يشكوّن بماذا؟»

ثم... الطفلة بين يدي الأم كقطرة الزئبق، يستحيل الإمساك بها واكتنافها في وضع. تحصرها الأم بين فخذيها وتقول :

«إهدي يا قرده.»

وهي مكروبة بمصارعة هذا الشيطان القزم ـ الطفلة سرقت البراءة من وجه الأم، فأصبح مجرد وجه أم : رصيناً، تعساً. ثم هدأت حركة الأم وأمسكت بالطفلة بين يديها وقالت :

«شايف كوثر حلوة قد إيه يا عمو؟»

وألقت بها في حضنه : كتلة ليّنة من العنف تتوفز وتنزو. حاول أن يجعلها تجلس، ولكنها انفلتت : تمطّى جسدها وامتد كأنها زمبلك، ثم غرست قدميها في أحشائه وأخذت تقفز صعودا وهبوطاً، صعوداً وهبوطاً.

شعر بالإرهاق.

***

تورّد وجه الأم بالمجهود، اقترب الحاجبان الرفيعان، وأخذت تعض شفتها السفلى. أصبح وجهاً صارماً، منذراً بالعنف. تلين تقاطيعه وهي تتفحص الطفلة، تبدو راضية، تتنفس بعمق ثم تواصل إلباس الطفلة باستغراق كامل. يفكر هو أن يدخل الحمام، يكنّ إلى رطوبة معتمة بعض الوقت يستعيد به توازنه، ويكسر طوق الصمت المتوتر. ولكن الأب يبدأ حديثاً، يسأله إن كان بإمكان العرب أن يحاربوا؟ يفتش في داخله عن اجابة قاطعة فلا يجد. يتلجلج، فيواصل الأب، عندما رآه لا يرد، قائلاً إنه يبدو أن نيكسون رجل عاقل، أو ربما أصبح عاقلاً بسبب فيتنام، وكذلك وزيره كيسنجر. لا بد من إبداء رأي، يقول لنفسه، فيقول : لقد سألت هل سوف يحارب العرب؟ هل بإمكانهم أن يحاربوا؟ ليست المسألة مسألة إمكانية، بل هم مرغمون على أن يحاربوا. وهو يشعر أنه كان قادراً أن يدلي برأي مناقض تماماً بالحسم والثقة نفسيهما وعلى المستوى نفسه من عدم الاقتناع. يرى أن الأب ما زال ينظر إليه، منتظراً منه أن يواصل. فقال إنه بالطبع، في السياسة كما في أي شيء آخر، قد تحدث أمور غير متوقعة، الدول الكبرى مثلاً..

وتوقف عندما صمت الأب جاذباً شفتيه إلى الداخل، وجهه يقول : «لقد حاولت وهاكم النتيجة!» يقدر هو أن الأب صمت غاضباً فقد سأله عن رأيه ولم يكد يقول شيئاً. يقول مدارياً : «يعني، طبعاً، يمكن برضه البترول العربي..» الفم يزداد انطباقاً والعينان جاحظتان بالترقب، تقولان : «استمر» ثم يتنبه إلى أن الجملة ناقصة «يمكن البترول العربي..» ثم ماذا؟

ركنا إلى الصمت. ألبست الأم الطفلة فستاناً أبيض له بريق في الضوء المعتم. كان مطبوعاً عليه أشكال أرانب زرقاء ذات أنوف صفراء وميكاوماوسات زرق وحمر بأذرع ممتدة بلا كفوف، تتماس مع الأذرع المبتورة قطوف فاكهة ذات ثمار حمراء مدورة، لامعة، انفلتت منها ثمرة كاملة الاستدارة، لامعة، غامقة الحمرة، ووقفت

وحدها في مساحة بيضاء. وفي طرف الثوب أرنب مبتور بسبب ثنية الثوب.

ثم راحت الأم تكابد لإدخال الطفلة في بنطلون نبيذي، وعندما نجحت في ذلك برز للطفلة كرش. أوقفتها على الأرض ووضعت شريطاً أحمر نارياً في شعرها أضفى عليها لمسة أنثوية اخرجتها من حياد الطفولة المتأرجح بين الجنسين، وألبستها حذاء من القطيفة الحمراء له زيق من الجلد الأسود.

يدا الأم تعيدان صياغة الطفلة، وعندما انتهت كانت قد صنعت منها طفلة حمراء.

حملتها بين يديها، ثم أجلستها على حجرها وأخذت تضع اللمسات الأخيرة: تعدل شريط الشعر، تسوّي ياقة الفستان، ثم مرت بأطراف أصابعها على وجنتي الطفلة اللامعتين كأنهما مدهونتان بورنيش. رفعتها بين يديها إلى مستوى النظر، تملتها بوجد، ثم أومضت عيناها بضحكات مشعة، ومدت ذراعيها وألقت بالطفلة في حجره:

«شايف كوثر حلوه قد إيه يا عموه؟»

كانت مزهوة وكان ذلك من حقها. لقد حققت إنجازاً مدهشاً.

حاول أن يجلس الطفلة، ولكن جسدها اندفع كالوتر. كان وجهها ثقيلاً مصمماً، فيه لمسة غير محددة من وجه الأب. غرست قدميها في أحشائه وأخذت تصعد وتهبط، تصعد وتهبط: قطعة من المطاط الثقيل المرن، عنف هلامي، سائل، متماسك يصطدم بالجزء الأسفل من بطنه في إيقاع موقوت، دائب.

انتظمت قفزات الطفلة في إيقاع دقات المهباش.

فكر أن ذلك لن ينتهي أبداً. حاول أن يجعلها تقفز فوق ساقيه، ولكنها بضراوة فهد مفترس كانت تدفع بجسدها إلى الأمام وتستعيد موقعها على الفور. ويمضي ذلك، فيما بدا له، بلا أمل في الانتهاء.

للحظة فكّر أن يستغيث.

أي شيطان دفعوا به إليه!

اكتشف في حمى عذابه أن الطفلة قد توقفت عن الرقص. لم يرحه ذلك كثيراً. رفعت عيناها إلى السقف. كانتا تتضرعان.

أي رؤيا تعاينها!

عيناها شاخصتان بجمال أخّاذ، لمحة من جنة الرائي، حلم نبي، تبدت له ـ ينسل من الشارع المزدحم بالعربات، والحمير، والباعة، وجوه يغطيها الغبار، وفي الجو ينتشر عادم العربيات ودخان السولار نفاذاً خانقاً. عالم من الصخب والهوج، يظله تهديد بالكارثة والعنف المتوقع. يسرع مبتعداً وألم حاد في أنفه (قطرة مضادة للحساسية، تلوّث البيئة)، يدخل جامع قلاوون (التذاكر هنا. . . خمسة صاغ، ثم تذكرة من الورق المسوّد)، ممر طويل، شاهق الارتفاع يمتد أمامه، على يساره باب، وفسحة مشمسة ما زال يجري ترميمها. يدخل من باب على اليمين. ينغمس في حلكة رطبة، لهما ملمس. يتحسس خطواته في الظلام، متفادياً توقعاً أن يصطدم بأحد الأعمدة. يواصل سيره المتمهل مترقباً أن تعتاد عيناه الظلمة، يومض شيء ويختفي من مجال الرؤية. مرافقه يتقدمه، يدعوه إلى التقدم، يدوي بحديث لا يحب سماعه. تثقل عليه الظلمة دون أمل بالفرج، ثم فجأة، في منتصف انحناءة القبة يرى شباكاً من الزجاج المعشّق تتلألأ أضواؤه الملونة ببهجة انقبض لها قلبه. ما زالت الطفلة شاخصة إلى السقف. أحب وجهها آنذاك إلى درجة الألم، إلى حدود اللوعة والوجد. كان وجهاً كوجوه الملائكة في لوحات رافائيل، كوجه المسيح في لوحة رسام إيطالي نسي اسمه، عيناه مبرحتان بالألم، وإكليل الشوك فوق رأسه وهو يخاطب أباه الذي في السماوات من فوق الصليب صارخاً: «أيلي، أيلي لما شقبتني؟» والتي معناها: «آلهي، آلهي، لم هجرتني؟» كان وجه المجريد برجمان، مرتدية ثياب الراهبة، وهي تركع أمام الصليب، رافعة عينيها، تتضرع إلى صاحب الوجه المتقلص بالألم، بالمسامير المدقوقة في يديه وقدميه.

عالم مسحور ينفتح أمامه: مسقط الضوء في أحد جوامع الغورية ناعماً بلورياً، إنباء بعالم الصفاء يتجلى للرائي في حالة الوجد. والطفلة تقف ناظرة إلى أعلى كأنما تضرع للسقف وترجوه، بعينين فيهما ذلك الجمال المجرد من لوثة الرغبة ومن تعبيرات الواقع اليومي، جمال يشبه الغروب أو حقل زهور. عندها شعر بذلك السائل الدافئ يتخلل بنطلونه، ينساب إلى بطنه، ثم يهبط عبر فخذيه، بدا ذلك متداخلاً في اللحظة، منبثقاً منها، كأنه امتداد كما تكون العملية الجنسية امتداداً للمداعبات السابقة عليها، والطفلة ما تزال في تلك الحال من الانجذاب الصوفي، تصغي إلى الحان غير

مسموعة، ووجهها الملائكي يقول : «لست من هذا العالم.»

أمسك بالطفلة من تحت إبطيها، رفعها برفق وحذر، فارتفعت متماسكة كأنها قطعة طوب، ثم وضعها على الأرض. قطرات السائل تتساقط من قاعدة بنطلونها نقاطاً بيضاء شفافة إلى السجادة التي تمتصها على الفور وتخفيها في لبدة وبرتها الكثيفة، ولون قاتم، يكاد يكون أسود، يزحف ببطء، وينتشر عبر ساقيها المتباعدتين راسما قوساً مكسور القمة، طرفاه ينتهيان حيث يلتف البنطلون حول كاحليها.

خطت خطوة ثم توقفت، مباعدة ما بين ساقيها، أحنت رأسها إلى أقصى ما تستطيع وراحت بوجه وقور جليل تعاين هذا الواقع الأرضي الذي يهطل من بنطلونها إلى السجادة، ولسان حالها يقول : «هذا العالم السفلي له متطلباته أيضاً». أمسكت الأم بيدها وجذبتها إليها عندما تخيلت أن الطفلة كانت على وشك الهبوط على الأرض. بجسد متصلب طاوعت الطفلة يد الأم التي تجذبها، والأم تقول :

«كوثر وحشه، كده، كده! بليتي عموه، وحشه!»

كان تقطيب وجه الأم المبالغ فيه محاولة منها أن تكتم ضحكها. تمسح الضحك عن فمها وتنشغل بكوثر المستسلمة، غير المفهومة. الأب يطالع الطفلة بنظرة قاتمة ورعة. اسبل جفنيه : لا يريد أن يرى، ووجهه يقول وقد قلب شفته السفلى : «هذا شاهد حقيقي على فساد هذا العالم.» ومثل نبي يستعد ليحيل عالم الأحياء إلى ملح ونار، مد ذراعه في حركة مسرحية متقنة وقال :

«اقلع البنطلون خلي سلمى تغسله.»

ثم التفت إلى زوجته وقال :

«طلّعي البيجاما وحطيها له في الحمام.»

ثم عاود سكونه الثقيل، المصمت ـ رسوخ شرس مخيف ـ يطوي في داخله ذلك الهول الناري الرهيب استعداداً للخطة المناسبة.

كانت الأم تضرب كوثر على يديها، ضرباً أشبه بالمداعبة، وهي تحاول أن تنزع ذلك البنطلون، شاهد الجريمة :

«وحشة كوثر. كده؟ كده؟.»

وهي تجاهد أن تكتم الضحك وتعد نفسها لتقمص حالة غضب حقيقي، وجسد

الطفلة يتمرد ويستعصي، والأم تقول :

«يا شيخة . »

وتواصل . ثم رفعت وجهها نحو الأب ويداها مشغولتان وقالت :

«دقيقة بس . »

رأى نفسه يرتدي البيجاما، ملمسها على جسده بذيء، بارد، جاف، أجزاء جسده تتماس في داخلها بحرية ـ أشبه بأن تكون عرياناً في السرير، ملتفاً بالملايات، وقد انتهى كل شيء والصمت يحيط بك عدا صوت المرأة وهي تتحرك في داخل الحمام بدبيب خافت، تتخلله حركات مبهمة، ثم صوت اندفاع المياه يستمر مدوياً للحظات ثم يتحوّل إلى هدير رتيب، وأنت تود أن تنام، تنعم بملامسة جسدك وحيداً «لو تتأخر قليلاً في الحمام، ترجو . . . » وتذكر فجأة وهو يمر بين جمع النساء ليصل إلى أمه ويأخذ منها المفتاح، وتمد المرأة الشابة يدها وتجذب بنطلون البيجاما إلى أسفل، معرّية إياه أمام جمعهن . عاصفة من الضحك تضج حوله، وقد منعه الارتباك حتى من أن يعيد بنطلون البيجامة إلى موضعه . قالت الشابة : «انظرن، ها هو قد أصبح رجلاً» وصاحت امرأة أخرى متظاهرة بالغضب : «هل أعجبك الوقوف بيننا وأنت هكذا؟ هيا أمض . »

وظل واقفاً هكذا بينهن عاري العجيزة، عاجزاً عن الحركة . «سوف اقطعها لك» قالت امرأة، وعندما حاول أن يبتعد تعثر وسقط .

نهضت الأم وأبعدت الطفلة عنها . ثم استدارت ومضت في اتجاه الداخل، ناداها أن لا، لا، أرجوك . . لا داعي لذلك، هذا لا شيء على الإطلاق . شيء ما في صوته، أشبه بالاستغاثة، جعل الأم تتوقف وتنظر إليه من فوق كتفها متسائلة . قال لها إن هذا لا شيء، فالسائل سوف يجف من تلقاء نفسه، وذلك لن يستغرق إلا ثواني قليلة . قال الأب عليه ألا يخجل، فهذا بيته . قال إن هذا بالضبط ما دعاه إلى المجيء .

تنهدت الأم بعمق وواجهته محتارة . ثم خطت بتردد وجلست على كرسيها . قال للأم إن ذلك يحدث كثيراً، وإن السائل سوق يجف، ورجاها ألا تضرب الطفلة قائلاً إنها مجرد طفلة لطيفة . قطبت الأم جبينها ولم ترد . فكر أنها قد تبكي، وبدا ذلك له معقولاً، بل يكاد مطلوباً . يبدو أنها لم تستطع أن تصبر أكثر من ذلك فانفجرت

بالضحك، تضحك وتضحك، وكتفاها يرتعشان كأنها مصابة بحمى. أخذت دموعها تسيل على جانبي أنفها مسودة بالكحل.

عينا الأب المسبلتان شهقتا، مالتا إلى اليمين، ثم ارتفعتا إلى الأم محدقتين، متسائلتين. كاد أن يخون قضيته ويبتسم، ولكنه بقدرة فذة عاود العبوس المتعالي، يطالع الأم بتساؤل كأنه ينتظر منها رداً على سؤال ألقاه.

شعر هو بالسائل يواصل انسيابه البطيء في بطنه، يزحف إلى طرف القميص وقد تحوّل إلى منطقة باردة إلى حد التثليج، فاجرة كأنها يد تداعب أجزاءه الحساسة، وهذا الضحك يكاد يجعله يفقد كل اتزان. كانت الطفلة تحدق في وجه الأم محاولة أن تلمسه، والأم انحنت وهي ما تزال تضحك بضراوة، ولا تستطيع التوقف وقالت للأب:

«أصله بيقول السائل.»

ارتدت إلى الخلف وتصاعد ضحكها. أمسكت الطفلة بيد الأم ونادتها. جذبت الأم يدها وهي ماضية في الضحك.

***

كان الإيقاع في داخله وهو في الأتوبيس يحيل جميع الأصوات والحركات إلى تناغم يندرج في نسيجه، وكان الإيقاع في داخله وهو يهبط من الأتوبيس، وهو يسير - في وقدة الظهيرة - بحذاء حديقة تمد أغصانها من فوق السور، وهو يتخيّل ويتخيل ما وراء سياج الأشجار. كان الإيقاع ينظم وقع خطواته وهو يجتاز الشارع إلى الرصيف الآخر.

الإيقاع وضع المنظورات في سياق جديد، سحب عليها إحساساً مفتقداً، عتيقاً بالألفة مع الأشياء. عيناه تغتذيان بالأزهار الحمراء تشتعل وسط خضرة الشجر، بثمار البرتقال تومض بوهج فسفوري خلال الأوراق الداكنة الخضرة، بفتاة تسير أمامه بملابس رقيقة، مختزلة، ساقاها الطويلتان بلون العسل، ممتلئتان ومتسقتان، تنبئان بأنوثة مبكرة، بعشاق كثيرين قادمين، مخلفة وراءها حسرة. العالم يدخل في سياق قديم، يصبح مفهوماً. والإيقاع ماض لا يتوقف. تب. ت تك. ثم يعود من جديد.

كان الإيقاع في أصابعه وهو يدق جرس الباب.

دقة طويلة واثنتان قصيرتان. سمع صدى دقات الجرس في الشقة المغلقة. كانت الطفلة تموء خلف الباب وتخبط خشبه المفرغ بيديها (أكانت الطفلة تقول شيئاً مثل : بوس هنا، با، ما.) أعاد الدق ـ كانت دقات خائفة، معتذرة ـ فلمس الجرس لمسات خفيفة، سمع صوتها في الداخل مختنقاً. ثم سمع صوت الأم قادمة تقول كلاماً لم يستطع تبينه ثم تبعد الطفلة وهي تقول شاكية إنها تتعثر بها أينما سارت، والطفلة تقول: «باب» ثم انفتح الباب، والأم وراءه. تمد رأسها نحوه. عيناها متسائلتان بضيق، ثم فجأة قالت :

«مش معقول!»

ووجهها يضيء بالبشر. قالت : «أخيراً!» قال بل إن ذلك معقول تماماً وهو يضحك بلا مرح. كان يود أن ينتهي بسرعة.

قالت وهي تشد الباب وتفتحه على سعته داعية إياه إلى الدخول. مبعدة الطفلة :

«تصور، عرفت إنه جرسك.»

ثم تحفظت : «يعني ما كنتش متأكدة.»

قال ها هو قد أتى.

كانت تلك نكتة، وكانت أيضاً استعجالاً لمراسم الاستقبال. الرائحة المميزة في الداخل تحتويه وتوقف الإيقاع ـ تؤجله ولا تلغيه. عتمة في الصالة يؤكدها سيف من ضوء النهار الأبيض يقف محشوراً، مجمداً في فتحة طويلة بين دفتي الشيش. يتوقف، وعيناه تعتادان الضوء الشحيح الأسمر بسرعة، فيشاهد بيتاً يستدعي أحداثاً قديمة، يستدعي عالماً بأكمله قد انتهى.

***

دار في الحجرة والأم تساير خطواته وهي تقول إن شيئاً فيها لم يتغير. ثم استأذنته الأم قليلاً.

جدران لونها عاجي مدهونة بالزيت. على الجدار صورة لرمبرانت (صورة الفنان) وأخرى لفان دايك (صورة امرأة).

المساحة من الجدار التي تفصل بين اللوحتين تبدو زاهية وسط كثافتهما السوداء. يعلم أنه بعد تأمل طويل سوف تخرج من قتامة لوحة رمبرانت التفاصيل متوالية

الواحدة بعد الأخرى إلى أن ينحل السواد في درجات لونية وتجسيدات لا اسم لها. فازات فخارية رقيقة، لها سطح لامع جنزاري اللون وبني وأخضر فاتح، موضوعة على قاعدة خشبية سوداء مثبتة على الحائط. لوحة الموناليزا في إطار خشبي دقيق موضوعة بين اللوحتين يلامس أعلاها أسفل اللوحتين.

هنالك أيضاً مساهمة الأب في تزيين الحجرة. صورة زيتية هائلة الحجم. يحتويها إطار كلاسيكي ذو بروزات وانحناءات فظة ثقيلة، مطلى بالذهب. على زواياه الأربع حفرت ورود خضراء بتفاصيل كثيرة تمتد سوقها في جسد الإطار. اللوحة لغابة أوروبية ذات أشجار ضخمة، أوراقها ذات خضرة صارخة، وجذوعها حمراء غليظة. على اليمين كوخ، سقفه على شكل مثلث، تبرز من بابه امرأة سمينة تلبس ايشارباً أزرق وتمد رأسها في اتجاه الجبال. بين الأشجار بضع بقرات تضع رؤوسها في الأرض، مما يفترض أنها تأكل الحشيش. وهنالك رجال يرتدون قمصاناً حمراً وقبعات ذات حواف عريضة. ومن الصعب على المشاهد أن يعرف ماذا يفعلون بالضبط في هذا المكان. يخترق الغابة نهر أزرق على سطحه بعض لمسات بيضاء يبدو أن المقصود منها أن تكون زبداً. على شاطئيه ثلج على شكل أكوام مستطيلة. وفي أعلى الصورة جبال زرق، متقنة الصنع (المثل الافلاطونية للجبال دون شك). لمسات بيضاء منزلقة قليلاً من قمم الجبال تعني الثلج. وهنالك ثلج في وهاد في منتصف أحد الجبال. وفي الجزء الأعلى من اللوحة سماء ناصعة الزرقة، تخللتها ثلاث كتل بيضاء كأنها قطع من القطن الطبي تشير إلى الغيوم.

كان زهو الأب بهذه اللوحة (يحكي كيف اشتراها فيقول كان مجرد صدفة، قرأ لوحة أمام فيلاً مكتوب عليها (مزاد) فدخل) هو الذي منع الزوجة أن تقترح نقلها إلى حجرة أخرى.

ولكن الزوجة جاهدت بضراوة، ووقف هو بجانبها [1]، ونجحت في منع الأب من تعليق صورة فوتوغرافية كبيرة الحجم لأبيه. كان الأب في الصورة سميناً، صاعق النظرة، له شارب كث أسود، يلبس طربوشاً ويمسك بعصا، ولكثافة شاربه كان يبدو

(١) قال هو للأب: «هنالك شيء اسمه الانسجام. الصور الفوتوغرافية لا تنسجم مع اللوحات الزيتية رغم أن كل واحدة منها قد تكون جميلة بحد ذاتها.» قال ذلك بحياد فاقتنع الأب.

فمه مكوناً من الشفة السفلى البارزة فقط. ويعلو على كل شيء الأنف الكبير الذي يكاد يبدو وجهاً آخر صغيراً ألصق بالوجه الكبير. ووافق الأب على طلب الزوجة باشمئزاز وتعال وبأقل قدر من النقاش. ثم نشأت معركة صغيرة انهزمت فيها الزوجة. كانت قد اعترضّت على وضع الصورة في حجرة النوم. قالت إنها تخاف منها عندما تكون وحيدة في الليل، وإنها تشعر بالخوف أيضاً عندما تكون الصورة أول شيء تراه في الصباح. ولكن الأب حسم المسألة عندما قال :

دلع ستات.

أما هو فلم يتدخل في المعركة ـ ماذا كان بإمكانه أن يقول؟ واستسلمت الزوجة في وداعة.

انبثق الأب من شق الستارة التي تفصل الصالون عن الحجرات الداخلية وقال إنه كان قد قرر ألا يصافحه، لماذا لا يسأل؟ قال الأب أيضاً إنه كاد يعتقد أن شيئاً ما حدث له ولكنه اطمأن عندما مر ببيته ولم يجد أحداً. قال هو إنهم الضيوف وأناس من البلد.. فقال الأب : ضيوف أم شيء آخر؟ لقد آن الأوان لتتزوج. ثم دخلت الطفلة وأمسكت بساق الأب وأخذت تنظر في وجهه. أبعدها الأب عنه وسار وجلس والطفلة تسرع خلفه. جلس هو على الكنبة الاسطمبولي ووقفت الطفلة تتأمله. مرت فترة صمت انطلق فيها الإيقاع من عقاله. التفت الأب إلى الخلف فأصبح هو في مواجهة الطفلة، عيناها في عينيه. أحس بالحرج وببعض الغضب «براءة الطفولة.. فليذهب الأطفال إلى الجحيم..!» ثم غلبه الإيقاع، كانت الطرابيزة الخشبية البنية ـ السوداء على يساره، وعلى الفور، وعيناه على الطفلة أخذ يدق الإيقاع. كانت لوعة الذكرى تعصر قلبه.

مدت الأم رأسها من شق الستارة ـ رأس مقطوع معلق في الفضاء ـ وقالت :

«بتشرب شاي؟»

قال :

«مش دولوقتي»

ومضى يدق الإيقاع.

٢

أغنية العبيط

رائحة البن قوية، نافذة، تعبق بها الدار الواسعة، تشيع في الحوش وفي الرواق القبلي حيث تهدر النار والنساء يعددن الطعام. رائحته نداء للمارة في الطرقات ـ يسمعون دقة المهباش ويتنسمون رائحة البن فينعطفون من الشارع ويدخلون من البوابة الكبيرة إلى الديوان. رائحة الحبق والقرفة والبخور في أجساد النساء مختلطة بخصوبة العرق والعافية : بطاقات دعوة للعرس، غواية للعزاب. يحلمون حتى الجنون بليلة يختلون فيها مع فتاة بكر، رائحة التنباك المعطر في النراجيل المكركرة، بزجاجها الموشى بأشكال ذهبية اللون، ينعقد دخانها في السقف أزرق خاملاً، رائحة المر واللبان تفوح من الصناديق العتيقة، رائحة العرق والملح حادة تدير الرأس تنبعث من الخيول القلقة، ترفع رأسها باعتزاز، تصغي للحركة في باطن الأرض، للعواصف تتجمع في أماكن بعيدة.. روائح يشتملها الإيقاع ويبثها.

المهباش ينفذ في الجرن الخشبي يطحن حبات البن المحمصة ويخلق من حوله، في الجو، منطقة كثيفة من زيت البن الطيّار [١]. دقة المهباش في العمق، ثقيلة مكتومة، تمتد في الأرض فتحدث اهتزازاً مخيفاً يحس به الجالسون في الديوان، ثم دقتان خفيفتان، سريعتان، في الجانبين، تتوالى ذبذباتهما التي تصطدم بصفائح الماء فتحدث موجات سريعة خفيفة على سطح الماء وأزيزاً خافتاً تبتلعه الدقة المكتومة، التي يهتز بها الكوز النحاسي الموضوع فوق غطاء الزير.

الجرن : مسخ أفريقي، مرقش. سطحه الأعلى دائرة واسعة في وسطها فتحة ضيقة ينفذ منها المهباش. يضمر الجرن في هبوطه إلى أسفل كضمور العنق تحت الرأس، ثم يعود ليتمدد وينتفخ كبطن الحبلى. عندما ينتهي خط القوس يضمر الجرن

(١) في القرية يقولون إن البن كان يعرق عندما يوضع في المحمصة. أما في هذه الأيام فالبن ككل شيء فقد الخجل ولم يعد ينضح بالعرق.

مرة أخرى ليشكل خصراً حاداً، ينفلت بعد ذلك ليكون قاعدة عريضة راسخة.

سطحه موشى بأرابيسك معقد، خال من الرشاقة، من قطع الأبنوس السوداء على شكل مربعات، ومثلثات من الخشب البني المطفأ اللمعة، وقطع صدفية على شكل معين منحرف. يذكر أن إحدى قطع الصدفية كانت مكسورة، وكانت تشع عندما يسقط عليها الضوء. اعتقد وهو صغير أن ذلك مقصود وكان يبحث عن تلك القطعة المكسورة المشعة في كل جرن يراه.

كانت خطوط الأرابيسك تتداخل وتنفرج، ثم تتلوى وتتوه في تعقيدات فجة، ثم تعود مرة أخرى مشكلة دوائر ناقصة ومستطيلات لا تكتمل. والمهباش الذي يعبر من فتحة الجرن ويطحن حبات البن كان عصا بنية ـ سوداء، مرقشة كأنها أفعى تلتمع عيونها الألف بمرح شرير. تقفز في يد الضارب، وتهوي مستقيمة، فتصدر عنها الدقة الثقيلة المكتومة، ثم تتمايل بعبث شمالاً ويميناً، تنحني للجالسين، ثم تعاود الصعود والهبوط وخلال ذلك ينتشر الإيقاع: «توب.. تك.. تك.»

في الرواق نار كبيرة مشتعلة وعليها قدر الطعام يهدر بالغليان. كانت هنالك الأم، وجهها أحمر، متقلص بالغضب تواصل وضع الحطب تحت القدر، والصبايا يرتدين الملابس السوداء الضافية، مطرزة على الياقة والصدر والأكمام، يقرفصن مسبلات العيون، مستغرقات في صنع المرق من خلال تذويب قطع الجميد الصلبة في الماء. تدور بينهن امرأة في منتصف العمر ضحوكة صخابة، جميلة، تلقي بتعليقات لها إيحاءات جنسية تحمر لها وجوه الصبايا دون أن يتغير تعبيرهن المستغرق، الصامت. وحينما ترفع إحداهن وجهها إلى الأم تتألق عيناها الفتيتان بنظرة نسر كاسر.

تنادي الأم بصوت ثري منغّم:

«يا عطوه، يا مقطوع النصيب، يا عطوه!»

ثم تفتش عيناها الحوش الواسع، تنتظر أن يستجيب لندائها، ثم تضيف بعد قليل كأنها تحدث نفسها:

«وين راح المهبول؟»

ترد صبية دون أن ترفع عينيها:

«عند الزلام»

فتزعق الأم :

«قومي ناديه يا غبرا . »

تنهض الصبية بحيوية بالغة وتتجه إلى الديوان . تطل من باب الديوان ثم تعود وتنبئ الأم :

«مو هناك . »

وتجلس .

كان الأبله يختفي وراء باب الديوان . عيناه واسعتان يسيل منهما ضوء أصفر رجراج . عندما يأتي النداء من الخارج يتزحزح ويزداد التصاقاً بالجدار ، وعلى فمه ابتسامة مندهشة ، متسائلة ، وعيناه ترمشان كأنه يسترق السمع إلى حديث خطير ويحاول استيعاب معناه . ثم يبدو وكأنه فهم الحديث وقد جاء على غير ما يتوقع فابتسم ابتسامته الكبيرة . ويعود النداء مرة أخرى :

«يا عطوه ! »

ثم تعقب ذلك همهمة ، ويتلوها : «وين راح المهبول؟» يطالع عطوة من حوله مندهشاً ، ضاحكاً ، فيكتم ضحكه في كفه ويزداد التصاقه بالجدار ، ولا يبدو أن أحداً من الجالسين قد اهتم بنداء الأم أو بمحاولة الأبله الاستخفاء . يتوقف صوت الأم فيعلو صوت المهباش . تلمع سن ذهبية في فم المختار ، موحية بدسامة الطعام والشبع ، ويده المدورة القصيرة الأصابع تمسك بالمسبحة الكهرمان . يدقق الأبله النظر في تلك السن الذهبية ، فمه مفتوح ، ورأسه مندفع قليلاً إلى الأمام . تختفي السن الذهبية ويلتفت المختار إلى أحد الجالسين ويسأله إن كان قد باع الحمار ، فيرتد الأبله إلى الخلف ويتنفس بعمق . علا اللغط بين الرجال ، تداخلت الأصوات الحلقية العميقة وأخذ عطوة يرمش بعينيه .

نهض الأبله فجأة ، خرج من الباب وتوقف . أرض الحوش البيضاء مفروشة بضوء الشمس القوي . الكلب ينام في ظل السور ، مفتوح الفم يلهث ، عند كل حركة يفتح عينيه ، يطالع ما يحدث ثم يغمضهما ويعاود الاسترخاء بعد أن يطلق همهمة غليظة خافتة . فكّر الأبله أن الكلب عندما يجعد أنفه ويغمض عينيه ويطلق نبحته

الخافتة فهو يشبه أمه عندما تراه داخلاً الدار فترفع إليه وجهها، أنفها احمر ولثتها خالية من الأسنان.

كانت دجاجة تقف على قدم واحدة، إحدى عينيها مفتوحة والأخرى مغمضة. كانت تقف ساكنة بلا حركة على الإطلاق كأنها تمثال من الشمع. وقف الأبله يراقبها وهو يهز جذعه هزات موقّعة لا تكاد تلحظ.

سار الأبله وانتهى إلى الرواق. وقف أمام النساء فانقطع حديثهن وأخذن ينظرن إليه بتساؤل ـ كأنهن لم يكن يبحثن عنه منذ قليل ويعلن ذلك أمام الدنيا كلها. أخذت الصبايا ينظرن إليه بمرح مترقب. والعيون معلقة به، متفحصة، متسائلة. أخذ يحني رأسه إلى الأمام ويخبط الأرض بقدمه اليمنى ثم يعود بجذعه إلى الخلف، ليعاود احناء رأسه وخبط قدمه، كأنه في حلقة ذكر. كرر ذلك عدة مرات، مؤقتاً حركة جسدة مع دقات المهباش، ثم قال:

«جرن عمي أبو رحل يقول: بيّاع البيارق طل، بياع البيارق طل، بياع البيارق طل...»

ومضى يردد ذلك في توافق مع حركة جسده ومع إيقاع المهباش. عيون النساء ترقبه كأنما ذلك كله سوف يؤدي إلى نهاية ذات دلالة. ثم علت ضحكة المرأة الجميلة ثرية، متعددة الدرجات كأنها أوركسترا كاملة. ثم عمّ الضحك بينهن. قالت الأم التي لم تضحك:

«شوفوا مقلوع العين!»

٣

رثاء عائشة بنت طلحة

نمت، وأنا مفعم بعائشة بنت طلحة. قرأت عنها في كتاب الأغاني، وفكرت وحلمت بها كثيراً قبل أن أنام. جسّدها ذلك الفنان العظيم أبو الفرج وقرّبها حتى كدت أراها. فتنني عالمها، حاولت أن أستعيده بشغف، أن اعيد بناءه ليكون لي مكانٌ فيه، قريباً إليها ومحباً، فأخذني النوم وأنا عاشق لها.

قبل أن يحتويني السبات الثقيل، في تلك الفترة الفاصلة بين النوم واليقظة، تصبح عائشة ممكنة، ينبثق لها حضور حان ودود، يمنح بلا حد... حضور يندرج في سياق انحلال صلابة الواقع اليومي، يمتزج بالإثارة التي يبعثها تلامس أعضاء الجسد بحرية تحت الجلابية الواسعة، في تلك العلاقة الحميمة بين الجسد واللحاف. تتحوّل كلماتها في تلك اللحظة إلى عبارات غزل أهذي بها، أصبها في أذنها: «والله لأنا أحسن من الليلة القرّة في عين المقرور.»

في الليل نبهني رعب أصم لا مصدر له. صحوت، وعلى التو تذكرت أن عائشة لم يعد لها وجود. لقد تحول ذلك الجسد الباذخ، المتوقد بالحيوية والرغبة والحب، إلى تراب وعظام نخرة، هشة. لن أراها بعد، لن يكون ممكناً قط أن أدخل بيتها، أتجول بين الجواري، أرى طلعتها الشامخة عندما تصحو متضاحية من نومها.

كيف أصف ذلك؟

لقد شعرت بدبيب الموت يزحف حثيثاً في جسدي، مختلطاً مع كل نبضة عرق. شعرت بأنني أسير نحوه مفتوح العينين، بلا قدرة على التوقف أو الرجوع. وددت أن استغيث من أجلي ومن أجل الآخرين، أن اصرخ: اوقفوا عامل الزمن المدمر الذي ينقض علينا ولا يبقي على شيء، قاوموا تلك الجرثومة التي تنخر في داخلنا. فكرت برعب: كيف لم يتنبهوا إلى ذلك؟.. عندما واجهت هذه الحقيقة وأنا وحيد، أعزل، مرتجف، شعرت بانتفاء المعنى لكل شيء، وقامت أمام عيني الأكذوبة بكل روعها.

تبينت آنذاك أن جميع المشروعات الإنسانية بلا جدوى، وأن سعي الإنسان كله باطل.

الفزع الذي تولاني ساعة تلك المواجهة، استحالة قبول هذه الحقيقة أو التصالح معها، احتواني كالمخدر وأعادني إلى النوم مرة أخرى.

استيقظت، كانت الشمس تضيء الشقة المقابلة وأصوات الحياة تضج من كل ناحية. أعيد وصل ما انقطع، ها هي عائشة تصحو متضاحية (جارتي في الشقة المقابلة خرجت إلى البلكونة، اتكأت على حاجزها، من فتحة قميص النوم أطلت وعود ـ النحر النقي ومنبت الثديين). ابتعث الذكرى فتستغرقني:

كان بالمدينة امرأة جميلة تسمى عزّة الميلاء، وكانت من أظرف الناس وأعلمهم بأمور النساء. فأتاها مصعب بن الزبير وعبدالله بن عبدالرحمن بن أبي بكر وسعيد بن العاص، فقالوا إن ثلاثتهم خطبوا عائشة بنت طلحة وعائشة بنت عثمان وأم القاسم بنت زكريا بن طلحة. قالوا: فانظري لنا. (أرافق عزة في زيارتها، ندخل أحد بيوت بغداد القديمة. البيت تحيطه الأسوار من كل ناحية، نطرق الباب.

عندما ينفتح الباب تنفسح باحة واسعة تحيطها زهور الياسمين والفل، وفي الوسط نافورة مياه..) فبدأت بعائشة بنت طلحة، قالت لها:

ـ «فديتك! كنا في مأتم في قريش، فتذاكروا جمال النساء وخلقهن فذكروك، فلم أدر كيف أصفك، فديتك. فألقي ثيابك.»

(تبدو الدهشة في العينين، تتمهل قليلاً، ثم يتجمد الضحك على وجهها وتنهض. تصوّب الجارة إلي نظرة سوداء براقة، ثم ترفع رأسها وتواجه الشمس).

ففعلت. ألقت ثيابها، أقبلت وأدبرت فارتج منها كل شيء.

فقالت لها عزة:

ـ «خذي ثوبك، فديتك.»

فقالت عائشة:

ـ «قد قضيت حاجتك وبقيت حاجتي.»

قالت عزة:

ـ «وما هي بنفسي أنت؟»

قالت:

ـ «تغنيني لحناً»

فاندفعت تغني لحنها :

خليلي عوجا بالمحلة من جمل
وأترابها بين الأصيفر والخبل

(هدأت الحركة في الدار الكبيرة. في المرايا التي تمتد بطول الجدار وعرضه كنت أرى الجواري يدعون بعضهن إلى الصمت والإصغاء.. تستولي عليّ رغبة أن أتجول في المكان).

فقامت عائشة، فقبلت ما بين عينيها ودعت لها بعشرة أثواب وبطرائف من أنواع الفضة وغير لك. فدفعته عزّة إلى مولاتها فحملته.

وأتت عزة النسوة على مثل ذلك، تقول ذلك لهن حتى أتت القوم في السقيفة. قالت :

ـ «أما عائشة بنت طلحة فلا والله أن رأيت مثلها مقبلة ومدبرة، محطوطة المتنين، عظيمة العجيزة، ممتلئة الترائب، نقية الثغر وصفحة الوجه، فرعاء الشعر، لفّاء الفخذين، ممتلئة الصدر، خميصة البطن، ذات عكن، ضخمة السرة، مسرولة الساقين، يرتج ما بين أعلاها إلى قدميها.

«أما عائشة بنت عثمان والله ما رأيت مثلها قط. ليس فيها عيب. والله لكأنما أفرغت إفراغاً.

«وأما أم القاسم فكأنها غصن بانة تثنى، أو كأنها جدل عنان، أو كأنها جان يتثنى على الرمل، لو شئت أن تعقد أطرافها لفعلت» (١). فوصلها الرجال وتزوجوهن.

وعندما تزوجت عائشة عمر بن عبيدالله كان الحارث بن خالد أميراً على مكة. وكان مفتوناً بها، رضي بدور العاشق المنبوذ، فقال عندما غادرت المدينة :

قرشية عبق العبير بها ... عبق الدهان بجانب الحق
بيضاء من تيم كلفت بها ... هذا الجنون وليس بالعشق

ونساء بني تيم هن أشرس خلق الله وأحظاه عند أزواجهن. حدث المدائني عن

(١) يقول أبو الفرج أن الجان حية كحلاء العينين لا تؤذي.

سحيم بن حفص قال :

ـ «وكان مصعب بن الزبير لا يقدر عليها الابتلاح ينالها منه، ويضربها . فشكا ذلك إلى ابن أبي فروة كاتبه . فقال له :

ـ «أنا اكفيك هذا إن اذنت لي . »

قال :

ـ «نعم! إفعل ما شئت فإنها أفضل شيء نلته في الدنيا . »

فأتاها أبو فروة ليلاً ومعه أسودان فاستأذن عليها .

فقالت له :

ـ «أفي مثل هذه الساعة! »

قال :

ـ «نعم . »

فأدخلته . فقال للأسودين :

ـ «احفرا ها هنا بئراً . »

فقالت له جاريتها :

ـ «وما تصنع بالبئر؟ »

قال :

ـ «شؤم مولاتك، أمرني هذا الفاجر أن أدفنها حية وهو أسفك خلق الله لدم حرام . »(١)

فقالت عائشة :

ـ «فانظرني اذهب إليه . »

قال :

---

(١) كان لمصعب سابقة فقد روى أبو الفرج :

«قال عوانة : وكانت لحميدة أخت يقال لها عمرة ، وكانت تحت المختار بن عبيد الثقفي، فأخذها مصعب بعد قتله المختار وأخذ امرأته الأخرى وهي بنت سمرة بن جندب، فأمرهما بالبراءة من المختار . أما بنت سرة فبرئت منه ، وأبت ذلك عمرة ، فكتب مصعب إلى أخيه عبدالله . فكتب إليه : إن أبت أن تبرأ منه فاقتلها . فأبت فحفر لها حفيرة وأقيمت فيها فقتلت» .

ـ «هيهات لا سبيل إلى ذلك.»

وقال للأسودين:

ـ «احفرا.»

فلما رأت الجد منه بكت ثم قالت:

ـ «يا ابن أبي فروة إنك لقاتلي ما منه بد؟»

(وصورة عمرة أمام عينيها تقف في داخل الحفرة، مسبلة العينين، محنية الرأس. يهوي سيف الجلاد على العنق فيسقط الرأس، ويظل الجسد واقفاً للحظة ثم يهوي ويهال التراب عليها. وقد قال عمر بن أبي ربيعة في ذلك:

قتلت حرة على غير جرم ... إن لله درها من قتيل
كتب القتل والقتال علينا ... وعلى الغانيات جر الذيول)

قالت عائشة:

ـ «ما من ذلك بد؟»

قال:

ـ «نعم، وإني لأعلم أن الله سيجزيه بعدك، ولكنه غضب وهو كافر الغضب.»

قالت:

ـ «وفي أي شيء غضبه؟»

(كأنها لا تعرف!)

قال:

ـ «في امتناعك عنه، وقد ظن أنك تبغضينه وتتطلعين إلى غيره فقد جن.»

فقالت:

ـ «انشدك الله ألا عاودته.»

قال:

ـ «إني أخاف أن يقتلني.»

فبكت وبكى جواريها. ثم قال لها إنه رقّ لحالها ولسوف يعرّض نفسه للخطر من أجلها، فماذا تضمن له؟ قالت بصوت صغير مرتعش :

ـ «تضمن عني ألا أعود أبداً.»

وأتى مصعباً فأخبره. فقال له مصعب :

ـ «استوثق منها بالإيمان.»

ففعل. وصلحت عائشة بعد ذلك لمصعب.

ودخل عليها مصعب يوماً وهي نائمة ومعه ثماني لؤلؤات قيمتها عشرون ألف دينار، فأنبهها ونثر اللؤلؤ في حجرها فقالت :

ـ «نومتي كانت أحب إلي من هذا اللؤلؤ.»

ودعت عائشة يوماً نسوة من قريش فلما جئنها أجلستهن في مجلس قد نضد فيه الريحان والفواكه والطيب والمجمر، وخلعت على كل امرأة منهن خلعة تامة من الوشي والخز ونحوهما، ودعت عزة الميلاء ففعلت مثل ذلك بها وأضعفت، ثم قالت لعزة :

ـ «هاتي يا عزة فغننا»

فغنتهن في شعر امرئ القيس :

وثغر أغر شتيت النبات ... لذيذ المقبّل والمبتسم

وما ذقته غير ظن به ... وبالظن يقضي عليك الحكم

وكان مصعب قريباً منهن ومعه أصحاب له يسمعون الغناء فصاح :

ـ «يا هذه إننا ذقناه فوجدنا على ما وصفت، فبارك الله فيك يا عزة!»

وكان لعائشة إجازاتها من الرجال، لم تكن تتعجلهم فلقد كانوا دائماً هنالك. عندما خطبها عمر بن عبيد الله رفضت دون تردد، ثم طلبت إليه أن ينتظر. ولكن عمراً لم يكن يستطيع صبراً[1]. بعث لها مع جاريتها خمسمائة ألف درهم وقال لجاريتها :

---

(١) قال لها : «لأقتلنك الليلة.»

ـ «لك عليّ ألف دينار إن دخلت بها الليلة.»

كوّمت الجارية المال على الأرض وألقت فوقه ثوباً. قالت لها عائشة ما هذا؟ فقالت الجارية:

«من عمر بن عبيد الله أرسل به إليك.»

كشفت الجارية عن المال وقالت:

«أجزاء من حمل هذا المال أن يبيت عازباً؟»

ولكن عائشة كانت مترددة، لم تقرر بعد أن تخرج من إجازتها. ثم أرسل لها عمر بعدها بسخاء خاص: وصف لها ضخامة عضوه التناسلي وفحولته، مغرياً إياها بشبع لم تعرفه امرأة من قبل. قال لها ذلك بألفاظ صريحة [1] أنهت ترددها في الحال عندما سمعتها وأرسلت إليه متعجلة تقول:

ـ «بت بنا الليلة.»

جاء في المساء مهولاً، مهيباً. وُضع أمامه طعام يكفي سبعة أشخاص فأتى عليه كله. ثم غسل يديه وتوضأ. ثم قام يصلي فأطال القيام حتى نام كل من في البيت مللا. وعندما انتهى من صلاته قال للجارية:

«أعليكم إذن؟»

فقالت:

ـ «نعم»

استأذن ودخل، وأسبلت الجارية الستر من خلفه.

وأخذت الجارية ـ وقد اتخذت موضعاً قريباً ـ ترقب غير مصدقة. لقد عدت سبع عشرة مرة دخل فيها المتوضأ تلك الليلة. ثم بدا لها وكأن ذلك لن ينتهي أبداً، فغلبها الملال وغفلت عينها ونامت.

في الصباح دخلت عليهما الجارية. كانت عائشة متربعة على السرير، والأمير جالس بجوارها. قالت له الجارية، ها أنت أكلت طعام سبعة رجال، وصليت صلاة سبعة، وضاجعت مثل سبعة رجال.

---

(١) ارجع إلى كتاب الأغاني.

ولما كانت الجارية قد رفعت الكلفة بينها وبين الأمير فقد كانت عباراتها أكثر صراحة ومباشرة. ضحك عمر بن عبيدالله ومد يده الكبيرة وأمسك بكتفها البعيد عنه وابتسم لعائشة وللجارية. غطت عائشة وجهها بيديها، خجلاً، وقالت :

قـــــد رأيناك فلم تحل لنا

وبلوناك فلم نرض الخـــبـــر

وعندما رفعت يديها عن وجهها التقت نظرتها بنظرة الجارية فضحكت وعاودها الخجل.

قال مصعب :

«لما بنى بها عمر قال لها : (لأقتلنك الليلة). فلم يصنع إلا مرة واحدة. فقالت له لما أصبح : (قم يا قتّال) وقالت حينئذ :

قـــــد رأيناك فلم تحل لنا

وبلوناك فلم نرض الخـــبـــر»

ولكن أبا الفرج يقول إن هذه الحكاية تحامل من مصعب الزبيري وعصبية، يدل على بطلانها أنها، عندما مات عمر، ندبته قائمة، ولم تندب أحداً من أزواجها إلا جالسة. وشاع خبر هذين اللذين لا يرتويان أبداً :

«كنت عند عائشة بنت طلحة، فقيل لها : (قد جاء الأمير) فتنحيت، ودخل عمر بن عبيدالله، وكنت بحيث أسمع كلامهما، فوقع عليها فجاءت بالعجائب. ثم خرج. فقلت لها :

(أنت في نفسك وموضعك وشرفك تفعلين هذا!)

فقالت :

«إننا نتشهى لهذه الفحول بكل ما حركها وكل ما قدرنا عليه.»

اجتاح النساء جنون أن يرينها عارية. قالت ضرة عائشة، رملة بنت عبدالله بن خلف، لجارية عائشة :

«أريني سيدتك متجردة ولك ألفا درهم.»

فأشرفت عليها رملة، ورأتها مقبلة ومدبرة، فأعطت الجارية ألفي درهم وقالت :

ـ «لوددت أني أعطيتك اربعة آلاف درهم ولم أرها.»

أحست رملة بالموت يلتهم خلاياها، فقد كان جسد عائشة هو هلاكها. تحسست ثدييها وفخذيها وقالت: «ماذا أبقت الأيام مني؟» كانت قد تقدمت في السن، ولكنها كانت تقاوم عامل الفناء بكل وسيلة، فتتجنّب زوجها في أيام إقرائها، ثم تغتسل، تريه أنها تحيض، وذلك بعد انقطاع حيضها. ولكنها وهي ترى هذا الجسد الفاره، وتلك الأنوثة العارمة ممنوحة لزوجها فأي أمل بقي لها.

لقد أصبحت مع الموت في مواجهة مباشرة، فأطلقت صرختها اليائسة: «لوددت أني لم أرها.»

٤

الراسبي يشتري الجنة

كان أبو الوازع الراسبي مفكراً ومجتهداً من مجتهدي الخوارج وشاعراً، ولقد شعر أنه في اللحظات الحاسمة الفعل هو الذي يقرر كل شيء، فعزم أن يقدم بياناً عملياً يبرهن به بشكل قاطع على صحة مقولته.

***

نافع ابن الأزرق، ذلك المحارب الصلب والقائد العسكري المحنك، ألقى سلاحه في انتظار اللحظة المناسبة.

***

كان نافع بن الأزرق يجلس في جماعة من أصحابه يصف لهم جور السلطان. وكان نافع ذا لسان غضب واحتجاج وصبر على المنازعة. وقف أبو الوازع على رأسه واستمع إليه، ثم قال له:

ـ «يا نافع، لقد أعطيت لساناً صارماً، فلوددت أن صرامة لسانك كانت لقلبك وكلال قلبك كان للسانك. أتحض على الحق وتقعد عنه، وتقبّح الباطل وتقيم عليه؟» كان لكلامه وقع شديد، فها هو رجل الكلمة يهينها ويعلن عبثيتها. فقال نافع:

ـ «إلى أن تجمع من أصحابك من تنكى به عدوك.»

فقال أبو الوازع:

ـ «لسانك لا تنكى به القوم إنما ... تنال بكفيك النجاة من الكرب

فجاهد أناساً حاربوا الله وأصطبر ... عسى الله أن يخزي غوّى بني حرب»

ولكن نافعاً أعاد ما قاله: التمهيد بالتحريض في انتظار اللحظة المناسبة.

فقال أبو الوازع :

ـ «يا نافع ، والله لا ألومك ونفسي ألوم . ولأغدون غدوة لا انثني بعدها أبداً . »

وعندما غادر أبو الوازع الجماعة أحس بالحاجة إلى أن يكون أكثر تحديداً ودقة : الكلام لن يولد إلا الكلام وسوف تستمر المسيرة في الحلقة المفرغة لما لا نهاية . اشترى سيفاً وأتى به إلى ذلك الصيقل «الذي كان يذم الخوارج ويدل على عوراتهم . » دفع السيف ، وشاوره فيه فتحمده . (كان منظر هذا العالم الجليل وهو يمسك السيف أمراً أثار عجب الصيقل وشيئاً من سخريته) . قال له أبو الوازع :

ـ «اشحذه ! »

تردد . (نزوات وأفاعليل هؤلاء الخوارج لن تنتهي أبداً . ولكنه محتاج للعمل ليعيش) . أخذ السيف وشحذه ثم أعاده إليه . سأله أبو الوازع إن كان السيف حاداً بما فيه الكفاية؟ فأكد له الصيقل ذلك وهو يعرض السيف للضوء الشحيح القادم من الباب ، ويمر إصبعه على شفرته . ولكن أبا الوازع كان متوجساً ، فألح عليه أن يعيد شحذه . (بالنسبة للراسبي لم يكن الأمر يحتمل أي شك) .

فكر الصيقل أن إدمان العلم يذهب بعقل من يزاوله ، ولكن عليه أن يرضخ .

لم يكن إلحاح أبي الوازع لشعور عبثي بالفكاهة السوداء ، أو بسبب استمتاعه بالمفارقة التي يجسدها ذلك الموقف ، ولكنه كان يرى مصائر الآلاف معلقة بقراره . لقد رأى عين التاريخ العتيقة العريقة ، الفتية في الوقت ذاته ، ترمقه منتظرة لتعاين كيف يعالج المثقف ذلك الخلاف القديم بين النظر والعمل ، بين الكلمة والفعل ، ولهذا كان أبو الوازع مكدوداً مهموماً . فقد ينتهي كل شيء على غير ما قدّر وتظل قضيته بلا توضيح كاف .

في تلك اللحظة كان لكل فعل ولكل عبارة دلالة تتجاوزها ، وسوف تظل أبداً ممعنة في ذلك التجاوز . (أرى في ذلك الدكان البائس عجوزاً يرتدي فروة بائسة ، نحيلاً ، صارم الوجه ، عاش حياته دارساً وباحثاً ، يقف ضئيلاً أمام الصيقل العملاق المسودّ الوجه واليدين بنار الكور . . . وأرى الملايين من أهل السواد والجوعى والأعراب الذين يسحقهم السادة الارستقراطيون من بني أمية ، يتجهون بعيونهم إلى ذلك المكان في انتظار القرار . . .) .

مد له الصيقل السيف وضحك، ثم أوقف ضحكه. قال إن السيف أصبح حاداً للغاية، يطير به الرأس دون مجهود. وكان يبطن السخرية، فما الذي يبغيه رجل أمضى حياته في طلب العلم من الإلحاح على شحذ سيف لن يستعمله أبداً.

أمسك أبو الوازع بالسيف وصاح: «لا حكم إلا الله» وخبط عنق الصيقل. ما زال الصيقل في جلسته كبيراً، ثقيلاً، ينبع الدم من عنقه المقطوع، وتدحرج الرأس على الأرض، وهو ما يزال يحمل تعبير الثقة والتهكم الذي نطق به كلماته الأخيرة. (ما الذي جعل هذا الكادح البائس يخون قضيته ويذم الذين نذروا أنفسهم لتخليص كل الكادحين من عسف وطغيان بني أمية؟ لم يراع أبو الوازع بؤس الصيقل ففي لحظات الحسم لا مكان للتردد).

طالع أبو الوازع الرأس: لقد كان الصيقل صادقاً، إذن!

«اللهم اجعلني واضحاً» هكذا صلى أبو الوازع. لم يكن حديثه الدامي موجهاً إلى علماء يستعذبون دقائق القضايا الفقهية أو تعقيدات علم التوحيد، بل كانوا أناساً فاض بهم الكيل ولم يعد أمامهم سوى العنف يحلون به مأزق وجودهم البائس. وفي العنف تكون الخطوط واضحة، صريحة، لا لبس فيها.

خرج أبو الوازع من الدكان وسيفه يقطر دماً، فحمل على الناس فتهاربوا منه. أسرع في الطرقات يضع السيف في كل من يلقاه، في أعناق أولئك الذين آثروا المذلة والخضوع على الخروج وحرب السلطان، وهو يطلق شعار الخوارج المعروف «لا حكم إلا الله!» اندفع كالعاصفة يشم نسيم الجنة التي اشترى مكانه بها منذ قليل حتى أتى مقبرة لبني يشكر، فدفع عليه رجال حائط السترة فمات لساعته. فكرهت بنو يشكر أن يدفن في مقبرتهم «خوفاً أن تجعل الخوارج قبره مهاجراً».

عند ذاك تبين نافع بن الأزرق بأقصى قدر من الوضوح وجهة نظر أبي الوزاع، وأدرك الأكذوبة التي تتخفى وراءها «خدعة اللحظة المناسبة»، فاستبدل بلسانه صارماً وقامت حرب الطبقات. تبعته عشرات الألوف من البؤساء والمعدمين، ولسنين طويلة حارب وهزم جيوش «غوي بني حرب» إلى أن انهزم في النهاية ومات.

١

الوقوف على الأطلال

في السابعة صباحاً، وهو في وهدة النوم، دهمه إحساس ممض بالكارثة. في مثل هذه الساعة من كل يوم يستيقظ مرهقاً ليذهب إلى العمل. خالط ذلك معرفة بأن هذا اليوم هو يوم إجازته الأسبوعية، فغاص في غبش الدفء يعاني ثقل الشعور بالذنب. أحس بذلك، جسدياً، على شكل صعوبة في التنفس، يخالط ذلك عبء واجب ثقيل وضروري يلح عليه، طالباً التنفيذ.

تململ قليلاً، ثم همد. كان هنالك شخص آخر صارم، يفعل ما هو واجب، متعال على الضعف الإنساني، ويحتقر كل مبالغات وهوج الشخص الآخر الذي يطالب بالراحة، ويشكو بافتعال شديد من فرض صرامة على حياة نهايتها محتومة. استسلم الشخص الآخر باشمئزاز، وأنهى الحوار قائلاً :

ـ «دلع ستات.»

يتكور داخل السرير، مستمتعاً باحتكاك فخذيه.

كان هنالك معرفة قبلية أنه خارج المساحة التي يحتلها جسده في السرير يقف البرد متربصاً. للبرد حضور عدواني، مخاتل، قسوة طبيب أو ضابط بوليس يحتقر متعة اللحظة ويسعى لتحقيق نتائج هامة عبر الألم والمعاناة. أطل عليه البرد منكمشاً في السرير وقال :

ـ «دلع ستات.»

طعم رديء في حلقه. أحلامه مملة، ثقيلة، تتكرر بلا انقطاع.

يكتشف الخديعة منذ أول لحظة، قبل أن تبدأ، لأنه قد عاشها قبل ذلك، وهو لهذا يرفضها، ويقاومها بعنف. ولكنه المرة بعد المرة يجد نفسه في داخلها، ورغم الملل الذي يسيطر عليه، فعليه أن يبدأ من جديد. هنالك الرجل رقيق، دمث، يقود عربة

حنطور. كان يرتدي ملابس أوروبية كاملة ويمسك بعصا رفيعة، طويلة. والحصان شديد العصبية بسبب اللجام الذي يكبح جماحه ـ نظرة الحصان الجانبية كانت تدل أنه يعلم. ورغم الظلمة فقد كان كل شيء شديد الوضوح. يميل الرجل الأنيق، الدقيق، من فوق كرسي العربة، ويقول ووجهه شديد القرب والدماثة، إنه هو أيضاً ذاهب إلى شارع فؤاد ويدعوه للركوب معه (ما دمت في طريقي) يقول: ثم يرسم ابتسامته الجميلة على فمه ويشير بكفه إلى داخل العربة ويقول:

ـ «اتفضل سيادتك.»

ولكن هنالك مشهداً آخر، يراه في الوقت نفسه، أو ربما قبل ذلك. يرى نفسه يهبط من العربية، وجو رمادي ـ بسبب الغيوم والمطر، أو ربما لأن تلك الفترة كانت السابقة على طلوع الفجر ـ اسمر يكتنف الشارع. يرى الشارع خالياً تماماً، ولكن هنالك خوفاً غامضاً قادماً من ميدان العتبة لا يستطيع أن يتبين كنهه وذلك بسبب النسيان أو لأنه لا يستطيع أن يركز أفكاره تماماً. يهبط من العربة فيندفع عدد من الأشخاص من بوابة عالية للغاية لإحدى عمارات شارع فؤاد القديمة ويحاولون أن يختطفوا منه شيئاً أو أن يضربوه. يتضح أن سائق العربة متواطئ معهم، بل هو قد قاده إلى هذا المكان ليزج به في هذا الكمين. يبدو أن عراكاً قد تم، انتصر هو فيه، أو أن المهاجمين قد كفوا من تلقاء أنفسهم، فالشنطة ما زالت في يده. يفتح الشنطة فيجد فيها حلاوة طحينية فيقول: «هذا هو السبب، لقد علموا أنها مستوردة» ويقبل عليها وهو يشعر بجوع لا إشباع له. لسرعة التهامه لها لا يجد لها طعماً.

كيف انتهت المعركة؟ لا يدري. إلا أنه قد اعتبر نفسه قد انتصر عليهم ـ دون أن يكون مقتنعاً بذلك تماماً. وهو لهذا السبب يرفض أن يركب العربة، يرفض بحدة، عندما دعاه الرجل الرقيق المهذب. إنه يصرخ في وجه ذلك الرجل متوعداً:

ـ «شغل الفهلوه التافه مش عليا أنا!»

والرجل يفرك يديه، وترمش عيناه بارتباك وحرج واضحين.

لم يكن هذا هو ما يضنيه، بل وجوه الأصدقاء التي تظل غير مكترثة عندما كان يواجه المأزق، وهم أقل اكتراثاً عندما انتصر. لا أحد منهم يمتدح ذكاءه عندما أدرك مقدماً ما كان يراد به، ولا أحد يثني على شجاعته عندما واجه الأربعة ـ ربما كانوا أقل من ذلك ـ وانتصر. يزيد إحساسه بالأسى خوف أن يكون هؤلاء الأصدقاء قد تيقنوا أن

انتصاره لم يكن له فضل فيه. كان الصحاب مستغرقين في أحاديث طويلة، مسئمة، لا يستطيع استعادتها بالكامل، ولكنه يذكر أن أحدهم كان يحكي بوقار وثقة شديدتين كيف أنه يستطيع أن يردد سبع كلمات، كل كلمة تبتدئ بحرف (ح) فتنهار أمامه أي فتاة دون مقاومة. وكان الآخرون من خلال تعليقات ضاحكة يعبرون عن إعجابهم بهذه القدرة ويتظاهرون بلوم أنفسهم لأنهم لا يملكونها. وكان هو يعلم أن ذلك نفاقاً منهم ومجاملة. وعندما يغادرهم محتجاً، مشمئزاً لم يبد عليهم أن ذلك أثار عندهم أي اهتمام، فيخنقه شعور بالهجر والظلم، ولكنه يجد ذلك الرجل الدمث الرقيق مرة أخرى، يميل نحوه من فوق كرسيه ويعرض عليه أن يأخذه إلى شارع فؤاد لأن طريقهما واحدة، وأن ذلك لن يكلفه شيئاً فيرفض بقوة وعنف ويهدده :

ـ «فاكرني سايح؟»

وهكذا يمضي الحلم المرة بعد المرة.

يصحو لثوان قليلة، فيقول لنفسه، كيف استطاع ذلك الرجل أن يعلم أنني ذاهب إلى شارع فؤاد لو لم يكن هنالك تربص شرير. يعود للحلم، فيحاول أن يقول ذلك للرجل، ولكن الجملة تبدو له طويلة وخارج السياق فيكتفي بالتهديد والزعيق :

ـ «شغل الفهلوه ده ينفع مع السواح مش معايا أنا!»

ثم يرى نفسه جالساً مع ذلك الصديق النحيل، الطويل الذي يوقع أي فتاة إذا نطق سبع كلمات. يأخذ في شرح مفصل شديد الإملال. إنها تصحو وتفتح البلكونة في السابعة إلا ربعاً وتطل على الشارع. (يراها تفتح البلكونة، شعرها الأسود الكث ينساب بخصلات ناعمة على عنقها الشامخ، فمها المكتنز ما يزال يحمل آثار روج قديم، وجسدها يلمع لمعة فسفورية تحت قميص نومها الرقيق الشفاف). يكون شارع فؤاد خالياً ولكن من المنتظر أن يأتي السائحون من المطار وينظرون إلى أعلى، وفي هذه الساعة تقف عربة الحنطور منتظرة، فللسائحين نزوات. (من الواضح أنهما ـ هو والصديق ـ يطلان من مكان ما على شارع فؤاد في تلك الساعة بالذات لأن المرأة انحنت من فوق البلكونة وأخذت تلوّح بيدها وتصيح :

«مرحب، مُرحب، يا أخا العرب.»

بينما مد سائح ذراعه من شباك الأوتوبيس السياحي وأخذ يلوّح لها)... ومضى

يحكي ويحكي، لم يفهم كل ما قاله ولكن مدلوله كان واضحاً : من أجل السائحين يجب أن تختفي الخلافات الداخلية كتلك التي كانت بينه وبين هؤلاء الذين اشتبك معهم في شارع فؤاد. وعلى هذا الأساس فهو قد كان مخطئاً، ولكن ذلك منتظر تماماً من بورجوازي صغير مثله. وفجأة أخذ يزعق بصوت مختنق وبانفعال ترافقه الدموع :

- «إيه رأيك بقى ان الحلاوة الطحينية ما كانتش مستوردة، لكنها مصنعة هنا بيد واحدة من بنات هذا الشعب الطيب، امرأة عادية مثل عشرات الآلاف غيرها من بنات هذا الشعب! إيه رأيك بقى..!»

ولكن الصديق يبدأ من جديد.

صحا من النوم مرة أخرى. كان ضجراً، مجهداً. انتزعه من الاستسلام للخدر المرهق، الدافئ جزع غير محدد - جزع يتصل بهواء الحجرة الذي لم يتجدد منذ البارحة، وطعم كالقيء في حلقه، يخالط ذلك، ويتخلله الإحساس الثقيل الملح بفعل غير معروف لديه عليه أن يقوم به دون تأخير. يضاد هذا ويوقفه هول مواجهة العالم - الخارج - البرد - الخوف - خيبة الأمل ثم تكرار الأشياء الممل.

خلال هذا الشلل حاول أن يكتشف الكلمات التي تبتدئ بحرف (ح) والتي تجعل أي فتاة تنهار دون أدنى مقاومة. «حلوة، حمامة، حسناء... ولكن لا بد من وجود فعل مع هذه الأسماء، حار، حان، حام.. يحن.. هذه هي الكلمة مؤكدة، لا، لا، لا يمكن أن يكون الفعل مضارعاً... وما لزوم الفعل أصلاً، ذلك في اللغة الانجليزية، حنون حميم... حرارة حماية.. كيف تصبح الجملة إذن؟ هذا مسئم جداً...»

تسربت إليه يقظة فاجعة عبر ذلك الشلل - كأنك تنتظر موعد إجراء عملية جراحية أو أن تستدعى للتحقيق، أي للتعذيب - ها هو يكرر الاستيقاظ من النوم لما لا نهاية ولا تحدث المعجزة.

الخادمة لن تأتي هذا الصباح وقد لا تأتي أبداً «هيه الخمسة جنيه دي فلوس دي؟» التضخم النقدي، للنظام الاقتصادي العالمي، غانا تصدر الكاكاو إلى بريطانيا «كده؟»

«دي الخمسة جنيه الواحدة بتطلعهم في الخضار» يقول لها «يعني بتسمسري؟» واقفة بباب الصالون متكئة بكتفها على دفته المغلقة «سمسرت منك حاجة؟ دول سواح» يكلمها باشمئزاز «بس السواح مش عايزين الواحدة علشان الغسيل والطبخ بس... انت عارفه...»

ـ «همه حايبصوا لخدامة يعني؟»

«بطلي استعباط»

ـ «وبيقول استعباط!»

دعاء السيجارة وفنجان القهوة يحمل وعداً بالفرح والتجدد، وعداً هو البداية والتمهيد للمعجزة التي لم يكن متأكداً من ماهيتها ولا من طريقة حدوثها. لكنه كان على يقين ليس له أي سند منطقي أو واقعي أنها سوف تحدث هكذا فجأة محطمة كل ضغط الحياة الذي يختنق في دوامته.

راقب اليقظة تسري في أعضائه، متخذة من الإحساس بالذنب أداة لها. نهض من السرير وأخذ يبحث عن الشبشب بقدميه، وهو يصغي لصوت العالم، محاولاً أن يستدل من أصواته المدغمة على ما يحدث فيه. لبس الشبشب وتوقف، فعرّاه البرد وخذل ساقيه. ثم سار في عتمة مليئة بالكمائن المحتملة ـ قد يصطدم بكرسي أو بطرف المكتب الذي يصيب الركبة دائماً أو قد يتعثر بالحذاء. توقف أمام زجاج الباب المؤدي إلى البلكونة في العمارة المواجهة، لم ير جارته تنشر الغسيل على بلكونتها تثقل نهديها فتحة قميص نومها، لم يسمع أصوات النسوة والأطفال تنبعث من أبواب المطابخ المطلة على سلم الخدم. كان ذلك باعثاً على الاكتئاب. ارتفع بجسده ووقف على رؤوس أصابعه ليرى قضبان الشرفة. شاهد قطرات الماء عالقة بها. تولته رعدة.

عاد وليس البلوفر. (هاكم مصلحة الأرصاد! ولكن تلك مشكلة عالمية). فتح زجاج الباب عدة سنتيمترات. نفذ صقيع له ملمس. لسع أنفه فارتعشت عيناه ـ لسع دقيق، سريع، كضربة حد الموسى. أقنع نفسه أن الهواء يتجدد الآن: الهواء النقي المغسول بماء المطر يدخل ولأنه ثقيل فهو يطرد الهواء الراكد الدافئ إلى أعلى، يُحدث تياراً إلخ...

خرج من حجرة النوم. لبابها صرير فاضح. أضاء المطبخ، نور المصباح الكهربائي أصفر، أعشى، خائر. رائحة رطوبة محملة بروائح بقايا طعام متعطن، ونفثة من البوتاجاز في الجو. وضع الكنكة فوق الموقد، أشعله، ثم عاد إلى فراشه. دفء السرير ذكره أن قدميه تثلجتا. انطلقت منه تأوهة متعة وكنّ تحت الغطاء. (يلمس كتفها، تستدير إليه. تخفي رأسها في صدره وتلتف يداها حوله. ساقاها العاريتان دافئتان. تضع إحداهما بين ساقيه، والأخرى فوقه. ثم ينتظم تنفسها، وتكنّ.

أنفاسها دغدغة رقيقة في نحره . . » .

قدر أن الماء قد ابتدأ يغلي . تردد مستمتعاً بآخر نفحة دفء . (كان طعم ليالي السهر في حلقه ـ النقاش والمشروعات ـ وعندما يغادرونهما كانا يبدآن هما ، يشربان بقايا الزجاجة ، وربما فتحا زجاجة جديدة . تكون رحمة مشتعلة ، لا ترتوي أبداً . أنفاسها تتردد في نحره قبل أن تغفو ، أنفاسها في نحره قبل أن تصحو في الصباح . يجذبها إليه فتهمهم وتزداد التصاقاً . . .) .

يضطرب في سريره . جاهد ومد يده وأمسك بالساعة الموضوعة على الكومودينو ، قرب السرير ، كانت تشير إلى التاسعة وبضع دقائق . (كان بإمكاني أن أنام ساعة أخرى . ربما بعد القهوة . . إنها تغلي الآن . .) . نهض من السرير ، اتجه إلى المطبخ . لم يكن الماء قد غلى بعد . تكونت فقاقيع على استدارة التقاء الماء بجدار الكنكة (كأن صغرى وكبرى من فواقعها . . عمامة ولحية مدروة . . هكذا أبو نواس في الصور) . أخذ سطح الماء يتفزز بانفجارات ميكروسكوبية كأن رؤوس دبابيس غير مرئية تصعد بسرعة إلى السطح ثم تختفي تاركة وراءها وجه الماء مكتظاً بالبروزات الصغيرة المدببة . (لقد فقدها أبو نواس تلك التي غلى ماء الشباب بها وأفعمت في تمام الجسم والعصب . . صور جواري راقصات على كؤوس الخمرة . .) .

هنأ نفسه وهو يرى الماء يغلي . لقد غادر الفراش في الوقت المناسب (يتغير طعم الماء عندما يغلي كثيراً) . رأى في ذلك طالعاً حسناً ، سوف يمتد وينفذ إلى ساعات يومه كلها . اضاف السكر والبن وأخذ يحركهما .

عاد بكباية القهوة بلا طبق . وضعها فوق الكومودينو . سوف تزول هذه الرعشة التي تغشاه وتخذل خطواته . مد يده إلى زجاجة الروم ، بجوار السرير ، وأضاف منها قطرات قليلة إلى فنجان القهوة . تردد قليلاً ، ثم أضاف قطرات أخرى . نفذت إليه رائحة الروم ، قوية ، مثيرة للغثيان . انتظر قليلاً حتى تهدأ معدته . أصبحت رائحة لطيفة : كان يعد نفسه للسرور في هذا اليوم .

مع الجرعة الأولى من كباية القهوة ، وقد تخلل بخار الروم رأسه وجعله قادراً على التنفس بحرية أكبر ، ومع النفس الأول من السيجارة يرافقه دوار خفيف لذيذ ، استمتع بالاستسلام له وبالتغلب عليه ، استعاد سيطرته على اللحظة ، وعلى التخطيط لما يلي من ساعات النهار ـ سوف تكون ساعات ممنوحة للفرح وللاكتشاف . ذلك كله

مشتمل وموضوع في إطار حس متفائل ورغبة جارفة بالاستمتاع الحسي. حدس خالص ينبؤه بأنه في هذا اليوم بالذات سوف تبدأ المعجزة في الحدوث، أحس بنفسه متفتحاً لها وقد أخذت بوادرها تبدو.

الروم يفتح مسارب مغلقة في صدره وطعم القهوة عتيق أليف. انفعاله تحول إلى إيقاع... كان ذلك الإيقاع القديم. تعود إليه الدار، ومجلس الرجال (حكايات الفرسان والحب والأشعار ولحن الربابة)، وأصوات النساء ثرية منغومة (حكايات الرعب: الأشباح والأرواح الشريرة ونذر الموت).. طرقات القرية، البيوت المسورة.. ثم فجأة دهمته الذكرى وسط إضاءة بيضاء مبهرة. كان يطل من فوهة البئر. في منتصفه كوم حجارة سمراء، بيضاء، بركانية سوداء، تحيط الكوم دائرة من الماء الأسود اللامع، على أطرافها ظلمة وامتدادات صخرية زلقة، في تلك الامتدادات كانوا يجدون عش الحمام فوقه بضع بيضات صغيرة الحجم، ومرة لمس أفعى... فكر أن يصرخ في باب البئر ليسمع صدى صوته يرتد إليه متتابعاً. عندما رفع رأسه رأى الفتاة البدوية، راعية الغنم، تقف في مواجهته، تراقبه. في وجهها ضحك كثير، وعيناها براقتان بالشر والحيوية. اقتربت منه حتى توقفت أمامه. كانت أقصر منه قليلاً. رفعت رأسها إليه، تسطع عيناها بضوء أسود، والعرق يبلل جبينها. فجأة أحاطته بذراعيها، امتد جسدها واستطال، تعلقت به وهي تقف على رؤوس أصابع قدميها ثم قبلته على خده قبلة سريعة تمطقت بعدها.

كان يقرأ رواية ماجدولين. انهكته حتى الاختناق الدموع والآلام التي يعانيها العاشق، وقرب نهاية الرواية، على ما يذكره، رأى العاشق بعيون أخرى غير عيني حبيبته ففوجئ به رث الثياب، مهمل الهيئة، بينما كان قد تصوره فتى انيقاً وجميلاً. أزعجه ذلك فتوقف عن القراءة. تحت ظل الصخرة التي يجلس تحتها رأى منطقة نشع الماء فيها، ورأى عيون السحالي ترقبه بتلك النظرة العارفة، المخوفة. أحياناً تمرق أمامه وتتوقف وقد مالت برأسها قليلاً نحوه، فيراقب بطنها الأخضر ينبض.

ثم سئم ذلك كله، العاشق الزري الهيئة والسحالي ونشع الماء تحت الصخرة وكل شيء، فقرر أن يطل في البئر ويصرخ ليسمع رجع صوته، فخرجت إليه الفتاة البدوية من أحد الكهوف. كان قد رأى الماعز ولكنه لم ير راعيتها ـ لم يحاول ذلك على أي حال ـ إلى أن رآها واقفة أمامه. ثم قبلته وتمطقت وعيناها العسليتان ترقصان بالشر

وتتوهجان بنور شرس. انفصلت عنه ووقفت قريبة، وكانت تحمل عصا قصيرة، بيضاء، تشير بها عندما تتكلم. سألته عما يفعله في هذا الحر (قالت : في هذا الموت) وحيداً وبعيداً عن القرية، وضحكت. كانت عبارتها تتضمن تلميحاً بذيئاً أدرك معناه وأخافه. أخذت تدفع عصاها في صدره المرة بعد المرة وهي تقول أي شيء كنت تنوي أن تفعله، قل لي، ولماذا لا ترد، ولماذا أصبح وجهك أحمر بالخجل كأنك بنت أيها الولد النصراني؟ لماذا لا ترد، هل أنت أخرس؟ . . . يتذكر الآن بدهشة أن وجهها كان غاضباً، رغم أنها كانت تنفجر بين آن وآخر بالضحك. ثم ألقت بالعصا بعيداً وأحاطت جسده بذراعين قويتين، وأخذت تضغط وتضغط، ثم قبلته. كان يختنق بين ذراعيها. قال لها :

ـ «اتركيني!»

فتزايد ضغطها. كانت هي أيضاً تلهث. قال بصوت شاك، مختنق :

«اتركيني، بقول ليكي، اتركيني!»

حاولت أن ترفعه عن الأرض فلم تستطع. ثم أرخت يديها قليلاً لترى وجهه، فأمسك بكتفيها ودفعها، ثم انفلت منها وراح يعدو. كانت الفتاة قد سقطت جالسة. نهضت وأخذت تطارده وهي تعربد بالضحك والصراخ. توعدته قائلة إنه لو عاد مرة أخرى إلى هذا المكان وعاود أفعاله القبيحة فسوف لن يعود سليماً إلى أمه. رآها خلفه، ممسكة طرف ثوبها بيدها، وساقاها عاريتان، وهي تعدو وراءه، وتصيح : توقف يا ولد يا نصراني، لن أفعل بك شيئاً، كنت أمزح فقط. أقسمت أنها لن تفعل به شيئاً، ولكنه ابتعد عنها وقد أخذ يشعر بالأمان. توقفت الفتاة وأمسكت حجراً ورمته في اتجاهه. فعلت ذلك بطريقة الصبيان فسقط الحجر قريباً منه وأخذت تواصل إلقاء الحجارة ولكنه كان يمنجى منها. يلتقط حجراً ويصوبه نحوها، كاد أن يصيبها، تفاجأ وتتوقف ثم تنطلق بسيل من البذاءات لم يكن يعتقد قط أن فتاة يمكن أن تتلفظ بها.

شرب جرعة من كباية القهوة ففاجأه طعمها الغريب، ثم تذكر أنه أضاف شراب الروم إليها.

يستعيد ما حدث مع الفتاة البدوية، يصيغه من جديد محولاً إياه إلى حلم يقظة. رآها تنبثق من تلك الصخرة الرمادية التي تبرز من الهضبة الوعرة، تبدو كتلة سوداء

تنمو وتتحدد كلما اقتربت منه. تقف في مواجهته، يطل من عينيها مرح جامح. تحيطه بذراعيها، ولكنه ينفلت منها بسهولة ويحيطها بذراعيه. يحس بضغط ثدييها على صدره فيرفعها إليه ويبادلها القبلات. تجوس يداه، تداعبان ظهرها برفق وهو يواصل تقبيلها. عندما يشعر أنها استسلمت تماماً يحيط خصرها بذراعه ويسير بها إلى الكهف. هناك يعريها برفق ويأخذها. يتابع الخطوات نحو العملية الجنسية باستمتاع غير متعجل الوصول إلى النتائج النهائية.

يتجدد حلم اليقظة وقد أخذ مساراً ثابتاً. إن ذلك اللقاء الذي لم يتم مع الفتاة البدوية سيظل دائماً يجد منفذاً إلى أحلام يقظته.

دق جرس الباب دقات متقطعة ملحاحة فاختلج قلبه باللهفة. بدا له أن ما يحدث هو بداية تحقق المعجزة حيث انحلت صلابة قوانين العالم فجاء ذلك الجرس لدفع الذكرى من منطقة حلم اليقظة إلى الواقع المتحقق. عندما فتح الباب حاولت رغبته المستحيلة، الخانقة، اليائسة في تحقيق المعجزة، أن تلقي على تلك الكتلة المرتجفة الواقفة أمام الباب تموء باستجداء لاهث، خشن صورة فتاة بدوية. كاد أن ينجح، كان عليه أن يفعل شيئاً ما، مجموعة أفعال صغيرة متتالية بسرعة وحسم حتى يتحقق ذلك ـ ولكنه تردد، نسي ما يجب عليه أن يفعله، لم يكن يعرف أصلاً ما يجب أن يفعله لأن ذلك لم يكن يحتاج إلى معرفة بقدر ما يحتاج إلى إلهام، فتبعثرت قدرته على التركيز: كوني تلك الفتاة! غير أنه لم يكن مستعداً، فافلت الخيط منه، وهجم عليه الزمان والمكان، أحاطا به وأعاداه إلى حيث يقف، فكان مَن بالباب رجل لا يكف عن الارتعاش. (يحيطها بذراعيه، ثدياها يضغطان...) ولكنها ظلت مجرد كلمات تنزلق فوق رسوخ الموقف.

قال الرجل من خلال لهاثه:

ـ «الظالمين، الظالمين...!»

ويمضي، لا يبين، في همهمة متحشرجة تبتلع تحدد الكلمات. ثم مد يداً قد أحنى كفها إلى أسفل مواصلاً ارتعاشه وقال إنه مصاب بالسرطان.

ـ «سرطان؟»

ويتدفق الرجل:

ـ «الظالمين، طردوني من القصر، الظالمين، علشان فقير ومش بتاع حركات. . .»

حاول أن يتحرر من حصار الرجل، ولكن الصوت اللاهث لاحقه ملحاً، ثقيل الوطء : سرطان (ويمد ذراعه على زعم أنها مشلولة) والطرد من القصر العيني، وعنده تسعة أولاد، وزوجته شيء ما غير واضح حدث لها. . .

قال له بحدة :

ـ «كام ولد؟»

توقف الرجل عن الاهتزاز ونظر إليه بدهشة، وقال بصوت خلا من حماسته السابقة :

ـ «ربنا يخليك يا بيه، يطول لك عمرك. .»

ـ «بسأل كام ولد عندك.»

ـ «تسعة.»

تردد الرجل قليلاً ثم قال إنه عائلهم الوحيد. قال ذلك وهو يلتفت خلفه. أمسك هو بالباب وقال للرجل :

ـ «شكراً.»

ثم أغلق الباب وعاد إلى حجرة النوم. (فكرته ـ هذا المتشرد الوقح ـ عن السرطان ساذجة للغاية. ما العلاقة بين إصابته بالسرطان وكون يده مشلولة؟ ماذا قلت؟ أقول : ربما أراد أن يقول إنه مصاب بالسرطان، وإنه بالإضافة إلى هذا يده مشلولة. ولكن لو اكتفى بالسرطان وحده لكان ذلك أوقع، فليروح في ستين داهية، ليست مهمتي أن أعلمه كيف يتقن أساليب الشحاذة، فليذهب إلى الأشقاء السواح فسوف يعطونه سوتيانات بثمن رخيص. . بالفعل سوف يكون تأثيره أشد لو أنه وقف بالباب بكل هدوء وقال : أنا جائع. . وأنا مالي. . فليغر عني. .)

عاد إلى السرير : لقاء عشق. كانت الذكرى ـ حلم اليقظة ينتظرانه هنالك. اكتشف بخيبة أمل أنه لم يعد راغباً في الاستمرار بهما. أخذ غيظه يتصاعد على الشحاذ (هذا البواب الذي لا يفعل شيئاً سوى أن ينهض ويقول : صباح الخير يا بيه ومساء الخير يا بيه. . . ! كيف يسمح لمتشرد مثل هذا. . . بقولك إيه يا حاج، يعني

الواحد الصبح في يوم الجمعة عايز يرتاح له شوية، تقوم... يجب أن أهبط إلى البواب وأطلب منه أن يشتري لي إفطاراً وصحيفة الصباح، ألا يستطيع الواحد في يوم الجمعة أن يرتاح قليلاً؟! ألا تعلم...).

شرب الجرعة الأخيرة من القهوة. لقد بردت.

٢

البكاء على الأطلال

يتمطى في السرير، يلم الغطاء حول جسده ويحكمه. يفكر أنه أصبح شبيهاً بمومياء فرعونية. ماذا كنت أقول؟ فرعونية؟ مومياء فرعونية. يترقب حركة عزة في المطبخ. يعلم ـ يتذكر فجأة ـ أن عزة ليست هنا، لن تجيء اليوم ولا في الأيام القادمة. يستكن في السرير، لا يفكر في شيء، وينتظر المستحيل: أن يدق جرسها ويدور مفتاحها في الباب ـ تفعل الاثنين سوياً في العادة. يمسك تنفسه ليصغي.. يعلم تماماً أن لا فائدة، ولكنه يترقب همس المفتاح وهو يوضع بثقب الباب.. قالت إنها تخاف أن يدق جرس الباب فيصحيه من النوم وينسى أنها موجودة فيفتح الباب. قال لها إن هذا يستحيل حدوثه، وحتى لو حدث، فمن يزوره لا يدخل حجرة النوم، وبالمناسبة، هل تخاف أن يعرف أحداً عن علاقتهما؟ تقول لا، لا تخاف. إنها ليست من النوع الذي يخاف، فهي عندما تفعل شيئاً فهي مستعدة أن تدافع عنه. ليس هذا ما تعنيه، ولكنهم عندما يأتون ويفتشون فلن تخفى عليهم.

قال لها إنها صديقة تزوره، هذا ما سوف يقولانه. قالت، فعلاً، صديقة تزوره عارية في السرير. قال لها إنها إذا كانت تعتقد أن هذا الوضع مهين لها، فليتزوجا.

ترد بعصبية أنها لا تريد أن تتزوج، لماذا، ليه؟ لأنها لا تريد وهذا كل شيء. تضع يدها على فمه وتقول:

ـ «علشان أريحك مش عايزة أتجوز دلوقتي».

يصمتان.

متمددة على ظهرها باستقامة، اللحاف موضوع تحت ذقنها، قدماها ترفعان اللحاف من طرفه الآخر، تطالع السقف بنظرة ثابتة. كانت متأهبة للشجار. يكبح رغبته في تقبيل وجهها. كان فرحاً بها للغاية. وجهها عندما تكون غاضبة يدفعه للضحك. ترمش عيناها، تتنهد، إنها تعود.

ينحني فوقها. يرفع الشعر عن جبينها، يتأمل وجهها، ثم يقبلها، يقول :

ـ «شكلك زي العبيطة وكلامك أهبل و. . . »

ـ «عايزه أشرب شاي. »

يرتعش جفناها. يداعب شعرها بأصابعه، وهو يدقق النظر في وجهها. عيناها هاربتان منه، يقول :

ـ «وبليدة كمان. »

تقول :

ـ «حانام شوية ولما تخلص الشاي تصحيني. »

تدير له ظهرها وتطوي ساقيها. أشبهت صورة الجنين في داخل الرحم الذي في كتب الطب. يقول :

ـ «ولمضة كمان، وإيه كمان، إيه كمان، وعبيطة وبليدة، وإيه كمان، كمان. . . ؟»

تلتفت إليه، وجهها جاد ـ الجدية قناع تخفي وراءه معابثتها، وتقول :

ـ «مش ممكن عبيطة ولمضة في نفس الوقت. »

ـ «ليه؟»

ـ «مش ممكن. »

ـ «مش ممكن ليه يا أخت عزة؟»

تتحرك شفتاها دون صوت. تتأتيء «عل. . علشان» وتصمت. جفناها يرمشان بمحاولة الكلام، ثم تصاب بالجنون دون تمهيد. تقبله، تشد شعره، تضرب كتفه عدة مرات بقبضة يدها، ثم تقبله وتقرص خده. وجهها في وسط شعرها المنساب وجه طفلة، وجسدها الفتي المرن يختلج بعنف وحيوية، وهي خلال ذلك تقول :

ـ «انت عبيط وأهبل وبليد وغلباوي وعبيط وبليد ولمض وغلباوي وأهبل، وما فيش غير ازاي وليه ومين ولعل وعسى وازاي وازاي ودقنك خشنة. . . »

ـ «يا مجنونة. . . »

وتمضي :

ـ «وحا ادبحك وحاموتك . . »

ـ «يا مجرمة . »

ـ «وحاعملك كفتة واخليك تعرف ان الله حق، وتعرف الأخت عزة تبقى مين . . . »

وتضع كفيها على كتفيه وتضغط : «تحرم؟!» ثم تقفز من فوقه بمهارة لاعب الجمباز وتسرع إلى الخارج، ثم تناديه من المطبخ :

ـ «بتشرب شاي؟»

ثم تكلم نفسها :

ـ «ما انت بتشرب أي حاجة . »

ثم يعلو صوتها :

ـ «مية المطر نزلت من تحت باب المطبخ . فين الممسحة؟ عارفة، عارفة حاتقول إيه . »

ـ «حاقول إيه؟»

ـ «مش سامعة؟ عارفة حاتقول ما تكلمينيش لما يكون كل واحد في أودة . بس المطبخ مش أودة يا حلو . اسأل لجنة تقدير الإيجارات إذا ما كنتش مصدق . . . »

يسمعها تتحرك في داخل المطبخ وهي تهمهم . يقدر أنها تضع الممسحة تحت الباب لتمنع تسرب المياه من الخارج . يتصورها تفعل ذلك فيكربه بعدها، يشتاق لقربها منه، إلى تأكيد حبها له . يبلغ ذلك حدود اللوعة والألم . بدا أنها لن تنتهي أبداً من ذلك المطبخ، ينادي :

ـ «إيه؟»

يسمعها تقول :

«حسن جداً . »

فيعلم أنها انتهت من وضع الممسحة تحت عقب الباب . يسمع خطواتها خفيفة، واندفاع الماء من الحنفية . تغني وكأنها تلقي خطبة :

ـ «طبعاً ما انا أم البطل . . »

تتوقف فيناديها :

ـ «إيه بالضبط اعتراضك على شريفة فاضل؟»

لا ترد.

ينادي :

ـ «ما بتغرديش ليه؟»

ـ «قلت إيه؟»

يقول :

«وطرشا كمان. بقول إيه اعتراضك على شريفة فاضل على وجه التحديد؟»

ـ «أنا مش معترضة عليها.

- "Iam against her raison d'etre (1).

- "Trying to be brilliant?" (2).

- "No, Just philosophical" (3).

يتذكر عندما رأى عزة لأول مرة. بدا وجهها مألوفاً له وفجأة غاص قلبه. (لا يمكن أن يكون ذلك حقيقياً، من المستحيل أن يكون ذلك حقيقياً). كانت هي نفسها الفتاة التي أحبها يوماً ما، منذ خمس عشرة سنة. كان يعرف تماماً أنه كلما تأملها أكثر فإن التشابه سوف يزداد بينهما. احناءة الرأس عندما تسير والمشية المسرعة، واهتزاز الجديلة متواقتاً مع إيقاع خطوها... كاد أن يصرخ وهو يشهد ذلك منادياً :

«نادية!»

واختلطت في ذهنه الأماكن. يكاد يرى في اعتصام الطلبة في ميدان التحرير امتداداً لذلك المعسكر الذي كانوا يتدربون فيه أيام العدوان الثلاثي... يحاول أن يستعيد إحساسه بالواقع ولكنه ينفلت منه، يتسرب الميدان وحشد الطلبة إلى ذلك المعسكر البعيد في منطقة القنال. «هل يعود إلى الحياة بعد ذلك الموات الطويل؟ هل كانت هذه السنين العشر التي مرت مجرد حلم مزعج وانتهى؟» كانت ترتدي بلوفر

---

(1) أنا معترضة على علة وجودها.

(2) أتحاولين أن تكوني ذكية؟

(3) لا، مجرد حالة فلسفية.

أسود برقبة وكمين طويلين وبنطلون قطيفة كحلي. لم يكن يبدو أنها مهتمة بالنقاش السياسي الذي يدور، بل كانت تتنقل بين مجموعات الطلبة بروح عملية للغاية. لقد ظلت في الميدان حتى الخامسة صباحاً حيث اعتقلت.

كانت عينه تلاحقها أينما ذهبت. وكان يستطيع تمييزها على الفور من بين الآلاف (يتذكر نادية في تلك الندوة الأسبوعية، كان الجميع يتناقشون ويتصارخون، ولا أحد يصغي للآخر. أما نادية فقد كانت تجلس صامتة، متميزة، وجهها الساكن الحساس يبدو جديداً في كل لحظة. وكانت ـ بشكل يصعب تحديده ـ تبدو وحيدة وخارج هذا الجو ـ كانت الوجه الذي تتركز عليه الكاميرا في جمع حاشد ـ . . . يتذكر نادية : عندما كنا نكلمها، كانت وجوهنا تتقلص وتئن بالحماسة والتوتر واللهفة بينما هي تجلس بيننا شامخة، معتدة، واثقة تصغي. لو مدت يدها في وسط هذا الجو المتوتر المغبش لساد الصمت، واختفى دخان السجائر، وتلاشت رائحة الأجساد الحرّيفة. . يلاحق بنظراته تلك الفتاة بملابسها السوداء ينتظر المعجزة منها، أن تمد يدها وينتهي ذلك الحلم المزعج الطويل، ذلك الكابوس، تلك الحياة التي تعانق الموت في كل لحظة.

يسمعها تغني «طبعاً ما انا أم البطل.» لم يكن اتقان الأداء إحدى ميزاتها. تناديه :

ـ «صوتي حلو؟»

ـ «مذهل.»

ـ «شكراً.»

ـ «ممكن استغلاله لتطفيش اليهود من سينا.»

ـ «شكراً. عايز تحكي نكتة عبدالحليم حافظ؟»

كان قد حكى لها نكتة، أن أحد أساتذة الجامعة سمع عبدالحليم حافظ يغني، فقال له :

ـ «صوتك كويس. مابتغنيش في الإذاعة ليه؟»

وقد حكاها لها أكثر من مرة، وقد نبهته إلى التكرار وأصبحت بعد ذلك تقول له :

ـ «غريبة قوي، النهار ده ما قلتش نكتة عبدالحليم حافظ للمرة المليون.»

كانت تواصل خطبها الغنائية :

When the poor hath cried, Caesar hath wept [1]. Wasn't it nice of him to do just that?" [2].

قال :

ـ «فعلاً، كان قيصر كويس كتير، بس رغاي وبيقعد عشرين ساعة علشان يعمل كباية شاي.»

ـ «وكان عبيط؟»

ـ «كان.»

ـ «ولمض؟»

ـ «لمض قوي.»

ـ «وبليد، وكل شوية يقول ازاي، ازاي، وليه يا أخت عزة، ويقول النكتة الف مليون مرة؟»

في ميدان التحرير كان رجال الاتحاد الاشتراكي ينتشرون بين الطلبة يناقشونهم ويحاولون ثنيهم عن الاعتصام :

ـ «قبل ما تقول نحارب ونطلع اسرائيل من القنال لازم نبطل منظره.»

ـ «يعني إيه؟»

ـ «إنت طالب في كلية إيه؟»

ـ «في الهندسة.»

ـ «تقدر تقول لي كام طالب بييجي الكلية بعربية ملاكي يتمنظر بيها؟»

يتدخل طالب :

ـ «اللي بييجوا الكلية بعربيات مش موجودين هنا، اطمئن.»

ـ «طيب، قبل ما نقول نحارب...»

---

(1) «عندما تأوه الفقراء كان قيصر يبكي» من خطبة انطونيوس في مسرحية شكسبير «يوليوس قيصر».

(2) «ألم يكن لطيفاً منه أن يفعل هذا الشيء بالتحديد ؟»

كان هو قريباً منها عندما وجه أحد رجال السلطة الحديث إليها. أصغت إليه بصبر وأدب، وعندما انتهى لم ترد بكلمة واحدة. استدارت ومضت بمشيتها المتعجلة وقد أحنت رأسها قليلاً. عندما رأته هو حيته بحركة خفيفة من رأسها. أذهلته المفاجأة فارتبك ولم يرد تحيتها.

***

تأتي في الصباح. يكون هو نائماً. الجرس يدق دقات متقطعة، سريعة. يفتح لها الباب ويسألها إن كانت قد ضيعت المفتاح. تدخل وتقول:

ـ «لسه نايم؟»

تجلس واضعة ساقاً فوق ساق، قدمها العليا تهتز بعصبية، وتقول:

ـ «حاسة إني بتخنق..»

ولا تضيف شيئاً. تكون عدوانية في البداية دائماً. يفكر وهو يحلق ذقنه في نادية. عندما كان يصحو في الصباح كان يجدها قد نظمت الشقة واشترت الإفطار وأعدت الشاي «أما هذا الجيل..» ويبتسم لنفسه، ثم يكتشفها واقفة بباب الحمام تطالعه وهو يحلق ذقنه، وجهها جاد منذر بالغضب، تقول إنها قررت أن تسافر إلى أوروبا في الصيف، وتضيف بحدة:

ـ «عارفة، عارفة حاتقول إيه...»

ثم تختفي.

يخرج من الحمام، يراها واقفة، عابسة، تتأمل الكتب، تلتفت إليه وتقول:

ـ «عليها تراب كتير.»

ثم تتأمله:

ـ «ما لبستش هدومك لسه؟»

في الشارع تقول وهي ما تزال منقبضة إنها سوف تأتي يوماً في الصباح وتنظم الكتب وتزيل التراب عنها، ولكن ذلك المشروع ظل دون تنفيذ... يتذكر السير مسافات طويلة على الأقدام. لم يكن ما بينهما حوار متصل. كانت تسير صامتة، مستفزة، ثم فجأة دون مقدمات تحكي ما حدث في الكلية مثلاً أو في البيت. كان يحب حكاياتها، يستطيع أن يصغي ساعات طويلة لها باستمتاع.

كان دائماً يستغرب ـ ونادية في خلفية تفكيره ـ كيف تستطيع عزة أن تحب بعنف وأن تمارس الجنس والحياة بحدة، وأن تكون غير قادرة على منح المودة والحنان في الوقت ذاته. يفكر: «جيل من الشياطين هذا...» ... يدخلان أقرب مطعم فول (لم يكن الطعام بالنسبة لها أكثر من ملء المعدة)، والجلوس على كازينو، ثم مواصلة المشي، ثم الجلوس على المقاهي مع شلل المتنافشين في السياسة، وبعدها الغداء في المطاعم الرخيصة أو الاكتفاء بسندويتشات الطعمية والفول.

في التاسعة مساء تكون قد أسلمت الروح. يكونان جالسين في كازينو (قصر النيل)، تمسك هي الولاعة بين إبهامها وسبابتها وتديرها بينهما. عيناها تراقبان الولاعة وهي تدور بغياب واستغراق. في وجهها ذلك التعبير المنسحب الذي يضع العالم بين قوسين. في تقاطيع الوجه ـ في الأنف والعينين خاصة ـ رقة والتهاب كأنها انتهت لتوها من البكاء. كان ذلك يكسبها جلالاً من نوع خاص. تتثاءب باستمرار دون أن تبعد عينيها عن حركة الولاعة بين إصبعيها. عندما تنتهي من التثاؤب تبدو وكأنها انتهت من شجار عنيف كانت هي فيه الطرف الأقوى وقررت بعدها ـ ثقة بالنفس وكبرياء ـ أن تلتزم الصمت الكامل وأن تتجاهل الخصم كلية.

في تلك اللحظات تصبح خطرة للغاية، تستفزها إلى أقصى حد عبارات التودد. يكفي أن يسألها إن كانت جائعة أو هل تريد فنجاناً من القهوة حتى تثور وتصبح جارحة. وتجعله يشعر بأنه أصبح جدة سنتيمنتالية.

تقول دون أن تنظر إليه (كأنها تحدث نفسها) إنها عندما تعود إلى البيت فسوف تتشاجر مع أخيها أربع ساعات. تضيف، أربع ساعات على الأقل، وتتثاءب. ماما تحاول تهدئتهما، ثم تصاب بحالة هستيرية بعد قليل. تمسك بخصلة من شعرها وتلفها حول سبابتها وتتثاءب. تحاول أن تمسك بوسطاها خصلة أخرى ولكنها كانت تفلت منها باستمرار. أخذ يتوتر. فكر أن يلف تلك الخصلة حول إصبعها الأوسط وينهي الأمر، ولكنه كان يعلم أنها في حالة غير مناسبة.

يقهره انفصالهما، يشتاق إلى تقبيل عينيها الملتهبتين قليلاً، يده جائعة لملامسة شعرها، لتخلله بأصابعه. ولكنه لا يفعل شيئاً. يفكر وهو يتأملها: (كأن لم يكن بيننا أي علاقة... كأننا خصمان حتى الموت ولكننا نحافظ على المظاهر). يعزم أن يحدثها

عن أن جوهر الحب هو الحنان والمودة، ولكن ذلك يبدو خارج السياق، لو قاله فسوف يتشاجران.

تتحدث عن أخيها بكلمات متقطعة وهي محنية رأسها. تقول إنه سوف يتشاجر معها لأنها تأخرت. كأن الواحدة لا يمكن أن تمارس الجنس إلا بعد السابعة مساء. تقول إنها قالت له ذلك مرة فلم يستطع أن يرد. تدير الولاعة بين إصبعيها وتصمت قليلاً، تتنهد، ثم تقول:

«يا ريته يتخانق معايا نص ساعة بس، ويسيبني بعد كده أنام.»

يقول لها إن عليها أن تكون أكثر مرونة. أسف على العبارة بمجرد أن نطقها. أضاف:

ـ «الواحد كان لازم يقول حاجة.»

لا ترفع رأسها ولا ترد. يقدر أنها لم تسمعه. يؤلمه ذلك. تنفجر ضاحكة فجأة:

ـ «اشمعنى نص ساعة بالتحديد!»

تنتعش وتتوهج. تنظر إليه ضاحكة، وتنادي الجرسون. تطلب منه فنجان قهوة، تطلب إليه أن يأتي به قبل أن تمر سنة كاملة. ها هي قد خرجت من حالة المونولوج التي كانت بها. يقول لها لقد هرب حمار النوم. تقول: «إيه؟» ولكنها سمعته، فتقول إن تعبير «حمار النوم» تعبير لطيف، لم تسمعه من قبل، ثم تضحك ضحكها المعدي، فيضحك هو.

ومثل كل مرة، تعود إلى البيت في الواحدة بعد منتصف الليل. يمسك بذراعها عندما يعبران الشارع فتنزعها منه بعنف، وأمام باب العمارة التي تسكن فيها تكون متوترة، متعجلة، عيناها المراهقتان تطالعان الشارع بنظرة رصينة. وكالمعتاد لا تقول كلاماً لطيفاً عندما تودعه بل تهمس بسرعة.

ـ «حاكلمك بكرة.»

وتسرع عبر الباب. يرقب قامتها الرشيقة وهي تصعد السلم، رأسها منحن، ومشدودة الجسد. تضغط على أزرار المصعد فيصلصل على الفور ناشراً مظلة من الضوء الأعمش. ترفع رأسها وتنظر إليه، فيرى المنظر الجانبي لوجهها، ويفكر أنها تبتعد. قبل أن تدخل المصعد تلتفت إليه، ترفع يدها وتحرك أصابعها كأنها تعزف لحناً

سريعاً على البيانو. ابتسامة مغتصبة، مجاملة، على وجهها الجنائزي.

لا يبحث عن تاكسي على الفور، يتمشى قليلاً، محاولاً أن يستعيد السكينة من خلال السير السريع في الشوارع الخالية. يفكر في نادية. في مثل هذه الساعة كانت تدعوه للصعود معها، وعندما يصعد كانت تحتفل به. تكون رقيقة، رقيقة... أين هي الآن؟ أين انتهت بها الأيام...؟ يسرع في المشي ويفكر: لم يعد هذا العالم عالمي... يلسعه اشتياق إلى الجبال والوادي العميق، والنهر ينحدر من جبال عالية ويندفع نحيلاً، متعرجاً في الوادي، يشبه الخرائط المرسومة له في الكتب.

٣

الشعور بالذنب

يحاول ألا يتذكر ذلك، ولكنه يلح عليه. ينهض من الفراش، يتمشى قليلاً، يعيده إلى السرير البرد وخوف أن يصاب بالزكام.

ـ «ما بقتيش صغيرة.. ولازم تفكري في مشكلة حياتك.»

ـ «حياتي ما فيهاش مشكلة.»

ـ «حياتنا كلها مشكلة، بس انت بشكل خاص...»

ما الذي بالفعل سوف يحدث لرحمة عندما يتقدم بها السن وتصبح عجوزاً سمينة مترهلة، عندما يزهد بها العشاق والباحثون عن المتعة فلا تجد من يأويها. «حاعيش في بيت أبويا.» عليه أن يتقبل هذه الأكذوبة ـ ذلك الأب الذي دفعها إلى هذا الطريق والذي لا يكف عن ابتزاز النقود منها. «بس بابا مش حايعيش للأبد، دا راجل عجوز..» تشعل سيجارة وتشرب كأس البراندي دفعة واحدة، تقول:

«كفاية بقى، زهقت من الزن في الموضوع دا...»

لم تكن تستطيع الاحتفاظ بأي نقود، كانت تبعثرها بمجرد أن تقع في يدها. ولم يكن لديها أي مهارات ـ سوى المهارة القديمة قدم الأنثى ذاتها.

مرة قررت أن تتعلم الضرب على الآلة الكاتبة. كانت حماستها لذلك جارفة. دفعت تكاليف ستة شهور مقدماً. لامها وقال لها إنه كان بإمكانها أن تدفع شهراً بشهر. ترد أنها فعلت ذلك حتى لا تدع لنفسها مجالاً للتردد أو النكوص. في اليوم الأول ذهبت وأمضت ثماني ساعات تتعلم. قالت إنها لم تكن تتصور أن التعلم سوف يكون سهلاً إلى هذا الحد. كادت تتقن الكتابة في يوم واحد. ثم ذهبت في اليوم التالي، وانقطعت عنها تماماً بعد ذلك. (قالت إنهم رفضوا أن يجعلوها تتعلم على الآلة التي تعلمت عليها في اليوم الأول). تصبح عصبية وعنيفة، وقد تندفع إلى حالة

هستيرية تنتهي بالبكاء، إذا ذكرها بدروس الآلة الكاتبة.

ـ «حارجع لك الستة جنيه اللي دفعتهم لي ومش عايزة كلام تاني في الموضوع دا...»

كانت عاجزة عن التفكير في الغد. قال لنفسه مرة: «إنها تؤمن هي الأخرى بالمعجزة.» ولكنه عندما يفكر في ذلك الآن يعتقد أن رعب غدها كان ماثلاً أمامها على نحو لم تكن تستطيع أن تفكر فيه أبداً بأي قدر من الهدوء والموضوعية. مرة شربا كثيراً. توقف هو، ولكنها هي واصلت الشراب وحدها. نام وصحا وهي ما تزال في الحجرة الأخرى تواصل الشرب. وقفت أمام السرير، وقالت:

ـ «فيه عندي سر حاقولهولك يا حضرة المثقف..»

قال لها:

«خشي السرير، الدنيا برد...»

قالت له أنها تفهمه تماماً ولكنها سئمت من ممارسة الجنس في كل وقت. قال لها إنه بانتظار أن تتحدث عن السر. قالت إنه دائماً يريد شيئاً ما. قال، افعلي، اذن ما تريدين. وأدار ظهره لها وجذب اللحاف حول جسده. دخلت بجواره، وضعت مخدة تحجز برودة الجدار عنها واتكأت عليها برأسها وأخذت تدخن بنهم. ثم باحت له بالسر. قالت إنها عندما تصل إلى مرحلة... تتوقف قليلاً ثم تقول... «مش مهم...». ثم يفهم من كلامها أن ما تعنيه هو عندما تصل إلى مرحلة يزهد بها فيها العشاق فإنها سوف تفتح عشر زجاجات وسكي وتدعو اصدقاءها، وتشرب، وتشرب حتى تفقد الإحساس بكل شيء، ثم سوف تنتحر أمام الجميع. في نهاية هذه الحكاية كانت تجذبه من كتفه بعنف وتقول إن شبحها سوف يظل «يؤرقكم طول عمركو» ويقول لنفسه وهو في حالة غثيان: «أنا الذي شجعتها على قراءة هذه الروايات الرديئة..» أفاضت ليلتها في تفصيل هذا السر. ذكرت أسماء المدعوين واحداً واحداً. سوف تكون مرحة في البداية، بتحفظ، ولطيفة معهم لطفاً ورقة لم يعهدوها من قبل. وفجأة تقول للمدعوين: «مش عارفين إن الليلة ليلة فرحي؟» فلا يفهم أحد معنى ذلك. ثم تقول كلاماً يكتشفون فيما بعد أنه يتضمن قرارها بالانتحار. ثم تدينهم جميعاً واحداً واحداً، لقد أخذوا منها ما يريدون ثم أداروا ظهورهم لها. تمد سبابتها: «انت...» قال لها إنها أجمل شيء في حياته، ثم بعد ذلك ماذا حدث؟

«وانت . . امراتك مش بتفهمك . . . مش كده؟ أنا الوحيدة اللي بتشعر معها إلخ . . . » ثم تغيب عنهم لحظة قصيرة وتعود ومعها ذلك الخنجر المزخرف الذي تحتفظ به في الدولاب وتسدد هنا، في موضع القلب (الواقع أنها لم تكن تشير إلى موضع القلب بل إلى منتصف المسافة بين نحرها ومفرق ثدييها). تسأله إن كان سيبكي عليها وإن كان سيذكرها كثيراً؟ يطلب إليها أن تتوقف عن هذا الهذيان، ولكنها تثور :

«حتى مش عايز تجاملني؟»

ثم تتلبسها حالة هستيرية.

لم يكن يأخذ ذلك بشكل جدي، ولكنه كان يخيفه، ويدفعه أن يلح عليها أن تفكر في مشروع تؤمن به مستقبلها.

المستقبل؟ إنه يحس به في جسده، يحس بالهدم الذي لن يرمم أبداً. لم يكن يستطيع أن يفكر فيه سواء بالنسبة لنفسه أو للآخرين دون فزع.

***

أخذ الملل يتخلل علاقتهما وينخلها نخلاً. يكاد يستطيع أن يحدد تاريخاً لبداية ذلك. لقد استهلكا علاقتهما في فترة قصيرة. ما بين الحديث المتصل، وممارسة الجنس، والشرب، والجلوس في الكازينوهات لم يكن يجد وقتاً كافياً للنوم. في لحظة ما من أوقات الليل أو النهار يكون فيها جالساً على الكنبة، أو متمدداً على السرير وهي في الحمام يغشاه النوم كأنه حالة إغماء. يصحو دون أن يعرف أنه نام، ولكنه يجدها جالسة، مرتدية الروب وهي تشرب. يرى منفضة السجاير ممتلئة بالأعقاب. يسألها إن كان قد نام، تقول بضيق :

ـ «إنت نمت نوم . . !»

ـ «نمت كتير؟»

تقول له إنه نام ثلاث ساعات على الأقل، وتنظر في ساعتها، تحسب، ثم تقول :

ـ «أكثر من تلت ساعات.»

تضيف أن كل محاولاتها لإيقاظه قد فشلت. يلاحظ أنها فتحت زجاجة براندي واستهلكت أكثر من نصفها. تنهض وتقترب منه وتقول وهي تضع زجاجة البراندي والكأس على الكومودينو :

ـ «خشي جوه يا حلوة خليني أنام جنبك.»

ويبدأ كل شيء من جديد.

وفي يوم جاء من الخارج. كانت تجلس على الصوفا، متكئة بكوعها على مخدة وضعتها جوارها. نهضت بحيوية وكأس البراندي في يدها وعانقته بلهفة يختلط فيها السكر الذي لم تكن تصحو منه والتخلص من الملل. قالت:

ـ «تأخرت يا مجرمة.»

كانت رائحة البراندي في فمها لا تطاق. أبعدها عنه وقال إنه يختنق. سقط وجهها وعاودت الجلوس. قال لها إنه صعد السلم على قدميه بسرعة. ولكنها لم ترد، ظلت تحدق في كأس البراندي وتبدو كطفلة على وشك البكاء. لم يحاول أن يعتذر. لم يكن يستطيع ذلك. كان يفكر: «إلى متى يستمر الإغراق في الخمرة والسهر والجنس؟ إنه لم يخلق لمثل هذه الحياة.» أما هي كما بدا له فإنها تستطيع أن تستمر هكذا لما لا نهاية. وحاول في داخله أن يجعل من ذلك قضية مهمة وحادة حتى يتغلب على شعوره بالذنب.

قالت بصوت عريض، هادئ، بطيء كأنها تخاطب نفسها إنه لم يكد يمضي على علاقتهما ستة شهور وها هو يفعل كالآخرين: يرتوون منها ثم يودون أن يتخلصوا منها بأسرع ما يمكن.

قالت ذلك بعبارات جارحة، وأكثر صراحة من هذه. كان ذلك مؤلماً للغاية وظالماً، وقال ذلك لها. قال لها أيضاً إن الإنسان لا يمكن أن يكون في كل الأوقات في حالة واحدة. كل ما يريد قوله إن هنالك أعمالاً أخرى بجانب الحب. تألم كثيراً أن يصبح تكراراً للآخرين الذين كلمته عنهم والذين أدانهم في أعماقه.

قالت إن هذا شيء جديد. قال ما الجديد؟ قالت إنها تعطله عن أعماله. إنه يذهب إلى عمله كل يوم تقريباً، وكانت دائماً تحترم هذا. وليتجنب الشجار قادها إلى السرير بسرعة. أصبحت هذه الوسيلة أنجع السبل لتجنب نقار مؤلم وجارح.

***

مات الحديث بينهما. أصبحت تكثر من النوم. تصحو لتقوم ببعض الأعمال المنزلية وتأكل ثم تعود للنوم. كانت تأخذ معها رواية بوليسية تقرأها في السرير،

وكأس البراندي بجوارها ، وعندما تنهيها ، تتمدد على ظهرها مفتوحة العينين إلى أن تنام . عندما يحاول أن يفتح معها حديثاً كانت تصغي إليه بأدب ، تتثاءب أحياناً وتعتذر ، وبمجرد أن يستدير ليذهب إلى الحجرة الأخرى تعود إلى الرواية البوليسية . وإذا دخل الحجرة عليها مرة أخرى تكمل الجملة التي تقرأها ، وتضع الرواية على المخدة بجوارها ، وترفع عينيها متسائلة ، تنتظر أن يبدأ الحديث .

يتذكر عندما كان يأتي بعض الأصدقاء للسهر معهما . كان هناك تقدير عام لهذه العلاقة الحرة بين اثنين وكانوا يعاملونها بمودة حقيقية . كانت تعد لهم الطعام والقهوة وتجلس معهم قليلاً صامتة ، تحرج كل من يوجه إليها الحديث ، ثم تتثاءب وتعتذر . تقول إنها مرهقة وتدخل حجرة النوم . أصبح وجودها يثير التوتر ، وكانت تتعمد ذلك . وبعد أن ينصرف الأصدقاء كان يجدها متمددة على السرير ، كأس البراندي في يدها وتقرأ رواية بوليسية . يخلع ملابسه صامتاً ، غاضباً وتواصل هي القراءة باستغراق تام . كانت تجيد لعبة الصمت والتجاهل . وعندما يتمدد بجوارها كانت تضع الرواية مقلوبة على الكومودينو وتعطيه ظهرها وتنام .

يقول لها إن سلوكها مثير للاشمئزاز . تلتفت إليه بوجه محايد ، متظاهرة بالدهشة وتقول :

ـ «حصل حاجة؟»

يقول لها إنه يتحدث عن طريقتها الفظة في معاملة أصدقائه وانصرافها عنهم إلى قراءة رواية تافهة . ثم تنفجر ، تقول إن أصدقاءه لا يطاقون ، كلهم وأنت كذلك ينقصكم الذوق . فهي تجلس معهم ساعات طويلة دون أن يحاول أحد أن يشركها في الحديث . (الواقع أن أصدقاءه لم يكونوا يفعلون شيئاً آخر طيلة بقائها معهم سوى إشراكها في الحديث . ولكنهم قد تعلموا أن محاولتهم سوف تقابل من جانبها بالرفض) . يقول لها ذلك فتقول إنهم لا يعرفون كيف يتحدثون معها . لا يشغلهم شيء سوى الثقافة . تلفظ كلمة «الثقافة» باشمئزاز .

كانت في فترة علاقتهما الأولى تحب الحديث مع أصدقائه والإصغاء إليهم . اجتذب اهتمامها هذا الهجوم الذي يشنونه على المثقفين . لم تحاول أبداً أن تفهم السبب الذي يجعل المثقفين يهاجمون المثقفين . أصبح كل شيء يتعلق بالثقافة والمثقفين يثير اشمئزازها وجموح غضبها . ولم تكتف بالخلط بين الثقافة والمثقفين الذين ينصب

عليهم الهجوم، بل سحبت ذلك على كل شيء جاد في الحياة. لقد جعلها هذا الاعتقاد الذي كونته عن كلام لم تفهمه تماماً تستعيد توازنها النفسي، وولد عندها قدراً كبيراً من الرضى. أصبحت ترد على الكثير من نصائحه لها حول الاهتمام بمستقبلها بقولها:

ـ «بطل عقد مثقفين.»

قالت مرة لأحد أصدقائه:

ـ «تصور عايزني أبقى مثقفة، عايزني أتعلم ماكنة.»

وكانت تأخذ ردود أصدقائه المجاملة حول أمثال هذه الموضوعات مأخذاً جدياً للغاية، وتستشهد بها عندما يحاول أن يزيل هذا الخلط المضحك الذي كون عقيدتها، وبالتالي موقفها من كل شيء.

يرهقه التذكر فيبحث عن اللحظات الممتعة في تلك العلاقة. حين يعود مقرورا في الليل كان يجد حجرة النوم مضاءة. (يعود حاملاً اللاجدوى واستحالة الإنجاز. من المناقشات الطويلة والاتفاقات المؤكدة على مشروعات تنسى مع صباح اليوم التالي ـ «راحت علية نومة» و «التليفون ما يبردش» و «مر عليا واحد عطلني». . ثم يضيع كل شيء في فقدان للذاكرة يولد عذاب ضمير يدمر كل تماسك وثقة بالآخر ـ . . . يعود حاملاً معه المياه الطينية الراكدة في شوارع بلا مجاري، وإرهاق المنتظرين المقرورين على محطات أتوبيسات لا تأتي، وشوارع شحيحة الضوء، شبه مهجورة. . . يعود وفي حلقه طعم الليالي البيضاء: التهاب الزور والجيوب الأنفية من رطوبة بيوت بلا تدفئة، والسجاير، وارتفاع نسبة الحموضة في المعدة، والشاي الثقيل والقهوة السادة. . . يعود ضجراً لأن كل خيبة الأمل، والعجز يتكرران بلا نهاية . . .). حجرة النوم المضاءة، ورحمة والسرير الدافئ معجزة مستحيلة، ومتحققة في الوقت ذاته، يندفع نحوها ملهوفاً.

كانت رحمة تنام في الضوء لأنها تخاف الظلام. تقول إنها تختنق في الظلمة. لا أستطيع أن أرى يدي حتى لو وضعتها أمام وجهي: تقول. وفي كل ليلة في نومها يتكرر الكابوس ذاته. تفتح باب الشقة، استعداداً للخروج، في الخارج ظلمة كثيفة، متراكبة، حية بالمتربصين في قلبها. تسمع همسهم كالفحيح، وتستطيع أن تميّز عبارة: «هي دي. . أهه خارجة» تحاول أن تقول:

ـ «مين ؟»

ولكن صوتها محتبس، فلا تخرج. عندها تعلم أن كل السُبل قد سدت أمامها. تسرع بالخروج ـ تهرب ـ إلاّ أنها عندما تهبط السلم تكتشف أن بعض الدرجات قد أزيلت، فتسقط . . .

يكون أحياناً مستيقظاً، فيرى تنفسها يثقل، ثم تنبهر أنفاسها وتطلق صرخة خافتة، مختنقة.

تحاول النهوض وهي محملقة العينين. يناديها :

ـ «رحمة!»

تنظر إليه بعينين لا تريان. يقول :

ـ «فيه إيه؟»

تقول :

ـ «رجلي انكسرت»

ثم تتنبه وتقول :

ـ «الكابوس.»

ـ «تاني؟»

فتهز رأسها.

تجذب قدمها من تحت اللحاف وتنظر إليها، يضحك، وتشاركه هي الضحك.

في أول الأمر كان يعتقد أن باب الشقة الذي تخرج منه في الكابوس هو باب شقته هو. ولكنه تبين فيما بعد أنه باب شقة أهلها.

لذلك كانت رحمة تنام في النور.

يكتشف أن قدميه باردتان. يسوّي البطاطين فوق اللحاف، ويشده حوله. ماذا كنت أقول؟ يجذب قدميه إلى منتصف السرير، إلى منطقة الدفء. أجل، تذكرت، الكابوس. يصغي لردود فعله. . لا، قبل ذلك. شيء يبعث السرور. . كانت رحمة تنام والحجرة مضاءة. . . تذكرت. . أعود مقروراً. .

يدخل حجرة النوم، فيجدها مضاءة. رحمة في الغالب نائمة في عرض السرير،

رأسها يكاد يلامس الجدار، وقدماها دفعتا اللحاف إلى الطرف المقابل. يخلع ملابسه بسرعة، يستحثه البرد الشديد والوعد بالدفء. يلمس كتفها فتعود برأسها إلى الخلف ثم تزحف عبر السرير بسرعة غريبة وتتوقف في نهايته. يدخل تحت اللحاف فتستدير مهمهمة، وتضع رأسها في صدره. يحدث كل ذلك وهي ما تزال نائمة.

يضمها إليه. تقول: «تأخرت فين؟» فلا يجيب لأنه يعلم أنها ما تزال نائمة. أنفاسها، دافئة رقيقة، مثل المداعبات الأولى التي تسبق جنون الرغبة، تتردد في نحره وصدره. شعرها في فمه وأنفه، يداعبه بذقنه، يشم رائحته الخاصة التي يمازجها عطر خفيف. يرفع شعرها عن وجهها، يقبلها قبلات خفيفة، سريعة وكثيرة على الجبين والعينين والأنف والشفتين. الشفتان طريتان، ساختتان كأنها تعاني ارتفاعاً في درجة الحرارة. تهمس شاكية:

ـ «كنت فين؟»

تفتح عينيها باندهاش، يبهرها ضوء المصباح الكهربائي، فتغلقهما على الفور، وتصدر عنها همهمات لها جرس سؤال وكلمات مبهمة، ثم تحني رأسها وتخبئه في صدره، محتمية به من الضوء. تزداد التصاقاً به، يكاد اقترابها منه يكون تشبثاً. يحس بها على امتداد جسده أليفة، مرتعشة، نابضة. يسألها:

ـ «عايزة تنامي؟»

تقول:

ـ «تأخرت.»

قبلاتها خفيفة، ساخنة، سريعة. تقول بصوتها الشاكي، الأنثوي، الراغب:

ـ «صحتني ليه؟»

تنبثق الرغبة. كانت تحب أن يمارسا الجنس في تلك الساعة. يلتحمان، مجنونين بالرغبة، حتى الفجر.

يتذكر، أنه فيما بعد، كان يعود. تندفع نحوه، فيضمها إليه، يمد يده ويطفئ النور. عند ذاك تهمهم:

ـ «تأخرت.»

تنبثق الرغبة وتظل معلقة. لم تعد بعد تلك الرغبة الجنونية التي تجتاحه بحماها،

كما في السابق. أصبحت الآن مقترنة بنتائجها : فترة الهمود، والذهاب للحمام في هذا البرد. وهو يعلم إن بدأ فلن ينتهيا إلا في الصباح.

يكتفي بضمها إليه ويستجلب النوم. تنتظم أنفاس رحمة بعد قليل وتستغرق هي أيضاً في النوم. متى حدث هذا التحول؟ الأحداث واضحة في ذهنه، ولكن ترتيبها الزمني يختلط عليه، ويضيع منه بالتالي سياق العلل والمعلولات. ولكنه يعرف أنه أصبح يتأخر كثيراً.

في الصباح تسأله متى عاد. لقد أدرك فيما بعد ما يختفي وراء هذا السؤال من كمائن. فأخذ لا يذكر ساعة محددة لأنها بذلك تستطيع أن تكتشف كذبه. أصبح يقول إنه غير متأكد، لقد حاول أن يعود مبكراً، لكن المواصلات «أكثر من ساعة وانا مستني أي مواصلة ـ أتوبيس، تاكسي، حتى عربية حنطور، لكن ما فيش فايدة..». أو أسباب قهرية أخرى تعرف هي مدى جديتها. كما اكتشف أنه عندما يحدثها عن تعقيدات العمل فإنها تضجر بسرعة، ولا تعود تصغي إليه، وإن كانت تتظاهر بذلك.

ولهذا أخذ في تلك الفترة يكثر من شرح مشاكل العمل فيأمن مناقشات طويلة، مؤلمة.

في تلك الليلة... يحاول ألا يتذكر...! ولكنها تتسلل إليه من خلال تحويل ما حدث في الماضي إلى حلم يقظة يمكنه أن يعيد صياغته حسبما يشاء. وفجأة يتذكر بوضوح فائق.

لما عاد في تلك الليلة، في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، كانت الحجرة، كما هو منتظر، مضاءة. إلا أنه فوجئ أن رحمة ما تزال مستيقظة. جو الحجرة مضبب بدخان السجاير وهي مستغرقة في قراءة رواية بوليسية. تظاهرت أنها لم تتنبه إلى دخوله، وذلك نذير يعرفه. حرك ذراعه كأنما ليطرد الدخان، ثم انحنى فوقها، راسماً تعبير دعابة على وجهه، محاولاً أن يقرأ معها في الرواية : «كان الصمت مطبقاً وجذبت انتباهها حركة وراء الستارة...» فأدارت خدها ليقبله. لمسه بشفتيه مرات عديدة وعندما اقترب من أذنها ابتعدت قليلاً، وهي خلال ذلك تواصل القراءة والتدخين وتخرج الدخان من أنفها. وقف ونظر إليها. كانت منفضة السجاير ممتلئة بالأعقاب، ثم شاهد الأعقاب في كباية الشاي والطبق. كان يكره استعمالها كمنفضة، وهي تعلم ذلك تماماً.

الجو منذر بالشجار ولم يكن هو مستعداً له. كان يشعر بالفرح ويبحث عن نسيان سريع لأن هذا البرد أصبح حقيقياً، فهنالك البرد والمطر وصوت العاصفة ـ أصوات قديمة، مألوفة، تثير حنيناً لا يغالب إلى البيت الكبير ورائحة العطور البدائية ورائحة البن ـ ولأن الوعد بالدفء قائم وممنوح: المرأة والسرير وكوب الشاي والسيجارة. ود من أعماقه أن تصغي وتستجيب لهذا النداء للسلام والمصالحة هذه الليلة. وعد بينه وبين نفسه أن يجعلها ليلة خاصة لها.

ارتدى جلابيته الكستور الثقيلة ليتيح لنفسه ملامسة جسدها وتمدد بجوارها. كنّ في حضنها كما يكّن الطفل في حضن أمه، ولكنه كان يدرك أنه يلعب لعبة لا يستطيع الاستغراق فيها. وضع وجهه في صدرها وقبل منبت النهدين وداعبهما بأنفه، ثم صعد بشفتيه إلى نحرها، تأنى ليخس نبضه هينا، رقيقاً على فمه، ثم علا إلى حنجرتها، وشعر بها حبة، زلقة، تنفلت من بين شفتيه. جذب جسدها إليه، ذراعه يلتف حول خصرها ـ ذلك الاسفنجي اللدن، القوي. لم تستجب له. كان ذلك مستحيلاً، لم يحدث من قبل قط. غشته خيبة الأمل كأنها موجة باردة وأطفأت الرغبة. أصبح كل ما يريده النوم، الآن. مدت ذراعها فوق رأسه، وعيناها على الكتاب، ألقت عقب السيجارة في كباية الشاي. طشت السيجارة. رأى رأسها متفحماً، مدبباً، يستقر في بقايا الشاي ورأى الشاي يصعد ببطء وثقة، يصعد رمادياً في جسدها الأبيض، الأنيق، ويتوقف عند بداية الفلتر.

تاهت أفكاره في الرواية البوليسية التي كانت تقرأها رحمة «كان الصمت مطبقاً وجذبت انتباهها حركة وراء الستارة...» إذا لم يكن المترجم قد أساء الترجمة فالجملة ضعيفة... إن المؤلف يخبر القارئ فقط ولا يحاول أن يجسد له الصمت وحركة الستارة. كل ما يريد أن يقوله لنا إن المرأة وحيدة وهنالك شخص وراء الستارة، أما كيف كانت المرأة تحس بذلك الصمت، وبتلك الستارة وهي تتحرك فذلك ما لم يخطر على ذهن المؤلف المحترم. يفكر الآن أن يبحث عن تلك الرواية، ولكنه كيف يستطيع أن يجدها وسط أكداس الكتب، وهو على أي حال لا يعرف عنوان الرواية... البيت من ذلك الطراز الانجليزي القديم، والمرأة جالسة في تلك الحجرة (هنالك أيضاً قاعات واسعة، والمكتبة التي يجلس فيها صاحب البيت، فيقتله المجرم كأنها صنعت خصيصاً لذلك). المرأة جالسة تنتظر عودة الزوج، الساعة دقت الواحدة بعد منتصف الليل ولم

يأت. يحاصرها الفراغ الواسع والصمت، ثم يجذب انتباهها حركة الستارة. كانت ترى ذلك ولا تفكر فيه، ثم انتبهت مذعورة إلى ما يعنيه ذلك... وراء الستارة.. خنجر؟ (ما الذي ينتظره المجرم حتى ينفذ جريمته؟) خنجر؟ لا.. لا.. بل مسدس فيه كاتم للصوت، أو دبوس طويل يسلطه المجرم عادة إلى القلب.. يضحك فجأة عندما يتذكر فيلماً جنسياً، الرجل والمرأة يمارسان الجنس بهمة واندفاع غريبين، وهنالك فتاة تقف خلف الستارة تراقبهما مهتاجة وهي تمارس العادة السرية، يقفز الرجل بخفة ويرفع الستارة فنشاهد الفتاة في هذا المشهد الغريب، ولكنها تنظر إلى الرجل برعب.. ماذا كنت أقول؟ حركة وراء الستارة.. لا.. شفتاه تلمسان حنجرتها المنزلقة، المتفلتة، وهي لا تستجيب له.

ثم...

ثم أخذ ينظر إلى السقف ويصغي إلى صوت العاصفة. فمه ممتلئ بالكلام، والرغبة تصعد مطالبة باكتفاء سريع، ثم تهبط مخلفة حالة فراغ تام. كانت تعرف ذلك وتتجاهله من خلال التحديق في صفحات الرواية. ويذكر أنه كان خائفاً، يغالب خوفه بوضعه في سياق محايد، كأنه يحدث لإنسان آخر: إنها مشكلات المعيشة المشتركة.

أشعلت سيجارة أخرى، ألقت نظرة أخيرة إلى الصفحة التي تقرأها ووضعت الكتاب على الطرف البعيد من الوسادة. أخذت تدخن صامتة بعض الوقت، ثم قالت إنه أصبح يتأخر كثيراً. لا تكاد تراه. صوتها هادئ، غير مكترث، وعيناها تتجاوزانه ولا تنظران إلى شيء محدد. يعرف من تجربته هذا الصوت الهادئ الذي تداخله خشونة قليلة، ويعلم جيداً أنه يخفي أقصى درجات التوتر وجموح الغضب.

حاول أن يتفادى الشجار بالثرثرة. المسألة طبعاً كان يجب أن يكون هنالك، هي بالطبع تعرف ذلك، عارفة هي أنه هو أول من اقترح ذلك المشروع، ولكن عليها أن تتصور نقاشاً متصلاً لمدة ست ساعات.. أيُّ ست ساعات؟ فلتقل سبع أو ثماني ساعات، أليس كذلك؟ ثم لا شيء، ثم موعد آخر ليناقشوا كل شيء من جديد.. الجميع متوترون، لا أحد يترك للآخر فرصة أن يتم جملته، (يضحك) مثقفون، (يتحدث ـ محتداً) شيء قاتل، شيء جنوني، حقيقة، فلتتصور، لم ينتبهوا إلا أخيراً أن المشروع بحاجة إلى مال، سعر الورق طبعاً، تعرف، جمع الحروف، والكليشيهات، هي تعرف بالطبع ما هي الكليشيهات، الزنكوغراف، ولكنهم رغم

تظاهرهم بعكس ذلك، لا يعرفون شيئاً عن هذه المسألة، بل هم لم يفطنوا، وهو منهم طبعاً، أن هنالك مسائل مالية. . . إن أي فهم صحيح، صحيح بمعنى عملي، يشير إلى أن المسائل المالية أساسية، بالطبع هنالك حلول مستحيلة، مستجيلة لأنها ساذجة، أن يضع كل واحد منا (يضحك) خمسة قروش في حصالة كل يوم. . . وهنالك بالطبع آراء مثل الاتصال بالمجلس الأعلى للآداب والفنون. . (يضحك) إلا حكاية الحصالة دي. .

واستمر على هذا النحو، خائفاً أن يتوقف، كانت عيناها مسبلتين وعلى وجهها تعبير ألم. للحظة أدرك ما يدور في داخلها : إنها تسمع دوياً متصلاً لا تصغي إليه لأنها تلمس فيه ما وراءه من إحساس بالذنب ورغبة في تفادي الشجار. قاطعته قائلة :

ـ «سمعت الكلام دا كله من قبل.»

ومضت، مسبلة العينين، تواصل تدخين سيجارتها. لم يقل شيئاً عن هذا الموضوع من قبل، ولكن يبدو أنها تشير إلى طريقته في تتويه الموضوعات من خلال الاستفاضة في شرح تفاصيل العمل. قال وهو يضحك ضحكة كان يدرك افتقارها للمرح :

ـ «المثقفين؟»

قالت بلهجة قاطعة :

ـ «أنت بتهيألي زهقت.»

ثم أضافت كأنها تكلم نفسها :

ـ «كنت عارفة إن دا حايحصل. . كلكوا كده. . .»

ـ «إيه. . إيه الحكاية؟»

ـ «كنت بضحك على نفسي، بقول يمكن تكون مختلف عنهم. . القصد. .»

ها هي تلعب لعبة شهيدة الذئاب البشرية الذين يخدعون الفتيات الغريرات. إنه يعلم تماماً أي فتاة غريرة هي! وبالرغم من هذا فإنها كفيلة أن تكتب إلى المجلات «في ساعة غاب فيها العقل وحضر الشيطان فقدت أعز ما أملك.» فكر أن هذا ليس هو الوقت المناسب لفضح هذا الابتزاز الممل. قال :

ـ «بس إيه علاقة إني زهقت بالكلام اللي كنت بقوله!؟ باين إنك ما كنتيش

سامعاني . »

أدرك أنه أقر لها أنه زهق . استدرك قائلاً :

ـ «يعني لمجرد إني أنشغل بموضوع إنتي عارفة أهميته بالنسبة لي قد إيه فده يعني إني زهقت؟ همه كام ليلة . . يعني فيه مسائل معينة ، مسائل بالذات إنتي عارفة كويس قوي . . »

لم يجد ما يضيفه أو ينهي به الجملة . نظر في عينيها ليرى مدى جديتها فزاغت نظرتها منه ، وأدارت وجهها راسمة عليه تعبير «لقد سئمت ذلك كله» قال :

ـ «كنت بقول إيه؟»

كانت عبارة فضح نفسه فيها . قالت :

ـ «مش فاكرة . »

ـ «عايز أقول . . » .

قالت :

ـ «ما ترهقش نفسك . ممكن تتكلم لغاية الصبح وبرضه المسألة تفضل زي ما هيه . »

ـ «يعني إيه؟»

ـ «إنت فاهم كويس يعني إيه . »

ـ «مش فاهم . »

قالت :

ـ «بعدين حاتفهم . »

ـ «بلاش ألغاز وحياة أبوكي . »

ـ «أنا فاهمة كويس قوي ، فاهمة إن وضعنا بقى مستحيل ، مستحيل . . . مستحيل يستمر . »قال وهو يعلم أنه مهزوم :

ـ «إيه اللي مستحيل فيه؟»

أدارت له ظهرها وواصلت القراءة . وضعت الكتاب جانباً مرة أخرى وأشعلت سيجارة ، ثم عاودت القراءة . حاول أن يقودها إلى العملية الجنسية . استسلمت لقبلته

الطويلة وبادلته إياها، ثم ابتعدت عنه، ووضعت يدها في شعره، وواصلت القراءة والتدخين باستغراق مبالغ فيه. حاول أن يجذبها إليه ولكنها ابتعدت وقالت له :

ـ «لما عايز حاجة ممكن تجيب واحده من الشارع بخمسين قرش.»

ـ «إشمعنى خمسين قرش بالتحديد؟»

لا ترد.

ـ «إشمعنى واحده من الشارع. واحده في السرير مش كفاية، والا إيه؟»

على التو أدرك أنه أخطأ، وهي بالذات، كما يعرفها، سوف تحمل عبارته أكثر مما تحتمل. طوت صفحة الكتاب التي كانت تقرأها، ووضعت الكتاب على طرف الوسادة ونامت.

لما عاد في عصر اليوم التالي، لم يجدها. حاول أن يقنع نفسه ـ دون أن يكون هو مقتنعاً ـ أنها ستعود بعد قليل. لا يوجد من مكان تذهب إليه سوى بيت أبيها الذي لا تطيقه. خرج إلى الصالة. بدا له المكان واسعاً أكثر مما يجب. لفت انتباهه لمعان على مائدة الطعام. أضاء النور فاكتشف أنه مفتاح الشقة، وتحته ورقة كُتبت عليها كلمتان : «شكراً. رحمة.»

لا يريد أن يتذكر ما حدث بعد ذلك. كان مؤلماً وكفى. يتقلب في السرير يبحث عن وضع مريح، يتوافق مع اشتياقه لرحمة ـ للدفء والجسد. لم يغادر البيت عصر ذلك اليوم، ولم يذهب إلى العمل في اليوم التالي، ورحمة لم تجئ. كان طيلة الوقت جالساً يتابع كل حركة في الخارج منتظراً أن تدق الجرس. ثم ما حدث بعد ذلك لا يرغب، لا، لا يجب تذكره، يجب محوه من الذاكرة. ذلك اللقاء العاصف (كانت ترتدي بضائع مستوردة : بالطو بعنق فرو، وفستان ماكسي طويل من الصوف الانجليزي. . .) وهي تضحك ضحكات غريبة وتصرخ :

ـ «كنت مطمئن طبعاً. . قلت، حاترجع زي الكلبة، هيه حاتروح فين؟ مش كده؟»

وتخرج علبة سجاير مطلية بالذهب وقد كتبت عليها الأحرف الأولى من اسمها، وفي العلبة ولاعة. تدخن وتخرج الدخان من أنفها. . يجب نسيان ذلك كله. . انتهى وخلف وراءه ألماً كبيراً. . ثم تلك العملية الاستعراضية وهي تفتح شنطتها لتبحث عن

قلم الروج ـ لم تكن تستعمل أي مساحيق من قبل ـ وتقذف بثلاث قطع نقدية من فئة العشر جنيهات ومجموعة أخرى من فئة الخمسة والجنيه. كانت تفعل ذلك بطفولة جعلته يرد بالإيجاب على سؤالها إن كان يحبها... فلينس ذلك لأنه مؤلم، خاصة تلك المكالمة التليفونية.. ثم يتذكر: عزة تكلمه بالتليفون:

ـ «عزة»

ـ «هالو؟»

يعلم أنها هي.

وتتكلم عزة بسرعة:

ـ «حاتعمل إيه بكرة؟ بكره إجازة، مش كده؟»

ـ «حاقابلك و....»

ـ «طيب، طيب، الساعة عشرة في الكازينو.»

ـ «عشرة الصبح ولا بالليل؟»

ـ «باي.»

ـ «عزة..»

وتقطع الاتصال وتخلفه مبهوراً، ضاحكاً. ما الذي حدث لهذه الآنسة؟ إيه الحكاية يا أخت عزة، لم يكد يقول أكثر من كلمة واحدة حتى قاطعته «طيب، طيب!» مالك ملحوقة كده يا أخت عزة؟ ما احبش أرغي كتير في التليفون. كده؟ يتقلب في السرير ويضحك.

كانت حكاية رحمة هي الشبكة التي اصطاد بها عزة. رسم لرحمة صورة أجمل بكثير من الواقع، وقدم نفسه في صورة الوغد إلى حد ما. يقول لها إنه ليس شريراً ولكنه لا يدري لماذا فعل هذا الشيء أو ذاك. وهي لا تكف عن «ليه يعني ليه، ازاي، مش فاهمة...» ولكنها في النهاية أحبته. حاولت أن تجعل من رحمة إنسانة سيئة (تقول إنها بحكم كونها فتاة فهي أقدر على فهم نفسية المرأة منه هو). وخلال هذه المحاولات، وعبر التبرير والتفسير، أزالت ملامح الوغد التي حاول أن يتقمصها. وقد قاد ذلك إلى نشوء العلاقة بينهما.

لم تستطع عزة أن تدرك الخدعة، ولم يكن في عزمه أن يخدع. ولكنه فوجئ

بالفتاة قد تصاعد اهتمامها به، فرأى أن حباً قد نشأ دون أن يسعى إليه أي منهما. كان يحكي قصة رحمة لكثيرين ويصغي لتعليقاتهم بشغف، ساعياً لإزالة شعوره بالذنب نحوها، وإذا بشيء يحدث أحل حباً جديداً في قلبه وأزال كل أثر لرحمة.. قالت رحمة:

ـ «لسه بتحبني؟»

كانت تتحسس العلبة المذهبة الموضوعة على مسند الكنبة الأسيوطي بأصابعها. اندفع جذعها إلى الأمام عندما ألقت سؤالها. كانت النقود وبعض أدوات الزينة ما تزال متناثرة على الأرض.

رداً على سؤالها، نهض وجلس على مسند كرسيها، أحاط كتفيها بذراعيه وقبل شعرها ـ لمسه بشفتيه ـ ثم نهض وعاد إلى مكانه.

نظرت إليه بوجه غريب، بذلك التعبير المتسائل الفرح حين ينطبع على وجه طفل، ثم، وهي تنظر إليه، خلعت البالطو، وسارت إلى حيث يجلس. وقفت أمامه وأحاطت رأسه بذراعيها وأحنت رأسها وأخذت تفرك خدها برأسه. وجهه منضغط على بطنها الاسفنجي، يشم رائحتها ويتوغل فيها. ثم أمسكت برأسه بين يديها وجذبته إلى أعلى، تنفسها ثقيل ووجهها غائب. ينابيع عطش وشوق لها تفجرت في داخله بعنف لم يعرفه أبداً. سارت به إلى حجرة النوم وهي تقول:

ـ «مع إنك ما تستاهلشي.»

هل كان ذلك جنوناً؟ لم يتوقف ليسأل، لأول مرة في حياته نسي نفسه تماماً، ونام الآخر الذي في داخله، الذي يراقب دائماً. أعطت رحمة بسخاء. كان جنوناً استمر بضع ساعات. لم يرها قط في مثل هذا المجد: عيناها ساطعتان، وجهها الأسمر اكتسب حمرة داكنة: نار تنبض تحت غشاء أسمر، وجسدها طويل، قوي كأنه انبثق من الأرض انبثاقاً عارماً، عنيفاً، مدمراً.

كانت قد نظرت في ساعتها وقالت:

ـ «يا نهار اسود.»

وأخذت ترتدي ملابسها بسرعة. قالت له:

ـ «حا ارجع الساعة تسعة.»

كانت الساعة قد قاربت الثالثة.

ولكنها جلست في الصالون وهي تقول :

ـ «اتأخرت.»

ولكنها تجلس وتواصل الجلوس.

ثم نهضت بخطوات متراخية ومضت نحو الباب، كتفاها متقاربان. التفتت إليه قبل أن تمضي وقالت :

ـ «الساعة تسعة. ما تنساش.»

ومضت.

كيف ينسى؟

كانت آخر مرة يراها فيها. لم تجئ في التاسعة، ولا في اليوم التالي ولا بعده. بعد بضعة أيام وجد ورقة ألقت بها من تحت الباب، تطلب إليه أن يتصل بها بتليفون كتبت رقمه. ورغم أن أياماً قليلة قد مرت على آخر لقاء بها فقد بدا له أن زمناً طويلاً قد فات وأن رحمة قد أصبحت مجرد ذكرى. كلمها بالتليفون فرد عليه صوت رجل، كانت لكنته غريبة. فأنهى الاتصال. تلك الليلة الغريبة يجب أن ينساها، تلك المسيرة حتى طلوع الشمس وحيداً، مختنقاً بالألم والتعاسة... يجب أن ينسى ذلك كله، يجب أن ينسى ذلك كله.. ضاق به الفراش وتولته رغبة أن يفعل أي شيء.

قرر أن يصنع فنجاناً من القهوة. ومضت في وعيه : «القهوة تضيق شرايين القلب.. ستة فناجين..» رعب يصلح ليتحول إلى نكتة، تلقاه بنصف وعي كخلفية لعزمه على النهوض من السرير. تردد الرأي قليلاً، ترجرج، ثم غاب، مخلفاً وراءه خوفاً مبهماً، مصمتاً، غائراً في عمق مجهول. يغادر السرير (في واقع الأمر تسرب منه وانزلق) وأخذ يبحث بقدميه عن الشبشب. القدمان تعرفان الطريق إليه. يقف، يبغته البرد. اللحاف جلد آخر، إذا ما انتزع تعرض اللحم الحي، العاري، بأعصابه المكشوفة إلى سياط البرد الفظة. يئن ويتوجع. يلملم نفسه ويدب مقهوراً إلى المطبخ.

يحوطه الهواء الراكد فيمتنع عن التنفس قدر ما يستطيع. وضع الكباية تحت الحنفية وجعل الماء يندفع بقوة في داخلها. هذه كانت وسيلته لتنظيف الكباية من بقايا القهوة. وضع الكنكة على موقد البوتاجاز وأشعله. يداه وقدماه تثلجت فانفصلت عن

جسده، أصبحت مجرد أثقال من الحجر ملصقة به. يغادر المطبخ، ثم يشعر أنه يريد شاياً لا قهوة، يعود فيبدل الكنكة. يندس تحت اللحاف ومذاق الشاي في فمه. خيبة الأمل (انتظر رحمة في التاسعة، انتظرْ، وانتظر، دق جرس الباب، لم تكن هي) ماذا كنت أقول؟ خيبة الأمل، أجل، خيبة الأمل (عندما لم يجد منطقة دافئة في السرير) كانت أشبه بالعطشان في حر أغسطس عندما يتناول كوباً من الماء يعتقد أنه مثلج فيفاجأ بعد تذوقه أنه فاتر.

قدماه تفتش عن ملمس الدفء الطري الناعم، المغوي ولكن السرير محايد، لا يمنح دفئاً ولا يستلبه. للبيجاما على جسده ملمس مبلول. ينهض متعجلاً. كيف لم انتبه إلى ذلك، كيف؟ أغلق زجاج النافذة بعد أن اخترقه دفق الهواء البارد. وفكر: لقد تجدد الهواء بما فيه الكفاية. بهذا تم إغلاق آخر منفذ له يطل منه العالم عليه، فانطلقت حرية مؤجلة، منتظرة. أصبح حراً تماماً.

***

صوت سقوط المطر على الشيش يصلهما بوضوح، رتيباً، ملحاحاً. كان ذلك أشبه بمجموعة من الناس تتهامس دون توقف.

انصرفت إلى المطبخ وعادت بعد قليل تحمل صينية من النحاس الأصفر تزغلل العين بلمعانها مما جعل من الصعب تأمل الوشى الدقيق المحفور على سطحها. كان منظرها يوحي بدسامة وثقل. فوق الصينية براد الشاي، نعناع أخضر في طبق، كوبان والسكرية. رغم فخامة الشقة فقد احتفظت ببعض اللمسات الشعبية. تناول عوداً من النعناع وأخذ يمضغه. طالعته بنظرة متسائلة، باسمة. ثم اقترب حاجباها وأخذت تصب الشاي. قالت إن الشاي أجنبي: ليبتون. فكر أن كل الشاي أجنبي. تكونت فقاعات كبيرة على سطح الكوب وهي تصب الشاي (يصغي وهو في سريره للماء يغلي في الكنكة وكأن شخصاً يتغرغر، والكنكة تهتز مع الغليان محدثة إيقاعاً ما. يتولد في حلقه طعم الشاي الممزوج بالروم).

قالت:

ـ «كنا بنقول إيه؟»

نهض وأطفأ البوتاجاز. لا يريد أن يشرب شاياً. يتذكر وهو واقف في مطبخها،

هي تعد الإفطار وهو واقف بجوارها، والشمس على زجاج باب المطبخ تحيله إلى قطعة متلألئة، وجهها جاد. عندما تلتفت إليه تسطع ابتسامتها.

يعود إلى سريره مولولاً «مش معقول البرد دا.»

تمسك كباية الشاي وتقول: كنا نصنعه على نار الحطب.

ـ «كنت عايز تقول حاجه.»

الشاي على نار الحطب، إنه يتذكر ذلك تماماً. يقول لها إنه يرجوها أن تستمر.

تقول: ونكون في الداخل نتدفأ بنار الحطب ونعد الشاي فوق النار. الشاي المصنوع بنار الحطب مختلف تماماً عن الشاي الذي يعد فوق البوتاجاز. (كأنه لا يعرف ذلك. وكذلك الطعام المسوى بنار الحطب، في قدور نحاسية أو حلل فخارية..) كان بيتاً على الجبل، وهنالك في الخارج عواصف تصرخ وتصرخ والثلج يتساقط كأنه ندف القطن. تتمايل ندف الثلج شمالاً ويميناً كأنها مخمورة ثم تسقط على الأرض ميتة. كنت أضحك عندما أرى الثلج يسقط هكذا، وكان هو يقول إنني جننت، فأضحك وأضحك. قالت إن ذلك حدث في لبنان، على الجبل، مع شخص لم يكن يستحق إلا القتل.

تتنهد وتغيم عيناها، تغيب، وهو يفكر: من كان يتصور أنها من هذا النوع من النساء... هذه المرأة التي عرفت كل شرور الدنيا ـ كما يتصور هو الشرور ـ: تجارة الحشيش يقولون، وتأجير الشقق المفروشة للسائحين وما يرافق ذلك من عمليات، وتقول صاحبة العمارة إن عصابة من الفتوات يأتمرون بأمرها، وعدداً من سائقي عربات الأجرة التي تملكها... كانت تستطيع أن تحلم كطفلة. يتذكر الآن، وهو يتلوى على السرير بشوق مخبول إليها، يتذكرها جالسة على طرف الكنبة في شقته، وقد تركزت عيناه على ركبتيها العاريتين، يتذكر الخجل والارتباك: عيناها ترمشان وخداها ملتهبان بالخجل، وهي تمسك بطرف الجونلة تحاول أن تسبلها على ركبتيها دون جدوى، وهي تنظر إليه مبتسمة بخفر عذراء. وظلت تكرر تلك المحاولة الفاشلة طيلة الوقت.

تتحدث وهي غائبة، تقول لقد استولى على نقودها واختفى فجأة. ومرت أيام لا يعلم بها إلا الله، أيام عصيبة. جاعت، وتحملت المهانة... ولكن... ولكنها عندما

تتذكر ذلك البيت ونار الحطب والعاصفة والثلج ترغب بجنون أن تعود إلى ذلك المكان. تريد أن تعود إلى ذلك، سوف تفعل ذلك يقيناً ليس مع ذلك الآخر ولكن معه هو.

تصمت ويغشى وجهها حزن جليل، ويجلس هو منفياً عن عالمها المخيف. يفكر أن الشوق يقتلها إلى الآخر. يراها تشمخ، جسدها يستقيم ويمتد عنقها عالياً، ويندفع صدرها إلى الأمام.. يكاد يلمس عنقها ذاك الذي يحوطها كمجال كهربائي ـ عندما فكر هكذا تذكر الهزة التي يحدثها سلك الكهرباء المكشوف لما أمسك به خطأ ـ يشعر بالنبذ (إنها تفكر فيه، تفكر فيه ويبهظه العجز والمهانة). يقرر أن ينبهها إلى وجوده بإعلان عزمه على الانصراف. ينتقل عذابه إليها، فتطالعه بعينين تائهتين، تتحدد النظرة فتبتسم، وينساب منها العنف. تميل نحوه.

ترق وتحنو، وتكون قريبة وحانية، وتمسك يده تداعبها. يحس باختناقة البكاء في حلقه. تقول: سوف يعيشان أياماً جميلة، فليدع ذلك لها. يقول لها بصوته المختنق إنه سعيد: أي انفجار للبهجة المضيئة في وجهها! يهدأ.

يمد يده الأخرى. يتذوق الشاي. لا يستطيع أن يميزه عن أي شاي آخر ولكنه يمتدحه. ثم يضيف ـ لمجرد أن يقول شيئاً ـ أن هناك نوعاً آخر من الشاي، نوعاً ممتازاً، اسمه شاي الولد. تقول بلهفة عندها منه، شاي الولد، هل يريد كوباً منه؟ يقول لا، لا، لم يكن هذا قصده. تصر، وتتحفز للقيام، يقول إن ما أراد أن يقوله أن شاي الولد نوع ممتاز ولكن هذا الشاي، ليبتون، أحسن منه.

تعود إلى الحديث عن لبنان والجبل ونار الحطب... الفواكه هنالك كثيرة وممتازة ورخيصة: التفاح طبعاً؟ أيوه، التفاح الأمريكاني الحلو.. تستطيع أن تأكل الفاكهة من على شجرها، تقول أن طعمها يكون مختلفاً.

يقول: كل شيء في لبنان مختلف، يعرف ذلك. كل شيء مستورد.

تتوقد بفرح يغلبها، يصبح لها وجه طفل. يستطيعان، تقول، الذهاب إلى ذلك الجبل، إلى ذلك البيت بالذات. هناك حتى البحر يبدو بحراً آخر، يبدو عن البعد، من فوق الجبل، مع الثلج يبدو مختلفاً. يكون رمادياً ناعماً.

يسافران في الحلم إلى هناك.

عند ممارسة الجنس تكون فاترة، تغمض عينيها وتدع له جسدها. وكان إذا طلب

منها ذلك تضحك ضحكة عصبية وتقول ليس الآن، بعد قليل، ثم تأخذ في رواية حكاية دون أن تنظر إليه. ثم تكتشف أنه غاضب. تتوقف وتقول :

ـ «إنت عايز بجد؟»

كأنها لا تعرف ذلك. يرفض، ويصر على الرفض وقد بدت الإهانة واضحة في وجهه. يقول :

ـ «كملي الحكاية.»

تضحك وتقول :

ـ «اتقمصت؟»

يقول :

«أبداً، أبداً، بس مش عايز دلوقتي.»

تقبله تلك القبلة الغشيمة وتمسك بيده وتقول :

ـ «قوم بقى.»

وهو يصر على الرفض :

ـ «مش عايز حقيقي.»

تقول بصوتها الأنثوي المتموج :

ـ «قوم بقى، قوم، ما تكسفنيش بقى!»

وهي تجذب يده.

تقوده إلى حجرة النوم. تمنعه من إشعال الضوء، تتخلص من ملابسها متعجلة وتختفي تحت ملاية السرير. يبثها حبه، تفتح عينيها لمدة ثانية ثم تخفي وجهها. يأمل أن تكون مختلفة هذه المرة.

ولكنها، مثل كل المرات السابقة، تجعله ينتهي بسرعة. تدعه مرهقاً، مخدوعاً، وتمضي مسرعة إلى الحمام ثم تفاجئه بدخولها. وعندما يعود من الحمام يجدها قد ارتدت ملابسها، شفتاها ترسمان تعبير ألم، ووجهها حزين، حزين، ومنكسر. كأنها سوف تشرع في البكاء وقد انتهت منه : وجه طفلة عنفت وهي في قمة مرحها بلا سبب. تنظر إليه، وعندما تلتقي العيون تزوغ نظرتها منه، وتنهض متنهدة، وتخرج

إلى الصالة، تاركة إياه يتم ارتداء ملابسه وحده.

يقول لنفسه : إنني عجزت عن إقناعها. ذلك الرجل الذي أقام معها في لبنان هو القادر على ذلك. أمتعها فمنحته كل شيء.

يقرر أن ينصرف عنها ولا يعود إليها أبداً. ولكنه كان دائماً يعود، يرجو أن تكون مختلفة هذه المرة.

يخرج إليها فيجدها مستعدة للحديث. يراها مستغرقة، تدخن سيجارة، وتضع ساقاً على ساق ووجهها شديد الجدية، مأساوياً. يستقر في عظامه أنه أتى بعمل مخجل. يتفادى نظرتها. تبدأ الحديث بأحكام عامة على الحياة ـ معناها وهدفها وجدواها ـ تكون أحكاماً شديدة المرارة والتشاؤم، مبعثها خيبة الأمل : كان تتخيل الأشياء مختلفة، ولكنها عندما تتحقق تصبح مخيبة.

يعلّق هو محاولاً أن يكسر حدة هذه المرارة. تسود بعدها فترة صمت، ثم تروي الكثير من الحكايات، تكون فيها دائماً الجانب الضعيف والمظلوم. وخلال ذلك يتخذ البواب والبقال والطالب العربي الذي يسكن في الشقة الصغيرة المجاورة لشقتها طابعاً فظاً، متجهماً، يختفي وراءه تآمر دنيء، سيء النية. عالم غريب تنسجه يصبح فيه الجميع أشراراً حباً في الشر ذاته. ويكون دائماً الحق بجانبها فتنهزم أو تتخلى عن موقف صحيح لأنها ضعيفة وهم أناس لا يجدي معهم حوار ولا إقناع. تكون نائمة تماماً، فيدق ذلك الطالب العربي جرسها، فتفتح الشراعة والنوم في عينيها، وتسأله ماذا يريد، فيقول إنه يريد الدخول، فتقول إنها نائمة، فيقل أدبه ويقول إنه تصدر من شقتها أصوات مزعجة ولا يستطيع النوم. فليتصور، تكون نائمة ولكنه يقول هذا. وبعد هذا يتقصدها. فكرت أن تخبر أمها لتأتي وتهزئه. قررت ذلك بالفعل، ولكنها عادت وقالت لنفسها : يا بنت، اقصري الشر.

يقول لها إن ذلك لا يبدو عليهم ويعبر عن اندهاشه أنها تأخذهم بكل هذه الجدية. فتقول طبعاً أنت رجل ولن يستطيعوا أن يفعلوا لك شيئاً. فيعجب ويعجب ولا ينقضي تعجبه. وتضيف عنهم حكايات أشد هولاً. البواب متقصدها، مثلاً، فقد تأتي أمها فيقف أمامها ساداً الطريق ويقول :

ـ «الست مش موجودة.»

رغم أنها تكون موجودة تنتظر أمها. بل إنها تتفق مع النجار أن يصنع لها كرسياً وأشياء كهذه فيرفض البواب أن يدخله المصعد.

الجميع متقصدينها لسبب أو لآخر: ربما كان هذا هو جوهر كل هذه الحكايات التي ترويها.

ولكنه هو الذي يتحين كل فرصة ليجعلها تتحدث عن ذلك الذي هجرها في الجبل والثلج، يقول: هل من الممكن أنها تشجعهم على ذلك؟ يشحب وجهها قليلاً لاحتمالات الإدانة الكامنة في السؤال.

يضيف، مثلاً، ذاك الذي كان في لبنان، هل تحبه؟ ويفكر: أي علاقة بين السؤالين؟

تقول له إن ذلك الرجل قد انتهى من حياتها ولا تحب الحديث عنه بعد. يعيد السؤال: هل ما زالت تحبه؟ تنظر إليه بدهشة، تقول محتجة:

ـ «بعد كل اللي عمله؟»

يسألها إن كانت تحبه قبل أن يهجرها. تقول، كيف يمكنها أن تحب إنساناً فعل معها كل هذا؟ يقول لها إنه يسألها إن كانت تحبه قبل ذلك، قبل أن يهجرها؟ تقول لقد كانت مخدوعة به.

ـ «يعني كنتي بتحبيه؟»

ـ «مش ممكن أحبه.»

ـ «دلوقتي، بس قبل كده؟»

ترجوه أن يفض هذه السيرة.

ـ «ليه؟»

تميل نحوه وتقبله قبلتها الغشيمة التي تشبه قبلة الأطفال عندما تطلب إليهم أن يبوسوا عموه. ثم تدفن رأسها في صدره وتقول له:

ـ «أسكت، الله يخليك، علشان خاطري.»

وكطفل كان يريد منها أن تلعب دور الشجيع الذي يمزق أعداءه دون رحمة. يقول لها إن عليها أن تنتقم منه. لماذا لا تفكر في البحث عنه والانتقام منه؟ تنظر إليه باسمة،

مندهشة. يخجل من نظرتها ولكنه يلح، لماذا لا تفعل شيئاً. تقول، إنه لو قابلها في الشارع فسوف تدير وجهها له، ولن تسلم عليه. يفكر: أهذا كل شيء، كل ما سوف تفعله وهي القادرة على أكثر من هذا بكثير؟ قال لها مرة إنه هو يود أن يفعل له شيئاً، هل تعرف أين يسكن؟ وعلى التو خطر له أنها قد توافق وتورطه. قالت:

ـ «أرجوك، أرجوك، يا حبيبي إنسى الموضوع دا، إنساه خالص.»

ثم تحدث نفسها مبتئسة:

ـ «أنا غلطت اللي قلت لك. إنس الموضوع يا حبيبي، إنساه علشان خاطري.»

كان هو نفسه يضيق بأسئلته ولكنه لم يكن يستطيع التوقف. في مرة طلب منها أن تصف مظهره، قالت:

ـ «زي الفار.»

شعر بخيبة أمل. إذن لماذا أحبته؟ تقول له بصوتها الشاكي إنها لم تحبه ولا تحبه... يسألها: وأنا؟ عيناها تزهران بشيء كالدموع وتقول:

ـ «انت؟»

وترمشان.

***

كانت تسكن في الأدوار العليا. في الليل تهبط إلى شقته، تدق جرس بابه دقة خفيفة، دقة واحدة صغيرة. يفتح هو الباب على الفور، فيراها تهبط السلم. تشير بإبهام إصبعها إلى أعلى دون أن تنظر إليه وتواصل الهبوط. تختفي وراء منحنى السلم، يركز ليسمع وقع قدميها، ولكنها تبدو وكأنها ذابت. يقف بباب شقته منتظراً، فيرى المصعد متجهاً إلى أعلى، وهي بداخله طويلة، مسبلة العينين.

يغلق باب شقته ويتبعها صاعداً السلم على قدميه. باب شقتها يبدو مغلقاً، ولكنه يعلم أنه سوف ينفتح بمجرد أن يدفعه بيده. أنفاسه متلاحقة، وخائف، يدخل متعجلاً، مبهور الأنفاس، يقبلها، فتدعوه إلى الجلوس.

تقول له إنها آسفة، شديدة الأسف. تأخرت عليه لأن أقاربها كانوا يزورونها ولم تعرف كيف تتخلص منهم. (تقول هذا كلما تأخرت عليه. ويصمت هو محرجاً).

جو الشقة يعبق برائحة اللحم المحمر، ورائحة أخرى قدر أنها الحشيش.

لم تكن تستطيع التخلص من انشغالها المتوتر الذي خلّفه اللقاء مع «الأقارب» إلا بعد فترة قد تطول. تظل مستغرقة، تائهة. تخرج من استغراقها للحظة فتتنهد، وتبتسم له، وتقول:

ـ «بتشرب قهوه؟»

يقول لا، فتتوه، مطلة بعيني قصار النظر، عينها اليسرى تختلج قليلاً. وعندما تعود إليه ترمش عيناها مرات متتالية، وتبتسم بخجل وارتباك. تلتقي عيونهما بنظرة سريعة، تهرب عيناها بعدها، ثم تعود تنظر في عينيه وتهرب عيناها وهي تبتسم بتحرج.

تبين له أن الملامسة تعجل في إخراجها من تلك الحالة. يمد يده ويلمس بأطراف أصابعه بخفة وجنتيها وأنفها وفمها، تعم وجهها البهجة وتضحك قائلة:

ـ «إنت بتعمل إيه؟»

وتعاود الضحك.

ينهض وينحني فوقها فيقبل جبينها، وأنفها، وعينيها، وهي رافعة إليه وجهها، مستسلمة... في وجهها ضحك متجمد وعبث رقيق، حان. تنفجر بضحكة ثرية وتقول:

ـ «مش عايز تبوس ودني كمان؟»

فيقول:

ـ «طبعاً.»

فيقبل أذنها. يرتعش جسدها كله وتبتعد وقد تزايد ضحكها.

تقول:

ـ «اقعد، حبيبي، ربنا يهديك.»

وهي تضحك.

في أحيان كثيرة كان يراها واقفة بباب العمارة وهو داخل. تكون منشغلة بالحديث مع آخرين فتبدو إنسانة مختلفة ـ جادة، وعملية للغاية. اعتقد أنها تتجاهله عن عمد، وكان يستطيع فهم ذلك وقبوله.

ومرة، وهو داخل العمارة، التقت عيونهما. يستعيد تلك النظرة التي أضاءها التعرف، تشع كالجوهرة. (يود أن يهرب من ذلك، فينهض من السرير ليصنع شاياً. البرد يدفعه إلى السرير دفعاً. يعود الموقف إليه). كانت نظرة تحب أن تمسكها. انصرفت عن الآخرين وأخذت تطالعه واسعة العينين، ضاحكتهما. كان الفرح في هاتين العينين حافلاً ببهجة الحياة وبالترحيب كأنه عناق مشتاق. يحتار، يهرب ارتباكاً وخوفاً. في شقته يظل يذرع الصالة وقتاً طويلاً، وقد استقرت الفرحة في قلبه كالجمرة. يلوم نفسه خلال ذلك لأنه أهان ترقبها الجميل الشجاع عندما ارتبك ولم يرد تحيتها ـ تلك الإيماءة، الخفيفة، الخفية، المتواطئة وقد نقلت عبرها ألفة حميمة، ومودة حلوة. يعزم أن يهبط أو يصعد إليها ويعتذر، ولكنه لا يفعل. يتأمل ما حدث ويرى استحالة منع حدوثه الآن، فيعلم أنه لن يفعل.

يرهقه الانفعال والندم فيطوف الشوارع محاولاً أن ينسى، أن يعيد بناء ما حدث من خلال حلم يقظة.

في الليل تحكي له باستفاضة كيف رأته داخلاً، رأته قبل أن يدخل، فنسيت ما كانت تقول. اشتاقت إليه بشكل . . وهي تعتذر إن كانت قد أحرجته . . كان ذلك بالرغم منها، حقيقة نسيت نفسها. على كل حال هما جاران ومن الطبيعي أن يتبادلا التحية. طبعاً، إذا رغب في ذلك، فذلك يعود إليه، يكفيها منه هذا اللقاء الليلي . . . وماذا يهم إذا عرف الناس أنهما اصدقاء أو حتى حبيبان؟ هي بالطبع تعرف الفارق بينهما (لم يخطر بباله قط أن هنالك فارقاً بينهما، بل هو لم يدر ما الذي جعلها تعتقد بوجود هذا الفارق الذي لم يشعر به قط نحو أي إنسان). ولكنهما كجيران فبإمكانهما أن يتبادلا التحية. قد تكون المسألة لا أهمية لها بالنسبة له، طبعاً ذلك راجع له . . . طبعاً في المرة القادمة سوف تسيطر على نفسها، ولكنها فوجئت . . .

وتمضي هكذا. كان يدهشه أن تبدي كل هذا الاهتمام بمسألة كهذه. حدث عزة كثيراً عنها. قال لها إنه لاحظ أن النساء اللواتي يمارسن أعمالاً ضد القانون والمواضعات الاجتماعية قادرات بشكل تلقائي أن يرسمن صورة لحياتهن تشبه الصورة التي تعيشها المرأة العادية، ويبدو أن ذلك يتم بفعل آلية تحيل كل أحداث الحياة المعقدة والمؤلمة إلى سياق الحياة اليومي المبتذل. وقال لعزة إن ذلك يفقر روحها.

كل شيء تحكيه عن مشاغلها يبدو روتينياً ومعاداً : زوارها المريبون، رحلاتها

المتكررة إلى لبنان، غيابها طيلة النهار وجزء من الليل تعود بعده مرهقة. في أحيان نادرة يدق جرس التليفون في ساعات الصباح الأولى. تدعه يدق بعض الوقت وهي تنظر إليه بعينين مبتئستين، صابرتين، ثم تمد يدها إلى السماعة بتأوهة ألم (تأوهة تقول: لا بد من احتمال فواجع هذا العالم، وها أنت شاهد..) ترد بكلام سريع، وكلمات مدغمة تؤجل فيه كل شيء إلى «بعدين، بعدين» ثم تصغي مرة أخرى. وعندما تنتهي، تنزع فيشة التليفون وهي تتنهد. تنظر إليه بتساؤل (ها أنت ترى، أليس كذلك؟.. هل كونت أفكاراً خاطئة؟) تتوه بضع لحظات، ثم تنتفض كأنها تبعثرت، ثم تعيد بناء نفسها، مطلة على ذلك كله بابتسامة مجاملة.

كان يقول لعزة إن ما كان يفقرها هو اختلاط الأمور لديها. فقد كانت تعتقد فيما يبدو أن المغامرة العظمى هي أن يعيش الإنسان حياة بورجوازية صغيرة محافظة. قالت عزة، بل هي النمط المبالغ فيه للبورجوازي الذي يخفي كل شروره تحت سطح من التظاهر الكاذب[1]. أما صخب الحياة فقد كان بالنسبة لها توتراً مملاً، لا يستحق الرواية، أو هو بذاءة يجب إخفاؤها بكل حرص. قال لها مرة إنه يود أن يدخن الحشيش، فقد سمع كثيراً عن تأثيره ويحب أن يجربه. لقد أذهله الرعب الذي ارتسم على وجهها.

ـ «يا نهار اسود!»

قالت وهي تتأمله بجدية ناحبة. ثم، لماذا يقول لها هي ذلك؟ وهل صدق بعض الألسنة الشريرة، البواب، وذلك الطالب العربي..؟ وأخذت تحكي له حكايات عن رجال شربوا الحشيش فتأبدوا في السجن، وتشرد أولادهم في الشوارع، وخربت بيوتهم. ولأول مرة، منذ أن عرفها، بدأت هي بالتمهيدات الأولى لممارسة الجنس. كانت تقول له خلال القبلات والمداعبات الرقيقة إن عليه أن يعطيها وعد شرف أن يبتعد عن الحشيش وألا يذكره أبداً.

في تلك اللحظة انكسر الوهم في داخله وضاعت إلى الأبد الرومانسية العميقة الجذور للمومس الفاضلة، وسقطت المرأة في سياق الحياة المبتذل.

---

(١) لقد ذهل وهو يسمع عزة تقول هذا. أحس في تلك اللحظة بالتشرف أن فتاة كهذه تحبه. ولكنه كان يعلم أنه لو قال لها ذلك لأصبحت عصبية.

كانت عزة تحب أن يحدثها عن هذه المرأة، تكثر من الأسئلة ولا تريده أن يتوقف. وعندما تكون في هذه الحالة كانت تنفر من الملامسة. ترغب أن يستمر في هذا الحديث وحسب. تقول إنها تود أن تراها، هل يمكنه أن يعرفها عليها؟ وفي إحدى المرات قالت إنها تحلم كثيراً أن تكون هذه المرأة صديقتها، أن تجلس معها وتتحدثان كامرأتين. ومرة قالت له عزة إنها تحسد هذه المرأة، ليس لها أخ يسائلها كلما تأخرت.

قال لها إن لهذه المرأة متاعبها، وهو راسخ العزم ألا يحكي عن تلك الحادثة المخيفة التي أنهت علاقته بتلك المرأة. ترد عزة إنها تعرف ذلك ولكنها تتحدث عن أمر آخر. ثم تقول: ما الذي يمنعه من أن يعرفها عليها؟

بدأ تعرفه بالمرأة عندما كان يحمل علبة صغيرة بها بعض قطع الشيكولاتة أعدها ليقدمها هدية للطفلة دينا. ورغم أنها لم تكن تأكل منها إلاّ قطعة صغيرة، إلا أن دينا كانت تحب أن تهدى. تعيد توزيع الشيكولاته بوقار سيدة حقيقية: «خذ يا بابا، خد يا عموه، ودي علشان دينا الصغيرة.» كان أحد أمجاد دينا أن هنالك طفلة أخرى، جارة لها، تحمل نفس الاسم وتزعم أنها أصغر منها ولذا أصبح اسمها هي «دينا الكبيرة.» ومن خلال لعبة الألفاظ هذه اعتقدت دينا أنها كبيرة حقاً.

عند الظهر كان داخلاً العمارة حاملاً تلك العلبة وداخله يتبعثر ويتشتت بالضحك عندما يقوده الخيال وحلم اليقظة إلى ما سوف يحدث في مساء هذا اليوم. كان العالم من حوله يختلج بابتسامات مكتومة. (مدت دينا الصغيرة يدها لتتناول زجاجة الكوكا كولا من فوق الطرابيزة، فلم تطلها. مدت دينا الكبيرة يدها فأمسكت بها وأعطتها لدينا الصغيرة. هكذا تحكي دينا، تاركة للمستمع أن يخرج بالنتائج الصحيحة. يقول هو:

ـ «علشان هية صغيرة!»

تقول بجدية:

ـ «دي كبيرة!»

ـ «بس أزغر منك.»

لا تجيب ولكنها تقول إن دينا الصغيرة كسرت الكباية وقالت:

ـ «حاقول لتانت.»

رغم أنها هي التي كسرتها.

وتواصل دينا الكبيرة تحريضها البارع. عندما ولج باب العمارة رأى تلك المرأة في المدخل تكلم البواب والنجار ورجلاً آخر عابس الوجه ـ ذلك العبوس المبالغ فيه الذي تتخذه الشخصيات العنيفة ـ الشريرة ـ والمهزومة دائماً في الأفلام الكوميدية ـ يكاد الشعر الأسود ـ كأنه مصبوغ بصبغة سوداء ـ الكثيف الخشن يغطي معظم مساحة وجهه، كما يبدو عليه أنه لم يحلق لحيته من أيام. وبرزت عيناه الصارمتان ببياضهما الناصع المصمت وسط تلك الحلكة كالأعجوبة. كان وجهاً تود أن تمد يدك وتنزع عنه قناعه لترى الوجه الآخر المختفي وراءه.

راعه ذلك الوجه الموضوع فوق جسد طويل الجذع، قصير القدمين. ينبعث منه العنف كإشعاع خفي، فتشبثت عيناه به. وكان هنالك وجه البواب الصعيدي الأسمر المدور، ووجه النجار الشاحب بشعره الأصفر. كانت المرأة تبدو وسط تلك الوجوه نضرة للغاية، وقد اكتسب جسدها الرشيق طاقة من العنف المتوتر، الصامت، المتحفز يخفيه فستانها كالديناميت. ازدادت تلك الوجوه بتفاعلها مع وجه المرأة شقاء وتعاسة، واستلبت رجولتها وبريقها. في مثل تلك اللحظة يعشق القادم بهوس يصير به إلى حافة الاختناق، تتولاه رغبة جنونية يائسة ويتوه تماسكه، كأنه يسير على أرض زلقة، ثم ينتهي الحب وتعقبه مرارة الإدراك باستحالة الاستجابة من الطرف الآخر، تشتعل أحلام اليقظة وتنطفئ لساعتها نتيجة خبرة عريقة باليأس. يتخلف وراء ذلك طعنة نافذة في القلب! هذا الحرمان أصبح طابعاً لحياته، للحياة، يرافق ذلك استبصار بأن الموت يقترب والحياة تمضي وسوف تمضي هكذا دون أن تحقق لنا ما نرغب فيه بحدة. يتكرر ذلك كثيراً في اليوم الواحد، بدرجات متفاوتة، وكأنه جزء من وجودنا ولكننا لا نستطيع أبداً قبوله أو تعوده.

طفا وجهها في الفراغ نحوه، فكان هو والوجه وحدهما، وللحظة سقط كل ما عداهما في العدم. تشبث باللحظة، كاتماً أنفاسه، صارخاً يضرع لها: لا تبتعدي، لا تتوهي، توقفي... ثم ضحكة تعرف تتلألأ في العينين، على شكل ومضات ضوء سوداء متصلة، ثم انصرفت عنه إلى الأمور العملية التي كانت تناقشها مع الرجال الثلاثة. هل استمر ذلك ثانية، أم دهراً؟ لا يمكن التحدث عن زمن محال إلى آلية صماء تجزئه إلى ثوان ودقائق وساعات. بعدها انبثق العالم من جديد بطنينه المعتاد،

المعاد. ثم اضطرب بالمفاجأة وارتاع حين سمع صوت الطفلة التي لم يكن قد رآها يصيح به :

ـ «يا قليل الأدب، مش عيب عليك تعاكسني!»

تقول ذلك، وهي وافقة في مواجهته، تهز رأسها باستنكار، وجديلتاها تهتزان مع حركة الرأس. في نهاية كل جديلة وردة زرقاء من البلاستيك قد شبكت بشريط أزرق. من أذنيها تتدلى سلسلة ذهبية في نهايتها قرطان ذهبيان على شكل زهرتين صغيرتين. كانت عيناها غاضبتين وشفتاها مزمومتين بتحد.

فكر أن يحتج، ثم تبدت له فكاهة الموقف، فضحك وحاول أن يلمس رأس الطفلة. مدت المرأة يدها وهي ما تزال تتكلم وأمسكت بجديلتي الطفلة جاذبة رأسها إلى الوراء. الطفلة ما زالت تنظر إليه باستنكار وهي تقاوم جذب المرأة. التفتت إليه المرأة بنظرة صغيرة عملية، مؤدبة، وقالت :

ـ «لا مؤاخذة.»

كانت عبارة مقتضبة، مهذبة، لا تسمح بمزيد من الحوار، وتحمل نوعاً من التحذير خفياً، غير مؤكد، ولكنه كامن في نقطة ما من مسار هذا الاشتباك إذا سمح له بالاستمرار. وكان ذلك يعني أنها قررت أن تتجاهله، بل إنها لم تكد تشعر بوجوده. وجه البواب اكتسى بتعبير غاضب، تقي. رفع ذراعيه وفرد كفيه كأنه يتهيأ لاستقبال حمل ألقي إليه من أعلى، وعاد بكتفيه إلى الوراء وقال بحدة :

ـ «عيب يا بت.»

فتح هو العلبة وأخرج قطعة صغيرة من الشيكولاتة ومد يده بها إلى الطفلة وقال :

ـ «خدي سلكي صوتك علشان تعرفي تشتمي كويس.»

أطلقت المرأة ضحكة صافية، حقيقية، وراحت الطفلة تدير عينيها الفزعتين بالمطلين عليها، ثم تركزتا بقطعة الشيكولاتة دون أن تمد يدها. أما البواب فقد تناول قطعة الشيكولاتة منه ومدها إلى الطفلة زاعقاً :

ـ «خدي يا بت، خدي من الأستاذ.»

وعندما أصرت الطفلة قال للمرأة :

ـ «قولي لها تاخذ.»

قالت المرأة للطفلة :

ـ «خديها . »

وواصلت حديثها مع الرجلين الآخرين ، وراح البواب يؤنب الطفلة ، ثم توجه إلى الآخرين قائلاً بجدية بالغة :

ـ «يا سلام على الأخلاق . »

وعندما استدار لينصرف قال البواب من وراء ظهره ، بقصد أن يسمعه :

«هيه دي الناس المتربية صحيح . »

داس زرار المصعد وصوت البواب ما زال يدوي . كان يقارن بين مسلك الطفلة ، قليلة الأدب ، وبين مسلكه هو ، إذ سمع شتيمته بأذنيه ولكنه تغاضى عنها وارتفع فوقها وقدم لمن شتمته قطعة من الشيكولاتة . ثم أعلن أنه أحسن ساكن في العمارة .

أحب في المرأة أنها لم تلتفت إلى ضجيج البواب بل انصرفت تكلم الرجلين كأن شيئاً لم يحدث وهي ما تزال ممسكة بجديلتي الطفلة تجذبهما بين الحين والحين كأنهما عنان فرس .

صعد إلى شقته . كانت رائحة الطبيخ عالقة في المدخل ، وفي الصالة عتمة يتكور في داخلها الضوء القادم من شباك الحجرة الأخرى كأنه ضباب . جلس على كنبة في الصالة عاجزاً عن حزم أمره : هل يستعد للغداء أم يهبط مرة أخرى . أشعل سيجارة وفكر أن السجاير تسبب سرطان الرئة . انحسم الموقف . قرر أن يهبط ويدير حديثاً مع البواب يسأله متى انصرفت الخادمة ويواصل معه الحديث إلى أن تنتبه المرأة إلى وجوده . خطر له أنه يعرض نفسه للمهانة وهو يهبط السلم . ثم أخذ يعد نفسه ـ بثقة أكبر ـ لتكرار الموقف الذي مر به منذ قليل .

وعندما انتهى إلى المربع الذي أمام المصعد اكتشف أن الجميع قد اختفوا ، كأنهم لم يكونوا هناك قط . بدا له مدخل العمارة غريباً ، كأنه مدخل لعمارة أخرى يدخلها للمرة الأولى : لقد زالت الألفة عنه فأصبح موضوعاً للمراقبة والاستكشاف .

افتقد المرأة فقدان هجر . كانت ضحكتها تموج في داخله باعثة دواراً خفيفاً يجعل كل خطوة من خطواته مجازفة . ماذا الآن؟ لا يستطيع أن يعود وهو قد هبط لتوه . ابتسم عندما تذكر الرجل القاتم ، الكثيف الشعر . سار إلى باب العمارة ، نسي ، ثم

تذكر. نادى البواب، فلم يجده.

***

صوت المطر في الخارج تألفه الأذن كأنه يحدث كل يوم، صوت قديم، عريق في الذاكرة. يتصاعد فيصبح كسياط تشق الهواء، يجهد ويلهث فيتحول إلى دبيب أرجل بعيدة، مسرعة. يفتقد عصف الرياح الثلجية بين الشجر، تئن وتموء وتزأر. في مكان ما، تسقط قطرات الماء بصوت كالتمطق.

يتراءى له الشارع واسعاً وخالياً ورمادياً. أرضه تحولت إلى عجينة سوداء. كتل سوداء، لاهثة تعبره مسرعة، مكروبة كأنها تخطو على نار. أرجلها تخلف في الأرض حفراً طينية. الصمت ثقيل، له ثقل الخوف المبهم وثقل الحزن. يقبض قلبه شوق أن يدق جرس الباب، وتعبره عزة مقرورة، ثرثارة، صاخبة، يقبل شفتيها الملتهبتين، ملمس أنفها البارد على سطح وجهه. يقبل عينيها.

الصمت كبير، كبير، وواسع، وخانق.. وكأن الجميع ماتوا وهو وحده ينبض في وسط الكون.

***

يصبح التذكر خلقاً من عدم.

ماذا كنت أقول؟

من عدم.. ماذا؟.. الطفلة. يبتسم. تلك الطفلة كان لها رأس غانية باذخة ـ القرطان بسلسلتيهما الذهبيتين، الوجه الأسمر، الخيف السمرة، اللامع بالصحة، والعينان الكبيرتان، لونهما بنفسجي ـ ولكن الوجه الصغير الجاد يثير الضحك (يجعلك تحس بتلك السادية التي تدعوك إلى التهام وجه ما، ولأن ذلك مستحيل فأنت تضمها إليك، تقرصها، تشد شعرها، وتعبر عن تحببك بكلمات من نوع: حاكلك، حاموتك..) يغرق في الضحك، فيخاف. ماذا كنت أقول؟ تلك الطفلة.. القاتم، ذلك الرجل القاتم بعبوسه المضحك، يلبس قناعاً هو الآخر، لماذا قلت هو الآخر؟ تذكرت لأن الطفلة كانت تلبس قناع غانية.. يجب ألا انحدر إلى تلك الحكم البليدة من نمط: كل إنسان يلبس قناعاً، أو اقنعة.. المنفلوطي، وماجدولين وتلك الفتاة البدوية. ذلك الرجل القاتم. سألها مرة عنه. أصغت إليه، لم تكن تصغي تماماً، قالت:

ـ «آه، دا النجار.»

قال لها إنه يعرف النجار ـ نحيل، أصفر، عيناه عجوزتان ـ فدكانه في الشارع الصغير المواجه للعمارة، ولكنه يعني ذلك الرجل الذي كان يقف بجوار النجار. حاولت أن تتذكر. سألته:

ـ «كان لابس إيه؟»

اندهش (ما أهمية مذا كان يلبس؟) كيف يكون هذا الرجل حياً في ذاكرته هو بينما هي لا تكاد تذكره. قال لها ليس المهم ماذا كان يلبس، بل شكله ذاك الغريب الذي لا يشبهه إنسان آخر، كان كثير الشعر كأنه عنزة، واستطرد في وصفه. قالت:

ـ «أيوه، أيوه.»

تنفست بعمق كأنها تطرد خاطراً مضجراً، وقالت، إنها تذكرته، إنه رجل من «الحتة»، أي يسكن قريباً من بيت أهلها. غالب خيبة أمله وقال لها إنه يذكره بذلك الرجل الضخم، العابس، العنيف، الذي كان يظهر في أفلام شارلي شابلن القديمة، هل تذكره؟ عابس وسمين؟ يبدأ في ممارسة العنف على نحو يقبض القلب، ولكن الرجل الصغير، شارلي، يتسلل من بين قدميه، يزوغ من ضرباته، ويهزمه في النهاية، دائماً يهزمه. لم تجد ما تقوله رداً على ذلك. هزت رأسها، وقالت:

ـ «أيوه، أيوه.»

ومنذ تلك اللحظة أخذ الرجل يشحب في ذاكرته. (لمست الذكرى وتراً حساساً في داخله: يندهش ويحب أشياء كثيرة، وعندما يجد الآخرين يعتبرون ذلك شيئاً عادياً، تموت في داخله الدهشة خوفاً من أن يكون مختلفاً عن الآخرين..). يتقلب في السرير وهو يقول لنفسه: علينا ألا نبدأ بذلك، بمحاسبة الذات..

ذلك الرجل القاتم شحب وشحب في ذاكرته حتى اندثر. ولكنه الآن يستعيده طازجاً كأنه يقف أمامه.

بعد يومين من ذلك الموقف مع الطفلة لقيها مرة أخرى. كان عائداً إلى البيت في ساعة متأخرة من الليل، والجو بارد، ممطر، موحل. كانت عودة تبهظه بإحساس ثقيل بقدرة الزمن على الهدم الدائب: ها هو يوم آخر يمضي، مقتطعاً من العمر المحسوب دون أن يحدث شيء، ها هو فشل آخر وانطفاء لحلم الصباح الطازج المتفائل بأن هذا اليوم سوف يكون مختلفاً.

دخل من باب العمارة فرأى المصعد في الدور الأرضي مضاء من الداخل. كان ذلك يعني أن شخصاً بداخله. من المستطيل الزجاجي الذي بباب المصعد رأى جزءاً مستطيلاً من روب نسائي ويداً جميلة ـ تلك الأيدي الأفريقية الجميلة ـ تمسك بالروب وتضمه من فتحته. يقين صلب أنبأه أنها هي التي تقف بالداخل، يقين تركه خائر القوى، يختنق بضربات قلبه المتعالية. وهو يقول لنفسه: «إحزم أمرك وأقدم الآن، الآن، وإلا فسوف تضيع منك الفرصة إلى الأبد». ولكنه كان يدرك عجزه ورعدته في ساعة الحسم. فتح الباب وولج المصعد وواجهها. تظاهر أنه فوجئ، كان قد فوجئ فعلاً وكاد يعتذر، بل هم أن يغادر المصعد. بصوت أخشنه التوتر قال:

ـ «مساء الخير.»

كان ذلك أشبه بسؤال. ردت تحيته همساً. تردد واحتار، وأضافت هي بعينين مسبلتين كأنها تود أن تنهي الموقف أنها تبحث عن البواب ولكنه لا أثر له. كانت تتحدث ببطء، وبيأس أشعره بأن وراء هذا الجرس الهادئ المهموس غضباً مكتوماً تغالبه وقد نجحت بالكاد.

كانت ترتدي بيجامة كستور، وفوقها روب من القماش نفسه يصل إلى ركبتيها، أرضيته بيضاء ناصعة، مطبوع عليها زهور زرقاء صغيرة. قال لها إنه قادم من الخارج ولم ير البواب أو مساعده. كان يتملى وجهها، مستغلاً إسبال عينيها. باغتته بنظرة مستطلعة فارتبك. قال، هل يستطيع مساعدتها؟ شكرته وقالت إنها سوف تنتظر قليلاً فلا بد للبواب أن يعود في النهاية. فكر أن يلح، ولكنه شعر بالخطر الكامن في خلفية ذلك الصوت الهادئ، الناعم، البطيء فعدل. مرت لحظة صمت، وبدا أن ليس عنده ما يقوله، فضغطت على الزرار الموصل إلى الدور الذي يسكن فيه (كيف عرفت أين يسكن؟) خلال صعودهما أحنت رأسها وبدا ذلك متعمداً لتقطع كل محاولة من جانبه لمواصلة الحديث.

أخذ يتأمل عنقها الجميل. كان أمامه، ممنوحاً، قريباً، معداً للمس، للتقبيل. توقف المصعد وكان عليه أن يغادره، ولكنه تلكأ، وتهيأ أن يكرر استعداده لمعاونتها. وقبل أن يحزم أمره، نظرت إليه ـ هل كان هنالك شبح ابتسامة؟ ـ وقالت إنها آسفة لما حدث منذ يومين. تنظر إليه بعينين هاربتين. قال: الطفلة؟ فأطلقت ضحكة كان واضحاً أنها أفلتت منها دون أن تستطيع التحكم فيها. قال لها إنها طفلة لطيفة

وضحك. سألها : هل هي ابنتها؟ كان يعلم أنها ليست ابنتها. قالت له إنها ابنة أختها، وإنها تسبب إحراجاً دائماً لأمها. قال لها إنها طفلة «شقية وظريفة»، فقالت إن الطفلة وحيدة أبويها، قال، آه، ذلك يحدث، ثم أضافت وهو يستعد لمغادرة المصعد :

ـ «أصل أبوها بيدلعها قوي.»

ثم التفت إليها وتكلم بجرس قاطع قائلاً إن الجو شديد البرودة، والساعة متأخرة، ومن المؤكد أن البواب قد أغلق عليه حجرته ونام، فما الذي تريده؟ تعلق بلحظة صمت... ثم انتظر أن تطول فتكون خير رد على تقحمه، غير أنها قالت وهي تلملم أطراف الروب حول العنق إنها لا تريد أن تتعبه. وعندما ألح ـ أحس أنه مطلوب منه أن يلح ـ قالت إن سجايرها قد نفدت وتريد علبة سجاير. أي نوع؟، قالت كليوباترا. مد يده فمدت له النقود دون أن تنظر إليه. لقد هنأ نفسه فيما بعد على الخطوة التالية : أخرج علبة سجايره ـ كانت كليوباترا أيضاً ـ وقدمها إليها. ترددت، اندهشت، ابتسمت، ثم رفضت وفي النهاية تناولت سيجارة واحتفظت بها في يدها. ثم أغلقت باب المصعد وأنزلته إلى الدور الأرضي. غادر المصعد، وقال لها إن ذلك لن يستغرق إلا ثواني. ثم ارتكب خطأه القاتل ـ لم يكن قاتلاً إلى الحد الذي تصوره ـ وذلك عندما رفعت سبابتها وشخصت عيناها إلى أعلى وقالت :

ـ «دور عشرة، شقة...»

وقبل أن تتم عبارتها، قال :

ـ «عارف شقة ستة وثلاثين.»

غضبت؟ ربما، أو قد يكون ذلك وهماً.

في الخارج الهواء البارد أعاد إليه توازنه. اكتشف أنه قد عرق في داخل المصعد. رغب أن يطيل البحث عن السجاير حتى يجد الوقت الكافي للتأمل وفهم الموقف. ولكن ماذا يفعل والدكان الذي يبيع السجاير على بعد خطوات! (يسائل نفسه الآن : ما الذي جعله يلتزم بذلك الدكان ولا يبعد عنه؟ لماذا لم يذهب إلى المقهى القريب ويشرب فنجاناً من القهوة، ثم يعود؟)

عندما رجع انتظر أن يجدها في داخل المصعد ولكنها لم تكن هناك.

لوحة الأرقام تشير إلى الدور الذي تسكنه. ضغط الزرار فلم يهبط، فأخذ يصعد السلم على قدميه. في الدور الرابع رأى المصعد هابطاً. فواصل صعوده، وجذبه في

الدور السادس.

***

أخذ يستعيد التفاصيل الدقيقة لذلك اللقاء. هبط من المصعد في الدور الثامن (لماذا؟ لأن العالم كله يراقبه وسوف يمنعه). حاول أن يهدئ من سرعته وهو يصعد السلم حتى لا يصل إلى شقتها مبهور الأنفاس، ولكن المتعة المنتظرة في التوقف أمام بابها ثواني قليلة وتبادل عبارات الشكر (كأنه لو تأخر دقيقة واحدة فلن يراها أبداً) والخوف من أن يرى، كل ذلك دفعه إلى القفز السريع وإلى أن يصل إلى باب شقتها لاهثاً، مختنقاً بمشاعر يصعب تحديدها.

كان استرجاع تلك التفاصيل الدقيقة لذلك اللقاء له متعة المداعبات التي تسبق الممارسة الجنسية ـ هذه المداعبات عندما تكون أمتع لحظات العملية الجنسية. إنه يصغي إلى صوت المطر في الخارج وانعدام الحياة ويعاني عذاب الشوق إلى عزة، أن يراها مرة أخرى، فيصبح تذكره هو التمهيد للانتصار على ذلك كله.. كله، بما فيه عامل الزمن.

***

توقف أمام بابها ليستعيد تنفسه الطبيعي، لم يطق. مد يده ليدق الجرس، ولكنه فوجئ بالباب ينفتح على الفور ويده ما تزال معلقة. مد يده بعلبة السجاير والنقود ـ اشترى لها من نقوده وعزم أن يبرر ذلك بأن البقال لم يكن عنده فكة. لم تمد يدها ولكنها أوسعت فتحة الباب فرأى نفسه مسوقاً إلى الدخول. أجلسته وعندما رأت أن الجنيه لم يفك أسرعت وعادت إليه بثمن العلبة. كانت قاطعة في إعادة النقود إليه.

انصرفت تعد القهوة. الساعة تشير إلى الواحدة بعد منتصف الليل. أقنع نفسه أنه يسمع صوت ساعات المدينة كلها يدق الواحدة. للشقة فخامة الفنادق القديمة، بهرجة حجرات وكلاء الوزارات. كانت مكاناً يبعدك عن العالم، يكتنفك كالبيوت المسورة في دمشق وبغداد، كانت حلم يقظة صبي ريفي في بيت فخم. الستائر كثيرة وثقيلة. أحب ذلك.

تعود، رائحة القهوة تسبقها، يتسلل إليه إيقاع المهباش: بدت المرأة له في غبش الضوء الأحمر غير المباشر تسير بذلك الإيقاع، حركة ردفيها المتموجة، الموقعة جعل لمشيتها طلاقة الرقص. يغص بالكلام ويدرك في الوقت ذاته استحالة توصيل تلك

اللوعة. انحنت نحوه تقدم إليه القهوة فتاه في ذلك القرب الحميم.

كان معداً لحبها منذ أن رآها تضحك تلك الضحكة الطلقة، الصافية عندما قدم للطفلة قطعة الشيكولاته. لم تكن مرحة بشكل خاص، كما كان ينتظر ويحب. جلست أمامه رزينة، تشرب فنجان القهوة بتلك الرقة التي انتهى زمانها عندما دخلنا في مرحلة اليونيسكس. وعندما تكلمت كان الحزن بضاعتها، أو ربما تصورت أن ذلك خير وسيلة تقدم بها نفسها. ومن خلال حديثها اكتشف أنها قد وضعته في إطار فئة الراضين بالمواضعات، وربما تكون أحبته لهذا السبب بالذات. وراحت ترسم لنفسها صورة المرأة الضعيفة في مجتمع القساة المتهجمين التي هي بحاجة إلى الحماية ـ حمايته هو. كان ذلك مخيباً على نحو ما، فلقد أحب قوتها.

في تلك الليلة انصرف من بيتها مباشرة إلى عمله. صنعت له إفطاراً خفيفاً، أكلت معه على طرابيزة المطبخ، ثم غادرها في الثامنة. حاول أن ينصرف عدة مرات: بعد أن انتهى من شرب القهوة، بعد أن تعشى، عند فترات الصمت التي لم يكن يعرف كيف يملؤها، ولكنها كانت تبقيه. ثم أصبحت محاولاته بعد ذلك مجرد اختبار لرغبتها في بقائه. يتحفز للقيام قائلاً إن الوقت أصبح متأخراً، فتقول:

ـ «نعسان؟»

ـ «لا، بس . . .»

ـ «لا، بجد لو كنت نعسان، خش نام جوه.»

وتتحفز للنهوض قائلة:

«حاطلع لك البيجاما . . .»

فيوضح لها أنه يريد أن ينصرف لأجلها هي. فتقول:

ـ «بس أنا مش نعسانة.»

وقبل أن ينصرف إلى عمله، ووجهها ما يزال مشرقاً ـ كيف يتأتى لهن ذلك؟ ـ قالت بحماسة حقيقية:

ـ «أنا سعيدة، سعيدة بشكل . . !»

فكر أن ذلك لا مبرر له، فهو ليس ممتعاً للغاية. قال لها إنه هو أيضاً سعيد. أحس أنه أهانها برده البارد فاقترب منها وقبل وجنتها فتضرج وجهها على الفور وأخذت عيناها ترمشان. كانت قبلته الأولى، قالت:

ـ «لازم أشوفك كتير، كتير قوى!»

رجعت خطوة إلى الخلف ومدت يدها. كانت حركة بارعة، فالقبلة كانت تحرضه أن يستمر حتى النهاية. أمسك بيدها متلعثماً فقالت وهي تنهي مصافحته :

ـ «تأخرت على شغلك؟»

قال :

ـ «طبعاً، طبعاً.»

واتجه إلى الباب. لحقت به، وفتحت الباب. قالت :

«الليلة.. تعال الليلة إذا كنت فاضي!»

نظر إليها. قالت :

«حانزل لك!»

شق صغير من بابها كانت تراقبه منه وهو يهبط السلم، متلفتاً.

قالت عزة إن هذه السيدة قد فعلت ذلك حسب خطة محكمة.

قال لها إن ذلك غير صحيح ـ كيف يكون صحيحاً؟ ـ فلم يكن من المتصور أنها تعلم في أي ساعة من الليل سوف يجيء فتقف في المصعد بانتظاره. هو نفسه لا يحدد ساعة لعودته. قالت إن ما تعنيه هو أن هذه السيدة قد وضعت الخطة وانتظرت الفرصة المناسبة لتنفيذها، وإلا فما معنى أن تصعد إلى شقتها وتنتظره هناك وهي تعلم أن البقال لا يبعد عن العمارة إلا خطوات قليلة، كما أنها كانت تعرف أين يسكن. قال لها إن ذلك مستحيل، يعني لا يستطيع أن يجزم بذلك، وهي على كل حال لم تسرق قميصه، لم تكن تريد منه شيئاً على الإطلاق.

وكان صادقاً.

ترددت عزة قليلاً. كان وجهها محتقناً. قالت إنه يسيء فهمها، دائماً يسيء فهمها. ثم أوضحت أنها تحاول أن تفسر ما حدث لا أن تدين. كان يعلم أنه لو مضى خطوة أخرى في الدفاع عن تلك المرأة فسوف تفقد عزة أعصابها. فقال لها إنه يعلم أنها تفسر، لا تدين وهو يحاول أن يشاركها في التفسير. قالت :

ـ «طيب، طيب، مش مهم.»

ثم أضافت قائلة، وبالمناسبة، هل اقترحت هذه السيدة أن يتزوجها؟ قال لها إن ذلك لم يحدث قط، بل حدث عكسه. كانت تقول إنها قررت أن تمتنع عن الزواج بعد أن جربته، وأنها قالت له مرة إنها رأت راهبة تسير في الشارع فقالت لنفسها «سوف أعيش مثلها حتى أموت ـ بلا زواج.»

قالت عزة إن الراهبة لا تمتنع عن الزواج فقط، ولكنها تمتنع أيضاً عن أشياء أخرى. كان وجه عزة غاضباً. قالت:

ـ «ما قلتلهاش كده؟»

يتذكر الرعب الذي ارتسم على وجه تلك المرأة عندما قال لها إنه يرغب في تدخين الحشيش. لقد كانت مهمومة بالفعل، ويدرك أنّ امرأة ناضجة، عاقلة أحبته فيفتقدها.

قالت عزّة، هل طلبت منه هذه المرأة أن يشترك معها في أعمالها؟ قال لها إنه قال لها ألف مرة إنها لم تفعل ذلك قط. بل إنه يستطيع إن يقول أن هذه السيدة كانت تحاول أن تبتعد عن تلك الأعمال. استثيرت عزة إلى أقصى حد:

«إزاي، إزاي، مش فاهمة.. يعني ما قلتش..»

اقتربت تلك المرأة من المومس الفاضلة التائبة فأصبحت لا تقاوم بالنسبة لعزة. قال لها إنه لا يوجد شيء محدد ولكنه أحس ذلك. انفرج وجهها وقالت:

ـ «إحساس؟.. أيوه، أيوه.»

صمتت عزة تفكر. رغب أن يطلب إليها أن تتوقف لأن هذا الموضوع يجعلها متوترة وعلى استعداد للنقار والشجار. قالت بعد قليل إن كل شيء يبدو الآن في ضوء جديد. وصمتت، مستفزة، مستثارة وهي تهمهم:

ـ «أيوه، أيوه..»

قالت له عزة بعد قليل ماذا يكون شعوره لو علم أنها على علاقة ببلطجي أو تاجر حشيش. فكر أنها تحاول أن تثير شجاراً. قال لها إنه إذا تم ذلك فلن يستطيع منعه. غيرت لهجتها وقالت بجدية:

ـ «بجد، بجد، عايزه أتعرف على سايح..»

ثم أضافت أنها تريد أن تسهر في الأوبرج وترى أنماطاً غريبة من الناس. لن يكون

سائحاً واحداً، بل سائحين متعددين. فقد يكون الواحد استثناء. ثم صمتت وأخذت تنظر إليه بدهشة، قالت :

ـ «بص في المراية . . »

ـ «ليه؟»

فقالت له إن الدم قد هرب من وجهه. حاول أن يبتسم ولكن تصور ذلك كان مؤلماً للغاية. قالت :

«هية دي مساواة المرأة بالرجل، مش كده؟ إشمعنى عزة بتاعتك يعني . »

قال :

ـ «إنت غبية ! »

نهضت وقبلته. قالت :

ـ «كنت بهزر . »

ومرة تشاجر مع عزة فانصرفت غاضبة. قالت له إنها لا تصلح له، وهو لا يصلح لها، لقد كانت تعرف ذلك دائماً. إن تاجرة الحشيش على مقاسه تماماً.

جرحه ذلك، فهو ما يزال يحمل تقديراً حقيقياً لتلك المرأة. هو وحده يعلم كم بذلت من جهد، ولا ينسى أبداً ذلك المشهد الأخير بينهما الذي لن يبوح به لأحد.

اعتذرت له عزة فيما بعد، وكانت صادقة في اعتذارها. قالت إنها لا تعرف ما الذي جعلها تقول شيئاً كهذا. إنها عصبية ـ كأنه لا يعرف ذلك ـ وتقول أحياناً أشياء دون أن تفكر فيها. وكررت أنها تحترم قوة تلك المرأة وصلابتها، وأنها ترغب حقاً أن تكون تلك المرأة صديقة لها، أن تجلسا سوياً وتتحدثا كامرأتين.

***

يتذكر ذلك المشهد. كانت بدايته كوميدية. ذلك الرجل الكثيف الشعر قاتماً، عنيفاً، يخرج من المصعد، بينما هو ينوي دخوله. نظر إليه الرجل بشراسة، فحاول أن يتفاداه، ولكنهما رقصا متقابلين : يبعد عن طريقه إلى جهة اليمين فيجده أمامه، ثم يتحرك إلى جهة اليسار فيجده أمامه، ثم اليمين والرجل أمامه وإلى الشمال وهكذا، والرجل خلال ذلك يزداد شراسة. ثم توقف فأسرع الرجل بساقيه القصيرتين عبر

الفسحة يغادر العمارة مسرعاً وهو يتمتم شيئاً. لا بد أنه يشتمه. يضحك وهو في داخل المصعد، ويغرق في الضحك. يتوقف فجأة عن الضحك، لقد تذكر شيئاً، في وجه الرجل جرح - في جبهته على وجه التحديد. يتولاه ذعر ويفكر : حدث شيء. ينسى كل التحفظات، يضغط على الزرار الموصل إلى الدور الذي تسكن فيه.

(لماذا لا أفكر إلاّ في النساء؟ بيورتاني من Pure ربما، لوثر - مارتن أتاه صوت الرب وهو في . . .) دق الجرس، دقه طويلاً ولم يتلق إجابة، سمع حركة في الداخل، قال :

- «افتحي، أنا . . .»

أضاءت العين السحرية (ينفتح باب المصعد، يخرج منه الرجل القاتم . . هاي . . يضربه بركبته في أسفل البطن، ينحني القاتم، قاتم grim فيدفع ركبته في وجهه . . .) العين السحرية أضاءت (هاي، يصوب ركبته إلى أسفل البطن : انت بواب انت . . .) صوتها من خلف الباب في شبه صراخ :

- «أنا عيانة . .»

- «أجيب لك دكتور؟»

- «لا، لا، روح دلوقتي!»

(أنا يقال لي هذا؟)

- «فيه الراجل . . .»

تزعق :

- «روح دلوقتي . .»

- «دقيقة .»

- «روح دلوقتي .»

- «حاوقف لغاية الصبح، بكره الصبح .»

كان في يدها سكين، عينها سوداء متورمة، يحاول أن يدخل، تزعق :

- «مش عايزة أشوف حد .»

تغلق الباب. يسمع نحيبها.

ـ «أجيب لك دكتور؟»

ألم أجد شيئاً آخر أقوله غير هذه العبارة! يهبط السلم.

في الليل لم تدق بابه. صعد إليها. في شقتها ضجيج أناس كثيرين.

٤

النحيب وصرير الأسنان

نهض واتكأ على كوعه، ومد يده وتناول كباية الشاي. وضعها على فمه. كانت فارغة، ليس فيها سوى رائحة الروم. وماذا يفعل الآن؟ أعاد الكباية وهبط في السرير. ذراعاه تؤلمانه لكثرة ما اعتمد عليهما نهوضاً وعودة إلى السرير وبحثاً عن الشاي والسجاير، وجذب الغطاء فوقه. وماذا الآن؟ يصنع شاياً؟ إن مجرد التفكير في ذلك يقلب معدته ويثير الغثيان. ماذا إذن؟ قرر أن ينام.

(على ألا أفكر في النساء. عيب). يضحك ضحكة خافتة. ومدد جسده على السرير، ململماً الغطاء حوله، محكماً أطرافه. عند ذاك اشتاق لعزة. كان افتقادها شبيها بافتقاد امتداد جسده، أشبه بكونه يرغب في التمطي والتثاؤب فيجد أن المكان لا يتسع لذلك.

كان ذلك أشبه بالاختناق!

تنتظم أنفاسه ويسترخي - يود أن يقنع شخصاً يراقبه أنه نائم. يستطيع أن يتقن ذلك. فنجان قهوة وسيجارة مطلبي، بل مطلباي. يتوه في شبه غفوة. للقهوة ست فوائد، الغول والعنقاء والخل الوفي واللبن والخل والزيت والليل والأكاذيب، هذا يعني أنني سوف استغرق في النوم... تجتاحه يقظة مفاجئة - صرخة: من المستحيل الاستمرار هكذا، المضي في هذا، تغليف هذا الجسد المتوفز، المستفز، الذي أضجره حتى الانهاك محاولة استجلاب النوم ومحاصرته باللحاف. لا بد أن يحدث شيء، لا بد أن يحدث شيء، لا بد أن يحدث شيء.. ويترقب المحال: أن يدور المفتاح بالباب، وتنبثق منه عزة: الطلعة الشامخة، عمود الضياء المعطر، بتحولاتها المباغتة، عزة تبعث الدفء في هذا الخواء البارد، الراكد الهواء، عزة بتجلياتها: الوقار المستفز، المرح الجنوني، التوهج الطفولي الذي يحيلها إلى دوامة من الحركة والتساؤلات والصخب، فلتجيء لتجعل للحياة معنى... ويحس في تلك الهجعة المكروبة،

الخانقة، الآسنة، في ذلك النوم ـ الموات الشتائي أن ليس للزمن إلا معنى وحيد، الاقتراب حثيثاً، دون توقف من الموت، السير الدائب نحوه كأنه هو هدف الوجود، ولا هدف غيره.

يكن، تاركاً جسده يمتص هذا الرعب الأصم.

يمتد مشدوداً كما يجب أن يكون السهم وهو يستعد للانطلاق. والزمن يقضم الحياة بإلحاح ودأب حتى يأتي عليها. «إني اختنق» ثم تبين أنه كان يمسك تنفسه. ابتسم في داخله، فغشته راحة.

ـ «عزة»...

ينشق عنها الباب.. «عزة»...

تراءت له مشمسة، ممشوقة، تمسك كتاباً بيدها وتعبر، يرى منظرها الجانبي.. تلك عزة؟! لا تسمعه كأنه يشاهدها على شاشة سينما في فيلم لانجمار برجمان... أين كان ذلك، متى؟ هناك شباك ومشربية ووشى عربي دقيق مرسوم على زجاج.. أين؟ الزجاج المعشق في جامع ماذا...؟ لا معنى لهذا التذكر.. تنحني فوقه، شعرها ينساب ناعماً، يتدافع ببطء، مؤطراً وجهها، ثم ينفلت، وجهها يقترب، يحس لفح أنفاسها على عينيه ـ يمنع نفسه من الضحك وشعرها يداعب وجهه ـ عطر جسدها ينفذ إليه، تهمس:

ـ «نايم؟»

يسمع الخطوات المبهمة، ثم همسة المفتاح بالباب ـ صوت يستطيع تمييزه رغم غموضه ومشابهته لآلاف الأصوات ـ ثم وقع خطواتها وهي تجتاز الصالة، ثم تدخل وتنحني فوقه وتهمس:

ـ «نايم؟»

تلمس خده بشفتيها.

يستعيد حس جسدها: الكتفان المدوران، مؤخرة عنقها في يده، وفمه يداعب نحرها النابض، يحسها لصقه. كاد أن يوجدها. ثم ينكسر الحلم على شكل إحساسه بحدود جسده: مومياء محاطة بلفائف... كان ذلك مبهظاً، ثقيلاً كيد توضع على فمك وأنفك وأنت تتهيأ لتأخذ نفساً عميقاً. يحاول أن يستعيدها مرة من خلال تركيز

حلم يقظته، ولكن الحلم يصبح مجرد عبارات تنبت وتموت، تنبت وتموت.

يهبط من السرير قفزاً. ارتدى البالطو وأخذ يسير في الشقة. البالطو في الشقة، كان ذلك يضحك عزة. لماذا لا يشعل الدفاية الكهربائية؟ تقول عزة إن الدفاية تلسع ولا تدفئ.

خط سيره يبدأ من باب الشقة وينتهي بدولاب المطبخ. تثقل عليه الأطباق الموضوعة فوق طرابيزة الطعام فيها بقايا طبيخ. يتوقف أمامها ؛ قطع مهشمة من البطاطس، حمراء بالصلصة في الطبق، وحبات رز متناثرة ثابتة في الطبق، لها رسوخ النتوءات الصخرية. طبق آخر ثبتت فيه بعض قطع الطماطم ومزيج الماء بالزيت، وقطع جرجير لها رائحة نافذة، ثلاثة أطباق أخرى فوق بعضها، قطع خبز وبطاطس وسائل أسود على سطح الطرابيزة. ينتزع نفسه من هذا العذاب ويواصل التمشية. فلنر حوض المطبخ، لمجرد الحصر. كبايات فيها بقايا شاي، وقطرات ماء عالقة بها، فناجين قهوة فيها بقايا تفل أسود، سكاكين ملوثة بالمربى والزبدة... يكفي، يكفي... يتسرب إليه الضجر سريعاً، يواصل التمشية.. وهذا السير الذي لا جدوى منه ولن يؤدي إلى شيء، ولكنه يواصل من باب الشقة إلى دولاب المطبخ، من دولاب المطبخ إلى باب الشقة، الخيار الآخر هو عذاب السرير.. خطوات على السلم، يصعد أمامه البواب العجوز بعينيه العجوزتين ولثته السوداء في فم خال من الأسنان «لو تسمح يا عم عبده تلت بيضات و...» تشكل فمه بالكلمات. يتجه إلى الباب «كل البوابين يحملون اسم عبده وكلهم عم». أصبحت الخطوات مشكوكاً فيها «يا عم عبده» يفتح الباب. تيار الهواء يندفع لولبياً، يتخلل ملابسه فيرتعش ويئن، يقول : «برد»، يقول ذلك من أجل عم عبده. لم يكن البواب هنالك، لا أحد هنالك، لا أحد يهبط السلم. السلم خال، نظيف، أبيض، غارق في ضوء رمادي. يبدو التفافه الحاد إلى الدور الأعلى متحدياً. يعريه البرد ولكنه يقف : «فليهبط أحد، فليصعد أحد، فليفتح باب شقة...» لا يستجيب السلم. يظل هناك أبيض، نظيفاً، جزءاً ثابتاً من الأبدية، مستغرقاً في إحدى دورات المادة اللانهائية، صلباً، مصمتاً.. لا يستجيب السلم، وفي داخله لهفة للأقدام تجتاح السلم صاعدة، هابطة، مثرثرة، صامتة، مطرقعة.. لا أحد.

يغلق الباب ويواصل التمشية.

أنفه بارد وقدماه متثلجتان. يخطر له أن يلبس جواربه (ماذا سوف تقول عزة عندما تراني مثل الكرنبة؟) يستمر محافظاً على خط سيره بصرامة : من باب الشقة، عبر الصالة، ثم الممر الضيق، المظلم، الذي يفصل حجرة النوم عن الحمام، ثم يدلف من باب المطبخ إلى أن يصل إلى الدولاب، فيستدير لامساً طرفه بالبالطو ويعود من الطريق نفسه. كان ذلك أشبه بطقس لا بد منه. يقرر وهو يسير أن يغسل الأطباق والكبايات. قال لنفسه إن ذلك سوف يجعل الشقة مكاناً شبه إنساني. استهوته الفكرة بفتنة لا تقاوم، سيطر عليه إغواء تلك العملية الأنثوية، عندما يتحول الطبق المتسخ الكابي بعد جهد مركز إلى قطعة من الصيني النظيف، اللامع، وينكشف له سطح آخر، وعمق جديد. يتسرّب في عروقه دبيب الخلق فرحاً وخصوبة، محملاً باستثارات جسدية. يحس أنه بهذا يصبح قريباً من عزة، تلك القرابة الحميمة التي تجمع بين اثنين يمتلكان بصيرة بجوهر الأشياء. بذا يصبح الاثنان واحداً. أخذ يراقب حركة جسده، كأنها حركة جسد آخر ملتصق به. كان في ذلك متعة خاصة وإغواء يصعب تحديده، كأنما عزة في داخله. يركز على ذلك الإحساس ويحاول أن يضعه في كلمات فيراوغه ويتحفز ـ ذلك الاحساس ـ لمفارقة جسده، فيندفع إلى الحركة الجسدية كوسيلة للاحتفاظ به.

خلع البالطو وتناول ملعقة مستعملة وأخذ يكحت بقايا الطعام من الأطباق ويضعها في طبق واحد، ثم وضع الأطباق بعضها فوق بعض. فتح شباك الصالة المطل على المنور وحمل الصينية إليه وألقى بالماء وبقايا الجرجير المتحلل، وفعل الشيء نفسه بالطبق الذي جمع فيه بقايا الطعام المتحجرة. ثم يحمل الأطباق والصينية إلى المطبخ ـ وهو يسير نحو المطبخ قال لنفسه «هكذا تسير عزة» وحاول أن يقلد مشيتها. كانا يجلسان في كافتيريا كلية الآداب بجامعة القاهرة. شمس الشتاء لاسعة فوق وجهه، وحولهما تلك الحركة التي لا تهمد. ينحني نحو عزة ويقدم لها زجاجة الكوكاكولا :

ـ «جربي الشمبانيا دي!»

يضيء المطبخ. يقدم لها زجاجة الكوكا كولا : «جربي الشمبانيا دي.» تبتل قدماه وتنزلقان انزلاقاً خفيفاً. يتخفف من حمله ويتأمل أرضية المطبخ. لقد نفذ ماء المطر من عقب باب المطبخ المطل على سلم الخدم. يغالب يأساً وضجراً دهماه ويقول لنفسه «هنالك عمل إضافي». يبحث عن الخيشة التي تمسح بها الخادمة البلاط «هذه

الخادمة لا تضع الأشياء في أماكن يمكن أن ترى. لعبة استغماية» يجدها. يدور بها في أرضية المطبخ وعندما يثقلها الماء يعصرها في الحوض «لقد لوثت الكبايات بماء المسح»، يفكر بغيظ. يمسح ويمسح ولا يبدو أن الماء المتسرب قد قل. يقبل على ذلك بعصبية، ويعصر الممسحة مرة أخرى في الحوض، ثم يثبتها تحت باب المطبخ. يضع ممسحة أخرى خلفها «خط الدفاع الثاني»، لم يكن يقصد النكتة، بل مرت هذه العبارة في ذهنه واستقبلها بجدية كاملة.

يقف. يداه ملوثتان بلا رجاء، وقدماه، هل عليه أن يغسل قدميه أيضاً؟ يشهد الأطباق المكومة، والكبايات والفناجين والملاعق وغيرها... فيتولاه ضجر ثقيل، ثقيل كالموت. لو بدأ فلن ينتهي قبل سنة كاملة «هؤلاء المتزوجون الذين لا يكفون عن الشكوى من ملل الحياة الزوجية فليجربوا مباهج العزوبية يوماً واحداً كهذا اليوم.»

بدا له أن ذلك سوف يستمر إلى الأبد. يدخل الحمام «جربي الشمبانيا دي!» هنا كارثة حقيقية. زجاجة الكوكاكولا مثلجة مبلولة في يده «تفضلي..» على جدار الحمام على يساره وهو داخل قد نشع ماء المطر راسماً دائرة كبيرة، لونها اصفر خفيف، وفي أماكن مختلفة منها قطرات ماء براقة، ثابتة محدبة.

يفتح الحنفية ويفرك يديه بالصابونة، ثم يجففها. يحس بهما داخل الفوطة كبيرتين مخدرتين.

يرتدي البالطو ويواصل التمشية:

- «جربي الشمبانيا دي!»

تمسك عزة بزجاجة الكوكاكولا دون أن تبتسم. ثم قالت... تبين له أنه لا يستطيع التذكر بوضوح وهو يمشي. يستحضر الكلمات وتغيب الصورة. ولكن عليه أن يتذكر وأن يحول الذكرى إلى حلم يقظة وإلا فإن الاستمرار في السير يصبح مرهقاً، مملاً.

يحني رأسه لها:

«تقابلنا فين قبل كده؟»

يحني رأسه «سيادتك»، لو كنت قد اشتريت تلك الدفاية التي تشتعل بالكيروسين، وفرشت الأرض العارية بالسجاد الرخيص، ولكن ذلك يحتاج إلى

أمرأة، زوجة؟ لتمنع تسرب المياه «فين تقابلنا قبل كده؟» عيناها تقلصتا بالتوتر «ماذا لو رآني أحد أكلم نفسي؟» حلم اليقظة يكون في السرير واللحاف يخفيه كله، وتقفز أمام عينيه صورة الوجه وراء شباك أكسلسيور. الرأس مستطيل كأنه أسطوانة وضعت فوق العنق ـ كأنه مجرد امتداد للعنق ـ ووجه له لون البن الفاتح، صلابته تشي بملمس خشب السنديان. رآه عندما اجتاز نهاية شارع عدلي ماراً أمام السيارات التي يحتجزها الضوء الأحمر من الاندفاع شمالاً في شارع سليمان باشا. الوجه صارم، متيبس التقاطيع كوجوه الضباط النازيين في الأفلام. عندما يحاذيه يرى العينين: بركتان من الماء العكر، وفمه يتكلم بسرعة. يده اليمنى مرفوعة في الهواء على شكل قبضة متوعدة، تهوي فتخبط سطح الطرابيزة. لا يرى أحداً يجلس أمامه. يدخل المقهى ويجلس على طرابيزة يستطيع أن يواجه فيها الرجل. كان يتحدث بصوت مرتفع ولكن ضجيج المكان لم يتح له سماع كلماته بوضوح. وقفت الجرسونة أمامه، تابعت نظرته وعندما رأت أنها تنتهي عند الرجل الذي يحدث نفسه ابتسمت. طلب منها قهوة اكسبرسو، وعندما رأى أنّ وجهها جميل طلب سندويتشين روز بيف. قالت وهي تبتسم:

ـ «حاجة تانية؟»

أومأ برأسه نحو الرجل وقال لها إنه رجل غريب. قالت إنه يأتي كل يوم ويجلس في المكان نفسه. رمقت الرجل بنظرة جانبية وقالت إنه أحياناً يقف ويواصل كلامه واقفاً. قال لها إنه رجل غريب. فانصرفت ببطء وهي تكتب في دفتر صغير بيدها.

يعود إليه الوجه الآن. بعينيه الجاحظتين الرجراجتين فيفكر:

«الأغلب أن ذلك قد بدأ مع الرجل في يوم مثل هذا اليوم، وربما في شقة كهذه، وفي ظروف... عليّ أن أتوقف عن ذلك..» يتذكر عبارة في أحد الأفلام قالتها فتاة جميلة وهي ترى عجوزاً نائماً في حديقة عامة وقد غطاه قيء السكر: «لقد كان يوماً ما طفلاً جميلاً، له أم وأب يحبانه...» خطر له فجأة: «أنا ذلك الملقى في حديقة عامة؟» ويواصل التمشية «عليّ أن أفكر في عزة فقط.» ينظر إلى أرضية المطبخ. لقد أصبح الماء بقعة وراء الباب وتحت الحوض فقط. يستطيع أن يطمئن الآن أنه لن ينفذ من المطبخ إلى حجرة النوم. يتذكر أنه غسل يديه ولم يغسل قدميه. يتنبه إلى أن الشبشب زلق في قدميه. يدخل حجرة النوم ويخرج منديلاً نظيفاً من الدولاب ويجفف به قدميه. يتسخ المنديل فيلقيه في طرف الحجرة وهو يفكر: «لقد ارتكبت حماقة.»

عاد إلى السرير، عانى في تسوية البطاطين، ثم التف بهما. قدماه كقطعتين من الثلج ألصقتا في نهاية ساقيه. يفرك بهما المرتبة والبطاطين واللحاف. دب فيهما إحساس بالألم، ولكنهما ظلتا باردتين. يشعر برغبة في التبول، ولكنه يعجز عن اتخاذ قرار بالنهوض من السرير، يقول لنفسه إنها رغبة غير حقيقية، إنما هو البرد وحسب، ويزداد التفافاً بالبطاطين. خطوات تصعد السلم، تقف وراء الباب، ثم لا شيء. صوت هين لضغط جسد على الباب، ثم لا شيء. ثم لا شيء، ثم لا شيء، ثم لا شي. «نصفي الأعلى دافئ، والنصف الآخر يزداد برداً.»

ـ «عزة.»

ناداها بهمس مختنق، غاضب، كأنه يستجير.

أحس أن حدة الكآبة التي يعانيها والوحدة والضجر والبرد والرعب من النهاية، كفيلة بإعادة عزة إليه ـ سوف تجيء لمجرد أن ذلك غير معقول، أن يكون، وأن يمضي هكذا بلا نهاية. انتظر أن تلك الرطوبة الثقيلة والعتمة الكابية ونشع الماء في الجدران والماء المتسرب من تحت باب المطبخ والهواء الفاسد المحمل بروائح الطعام والبوتاجاز والبول... أن ذلك كله سوف يبدأ في التكثف والتجدد، وأنه من قلب تلك الظلمة اللزجة سوف تنبعث عزة مشرقة، متوقدة بالحيوية والتوتر، يقظة ودافئة، تسري في القتامة فتمتصها وتذيب وطأتها.. سوف تنهض عزة من قبره هذا منبثة بالشمس في الخارج، والنسيم، والشجر المبتل بالندى، قطراته براقة، مترعة بضوء الفجر... الآن، أكثر من أي شيء، أكثر من الحياة ذاتها، يريدها الآن، في هذه اللحظة يريدها، الآن، الآن... يترقب بأعصاب مشدودة متوقفاً عن التنفس، يترقب يدها على الباب، تبحث عن موضع الجرس، قدماها القلقتان تسحقان حبات الرمل الصغيرة المنثورة في مدخل باب العمارة، يترقب، يترقب، يكاد يختنق بالترقب...

ثم فجأة انطفأ ذلك الترقب المتوتر الملهوف وذاب في السرير، استرخى بحس من يعلم أن عليه أن يتلاءم مع وضع استثنائي، وقرر ألا يفكر في شيء. لم يكن هنالك إلا إحساسه بجسده: بتنفسه، وبملامسة أعضائه للفراش. كان ذلك شبه نوم، نصف موت، استعداداً طويلاً، متأنياً، صابراً للخلاص النهائي... «قد أكون نائماً»..

قالت عزة إنه مجنون إذ يفكر في ذلك وفي مثل هذه الساعة.. ولكنه كان يعلم من هو المجنون في حقيقة الأمر. في السابعة صباحاً كانت مستعدة. هبطت من السرير

مغمضة العينين، تتعثر بالسجادة وتبحث عن الشبشب. اجتاحته الفرحة وهو يرى ذلك الوجه. كانت فرحته رغبة في الضحك. قبل ذلك الوجه. استجابت له وطوقته بذراعيها، ووضعت رأسها على كتفه واستكنت.

قال:

ـ «عايزة تنامي؟»

انتزعت نفسها وابتعدت وهي تهمهم. ولكنها انتهت من ارتداء ملابسها سريعاً. يسيران في الشوارع، في المنطقة التي تفصل شارع النيل عن شارع وزارة الزراعة، وبين شارع التحرير وشارع نوال. كان ذلك شبيهاً بالرجوع إلى عالم الطفولة. لمسات ذهبية في ذؤابات الشجر وقمم المباني. ضوء بلوري يعم الكون، وفوقهما سماء باردة، متماسكة الزرقة، لها ملمس ومذاق. على الأغصان السوداء العارية تنبت أوراق صغيرة، شفافة الخضرة، وزهور بنفسجية وأخرى بيضاء. ولكن الجذوع ما زالت محتفظة بعريها الشتوي، الفظ، الخشن. تتعلق بالأوراق الغضة والزهور الصغيرة قطرات الندى مترعة بالضوء الطازج الخفيف كأنها قطع كريستال صغيرة. البيوت في هذه المنطقة محاطة بأشجار ثقيلة الخضرة. تنفتح ضفة باب مطل على البلكونة، ولا يبدو أحد خلفها. من نهاية الشارع تبدو مجموعة طالبات صغيرات بزي موحد يجتزن الشارع حمراوات، ضاحكات، يعلو لثوان هديلهن المختلط، المدغم، تتخلله ضحكات الصغيرات الحادة. ثم يحط الصمت، فليس هنالك إلا وقع أقدامهما.

يسيران، لا يودان أن ينتهيا، تبدو لهما عبر شوارع متتالية، متوازية لمحات من الكورنيش والنيل والكازينوهات التي تقع على الطرف الآخر للنهر ولكنهما ينحرفان ويبتعدان عن الكورنيش.

تقتحمهما عينا فتاة طويلة بنظرة حادة، شريرة، ساخرة، تتوسط مجموعة من الطالبات كلهن أقصر منها، وتقول وهي تحدق في عينيه بوقاحة:

ـ «يا عيني ع الصبر.»

تضحك عزة وتزيل الضحك بيدها. تنهشه الكلمات ولكنه لا يقول شيئاً. الكلمات بينهما قليلة للغاية. «الشباك المدور اللي هناك»! تهز رأسها. لقد رأته. ويمضيان. تتعلق عيناها بأبراج صغيرة فوق سطح فيلا محاطة بشجر كثيف ثم تنظر

إليه . ذلك يعني أنهما سوف يتحدثان عن ذلك فيما بعد . تتأمل نقوشاً بارزة على واجهة إحدى السفارات . تبطئ عندما تفعل ذلك . يقول لها :

ـ «باين مبنى قديم . »

تهز رأسها ، ثم تواصل السير .

ـ «شفت المنطقة قبل كده؟»

تنظر حولها وتقول :

ـ «مريت كتير من هنا ، بس ما كنتش بشوفها . »

وتلتفت إليه متسائلة . يمسك يدها ، فتكون في يده باردة ، ناعمة . في الثامنة والنصف كانا يسيران على الكورنيش وقد أصبحت تكثر من التعليقات . يتجهان إلى الزمالك ، ويبحثان عن مكان يأكلان فيه ويشربان الشاي . تقول وهي حمراء وذهبية بالفرح والبرد :

ـ «انت مجنون»

وتضحك .

الدفء بدا مستعصياً . يحكم جذب البطاطين حول جسده ، يغطي رأسه حتى تدفئ أنفاسه الفراش . ثم يسأم ذلك كله . ينفض البطاطين وينهض ، فيشعر كأن ماء مثلجاً قد انسكب فوقه فيرتعش وتصطك أسنانه . يمارس بعض التمرينات الرياضية ، يزداد برداً ويتولاه الضجر فيعود إلى السرير .

***

السرير عذاب متصل . يبحث عن وضع لا يؤلمه فيه كتفه ، يجده ، ثم يتسرب الألم إلى كتفه مرة أخرى . ذراعاه مكدودتان لكثرة ما اعتمد عليهما في تقلبه على السرير . يعزم أن ينهض ويصنع فنجاناً من القهوة ، يحاور جسده مصغياً لردود فعله «قهوة بالروم» فيشعر بالغثيان ، ويحس بالقيء يصعد إلى حلقه . يهمد في السرير . يفكر أن كمية العذاب التي . . . «هل هنالك مقياس للألم حتى أقول كمية؟ إن كيفية الألم . . المعنى يتغير . . إن الألم ، كمية بمعنى درجة . . فلأتوقف . أنا ناقص . . . ماذا كنت أقول؟ الكيفية ، هي مجموعة كميات ، التغير الكمي يؤدي إلى . . . سارتر هذا : غليان الماء ليس تغيراً كيفياً فالبخار هو الماء وقد ازدادت سرعة ذرات الماء . . بالطبع

ستالن . . يؤدي إلى تغير كيفي، نوعي . . . بالطبع كل واحد فيه قدر من الجنون، وما يسمى بالجنون فارق كمي . . تحول نوعي، فاهمه معنى كمي؟ تهز رأسها ـ إنها تعرف معنى ذلك ـ أنت مثلاً، يمكن أن نسميك مجنونة إلى حد ما، أكثر من الطبيعي حبتين . . . »

يعاوده ألم كتفه . . أنت مثلاً يمكن أن نسميك . . ينساب من وجهها حس الفكاهة على الفور . ترفع جسدها وتغرس كوعها في الوسادة . لا يبدو أنها استنكرت ما قاله، تعبير وجهها يحمل تساؤلاً وحسب، تقول :

ـ «إزاي يعني، مش فاهمه، يعني مجنونة حبتين ازاي يعني، يعني مش فاهمة؟»

وعيناها ترمشان ترمشان . يقول :

ـ «مثلاً . . »

ويتوقف . تنتظر ثم تقول :

ـ «أيوه؟»

ـ «مثلاً، مثلاً . . مثلاً . . »

ـ «مش لاقي حاجة تقولها؟»

تقول ذلك في رجاء، وتنتظر مترقبة . وعندما لا يجيب تقترب منه وتقول :

ـ «مش كده؟»

لم تكن قد تعودت فظاظة حسه الفكاهي . لذا كانت فكاهته تخيفها قليلاً وتستلب منها تماسكها .

تنتظره بوجه مستعط، يقول :

ـ «لما تتكلمي بالتليفون» يقلد صوتها «عزة، عايزة أشوفك، طيب الساعة عشرة . . وتحطي السماعة . »

ترمش عيناها عدة مرات في محاولة للفهم، تبتعد عنه لتراه بشكل أوضح، ثم تقول :

ـ «طيب . . . طيب . . مفروض أقول إيه؟»

ـ «الأول تقولي صباح الخير وبعدين . . . »

تسترخي وتنزلق في السرير وتجذب اللحاف حولها وقد فقدت الاهتمام. تغمض عينيها وتقول :

- «باين إنت اللي مجنون.»

ثم تتنهد.

يقول لها إنه كان يمزح. تقول إنها تعلم ذلك، وتظل مغمضة العينين لا تضيف شيئاً.

ثم تنبه. إحساس أنبأه أن جرس الباب سوف يدق. قال لنفسه إن إحساسه لن يخطئ أبداً. وترقب متوتراً، لا يفكر في شيء، أصبح هو مجرد ذلك الانتظار.

لا يحدث شيء. فليدق جرس الباب، ولا يحدث شيء.

لماذا لا يدق الجرس؟ لماذا لا يصعد أحد السلم أو يهبط عليه أحد؟ أين ذهب الجميع؟ أين الأصدقاء والجيران والمثقفون والمومسات والقوادون وكتاب الروايات والقصص القصيرة والنقاد والممثلون والممثلات والمخرجون والمخرجات والمذيعون والمذيعات..؟ «هل نمت؟» أين الخدامات يطرقن الباب ليقترضن مشابك الغسيل والأطباق والسكر والشاي، ويعدن بأن يردن ما يأخذن، ثم ينسين ذلك كله؟ أين الخادمات يشكين ظلم الأزواج وعدوان الجارة ويمدحن السائح ويغتبن مالك الشقة والبواب؟ أين ذهب الشيوعيون والناصريون والبعثيون والإخوان المسلمون والقوميون العرب وأعضاء حزب التحرير الإسلامي وأنصار السنة المحمدية وحزب الله والقوميون السوريون والوجوديون والسورياليون والتروتسكيون والماويون وأنصار القطاع العام والقطاع الخاص..؟ كيف ولماذا ومتى هجره الجميع وساروا وخلّفوه وراءهم..؟ يهدد عزة : «سوف أعد كباية قهوة مغلية وأملأ نصفها بالروم، وسوف أشربها على لحم بطني!»

(يغادر السرير ودون أن يلبس البالطو يهبط السلم، يندفع غير مكترث بالبرد، يجتاز الفسحة ويتوقف أمام باب العمارة. يبحث عن البواب فلا يجده. لا يجد أحداً. الحوانيت والمقاهي والصيدلية مغلقة.

ينادي البواب فلا يسمع رداً. ماء أسود، أسمر، يتجمّع أمام باب العمارة. فلأقفز، فلأقفز، والشارع خال وأسود. يعود ويبحث عن مفتاح الشقة. لقد نسيه في

الداخل، يبحث عنه ويبحث فلا يجده. يتولاه الذعر، يدفع باب الشقة بكتفه فلا يستجيب، يدفع ويدفع.. ومحكوم عليه أن يظل ساعات طويلة في الخارج بملابس خفيفة.. سوف أحطم هذا الباب.. أين النجار... الماء الأسود الأسمر.. يعدو..) يتمطى، يحكم شد البطاطين حول جسده. يدق جرس الباب (هل دق فعلاً؟) تدخل عزة طويلة، صامتة، جادة، تلبس بالطو أسود وتقف في وسط الصالة. تقف كتمثال: مصمتة، نحيلة. يقبلها، تمنحه خدها في صمت. تعبر الصالة، متصلبة، وتدخل حجرة المكتب، تراقب فوضى الكتب بحياد «هذا ما كنت أظنه» يقول ذلك الحياد. ينتظر قرارها بقلق. كل شيء يحدث في صمت: لقد انتزع الصوت من العالم. تدير له خدها ليقبله، ثم تدير ظهرها وتواصل قراءة الرواية البوليسية: (جريمة فوق السحاب). في الصمت، عالم الأشياء والناس يصرخ ويصرخ دون صوت. ينهض، يلبس البالطو وينزل للبواب. يلبس البالطو، يلف اللفحة حول عنقه «عايز أربع بيضات وعيش وجبنه وزيتون أسود وطعمية وجبنه وعيش بلدي وثلاث بيضات وزيتون أسود..» يرتدي البالطو والشبشب، يعاكسه الباب، لقد جعلته الرطوبة صعب الانفتاح والانغلاق، يهبط السلم دور ودور ودور، يتحسس جيوبه، يتأكد من وجود المفتاح، يلبس البالطو، ينظر من باب العمارة الزجاجي إلى الخارج: كوكب آخر، خال من الحياة، أوراق الشجر على الرصيف المقابل ترتعش بلا توقف، والعالم رمادي، بلا صوت، يبحث ويبحث: هنا، لاهنا، لا، هنا، أنا متأكد أنه هنا، هنا... لقد نسي المفاتيح في الداخل.

ـ «ما كنتش تطيق أبعد عنك ثانية واحدة.»

تذكره بذلك، تجرحه عبارتها، لا يجد ما يقوله. «ماكنتش تطيق...» تنساب من فوق السرير، إلى المطبخ لتعد الشاي أو لتسخّن الطعام فيشعر أنها غابت وقتاً طويلاً. يناديها: هل أنت مت أو نمت؟ يسمع خطواتها مسرعة: ماذا حدث؟.. تأخرت، إيه الحكاية.. ماذا تصنعين في المطبخ؟ تقترب وتنحني فوقه، يجذبها ويضمها، تنفلت:

ـ «دقيقة واحدة، دقيقة واحدة بالضبط وجايه لك.»

وست ساعات نقاش، لا تعلّق، يعلم أنها تضجر فأنت تقولين أنهم دائماً يكررون الكلام نفسه ـ لأنك لا تسمعينهم فيخيل إليك أنهم يكررون الكلام نفسه. لا

تجيب وتخرج الدخان من أنفها، تجذب نفساً عميقاً من السيجارة وتخرج الدخان من أنفها. فلينهض، ويذهب إلى أي مكان.. ويعيش الوحل والبرد والتاكسيات المسرعة التي ترفض التوقف والأتوبيسات المزدحمة القليلة والعراك، وفي الداخل البرد والرعب من النشالين.. يدق جرس الباب دقة خفيفة، خافتة إلى حد أنها قد تكون وهماً.. الساعة قد جاوزت الثانية بعد منتصف الليل. الصمت. يفتح الباب في حذر، يراها تصعد السلم. سبابتها تشير إلى أعلى، وتواصل الصعود دون أن تنظر إليه. يهبط مسرعاً، يركب المصعد من الدور الأرضي وينتظرها في الدور التالي.

تدخل المصعد، سبابتها على فمها مشيرة بالصمت. يتلقاها ويضمها إليه، فمها لصق فمه، يضحك. بمجرد أن تفتح باب الشقة تضمه إليها وتلقي رأسها على كتفه. لأول مرة تكون هي البادئة، تقوده إلى الكنبة وتجلس، ورأسها على صدره، صامتة.

يمتلئ العالم حوله بالضجيج «سوف أصاب بالجنون إن لم أتوقف، لن أفكر في شيء، يجب ألا أفكر في شيء، في لا شيء، لا شيء على الإطلاق، على الإطلاق..» عزة تقتحم عليه الحجرة مشمسة، مجنونة، صاخبة، تغلي، وتبرق، لها عنف الشوارع والزحام وشمس الصيف «وذلك يعني أن عندي إرادة، قررت ألا أفكر في شيء، فلن أفكر في شيء.. لن أفكر في شيء قد تعني أنني لا أفكر في شيء محدد بالذات، وقد أفكر في أشياء كثيرة دون أن أفكر في شيء، وقد تعني، حاضر، لن أفكر في شيء.. هاكم لغة دقيقة ولهذا فلن...» لم يعد يشعر بشيء أو يفكر في شيء، انصرف بكليته إلى تلك الرغبة الملحة، المؤلمة في التبول. كان هناك إحساس عام بكلية جسده محدداً بالبطاطين. ثم في لا شيء.

ـ «شمبانيا!»

ـ «مفروض أقول إيه؟»

ـ «مش عارف.»

تمسك زجاجة الكوكا كولا وتقول:

ـ «شمبانيا جوني ووكر.»

ـ «جوني ووكر نوع ويسكي.»

تهز كتفيها. يسألها:

ـ «إيه حكاية الجوني ووكر؟»

تقول إنها وقفت أمام إحدى الفترينات فرأت زجاجة عليها صورة رجل يمشي بسرعة، ويلبس قبعة غريبة كالتي يرتديها حرس بكنجهام، مكتوباً عليها جوني ووكر.

ثم نام.

أيقظه الألم الناتج عن الرغبة الشديدة في التبوّل. خيّل إليه أنه لم ينم إلا دقائق معدودة. أسرع إلى الحمام وهو يفكر أن عليه أن يرتدي البلوفر.

في الحمام، وهو يتخفف، فكر أنه لأمر طيب أن يكون ذلك قد انتهى. ولم يكن في ذهنه تحديد واضح لما «قد انتهى». يعود إلى حجرة النوم فيفاجأ بالسرير، كأن ذلك غير متوقع. يرى فيه ما يراه السجين الذي أخرج من زنزانته لبضع دقائق. رأى فيها ضوء الفجر ومآذن المساجد، وانفساح العالم ورحابته، ثم دفع بعد ذلك إلى زنزانته. يقف متردداً. البرد يسوطه إلى السرير ولكن جسده المرهق يأبى ويعاند.

غادر حجرة النوم والبرد يعريه ويغلبه، فرأى نفسه منتصراً، متقحماً، يشق طريقه عبر الأهوال، ولكنه يقف فوقها. أخذ يتجول في الشقة: هكذا يرقصون الباليه، هكذا يلعبون الأكروبات.. ثم دخل المطبخ، وهو يغني «ما اشربش الشاي، أشرب جازوزه أنا»، يشعل البوتاجاز، ويضع البراد فوقه. يتنبه بحس فاجع أنه رغم قراره فكل شيء يبدأ من جديد.

ودّ أن يبكي «لن أعود إلى ذلك السرير حتى لومت.» يغالب إرهاقاً مفاجئاً استولى عليه. يمد يده إلى مفتاح الضوء ويضغط، لا يحدث شيء، يكرر ذلك، ثم يطرأ له «التيار مقطوع.» يدور في الشقة يجرب كل المفاتيح. ولكنه يعلم أن التيار قد انقطع. يعود إلى المطبخ ويقف أمام البراد. يفكر أن ذلك أكثر مما يجب، تعدى كل حد يمكن قبوله. لا عدل في ذلك، لا بد من حد أدنى من المعقولية والذوق. «لن أسمح بذلك...» لم يكن يعلم ضد من يوجه كل تلك الاحتجاجات. يفتش عن موضوع لغضبه ـ في حقيقة الأمر يحاول أن يتذكر ـ فيمسك بالمدفع الرشاش، يوجهه إلى العجلتين الخلفيتين للعربة ويدوس على الزناد، تلتف العربة المسرعة حول نفسها وتتوقف. «ارفعوا أيديكم إلى أعلى، أنت أيضاً..» يطلق رصاصة تمر بينهم «إلى أعلى.» يرتعش غطاء البراد بالغليان، يشغل به ويسكب منه الشاي في الكباية.

«ارفعوا أيديكم.» يحمل كباية الشاي إلى حجرة النوم، يضعها فوق الكومودينو. يبحث عن زجاجة الروم، يجدها، تندفع منها كمية من الروم أكبر مما أراد إلى الكباية. «حصل خير، حصل خير.» ويدخل السرير. يمد يده ويبحث عن الرواية التي كان يقرأها، يجدها، يضعها على الوسادة ويمد يده إلى مفتاح الضوء ويضغط، يفاجأ، ثم يتذكر أن التيار قد انقطع. «حتى هذا.» يطالع الظلام «وهذا غير عادل. أين الذوق؟» وتذكر والغيظ يأكله أنه قال هذا لنفسه منذ قليل. الجرعة الأولى من الشاي أحدثت غثياناً. لقد حدث ذلك من قبل أيضاً. يتلاشى الغثيان ويتسرب أثر الروم المبهج بطيئاً. يفكر أن الكارثة لم تحدث على أي حال. يكاد يضحك. لا، إن هذا الضغط على حلقه وعينيه، هذا الاختناق هو الرغبة في البكاء.

يمد إليها زجاجة الكوكا كولا:

ـ «جربي الشمبانيا دي.»

تمد يدها، مسبلة العينين، تمسك الزجاجة، بأطراف أصابعها وتقول:

ـ «مرسي.»

يغلق باب المصعد ويعمد إلى حجب المستطيل الزجاجي بظهره، ينحني ويقبلها. يرى نفسه وهو يقبلها في مرآة المصعد، تضحك وفمه لصق فمها، يمد زجاجة الكوكا كولا:

ـ «شمبانيا مدام؟»

ـ «مش بشرب الصبح.»

ـ «ليه؟»

ـ «في السينما بيقولوا كده.»

ـ «ما دام بيقولوا كده في السينما فـ.. طبعاً..»

تجتاحه موجة فزع: إنه هو الذي يشرب في الصباح.. يمد يده إلى كباية الشاي ويشرب جرعة كبيرة، وأخرى. تثور معدته. يتنفس بعمق، تتوقف الرغبة في التقيؤ.

يستكن في السرير. لا يفكر في شيء، لا يرغب في شيء. يمد يده ويشرب بقية الشاي المخلوط بالروم كأنه يؤدي واجباً. يعود إلى الاسترخاء بحس من يستسلم في

النهاية. تمر عبر ذهنه أغنية شائعة، يجعل من تنفسه إيقاعاً لها. يكتشف أنه يغنيها فيتوقف.

صمت. موت.

الروم يبعث استرخاء مقترناً بدوار خفيف. للذكريات إيلام المجهود العضلي الشاق فتتوقف منتظرة. يتسرب إليه مرح ورغبة في الضحك. تدخل المستحيلات في مجال الممكنات. تنبعث عزة وتتجسد. يريدها، يريدها الآن، الآن، في هذه اللحظة، لن ينتظر دقيقة أخرى، يجب أن تأتي.. شعر أن مجرد وجود تلك الرغبة المؤلمة، الملتاثة في أن تجيء سوف يجعلها تقتحم عليه المكان.

يكاد يسمعها واقفة بالباب.

٥

جملة اعتراضية

رآها تدخل صالة فندق شبرد. بدت له نحيلة وتعاني من خطأ ما في تكوينها. جلست قريباً من الطرابيزة التي يجلس عليها، وأخرجت مجلة شهرية من شنطتها المصنوعة من الجلد البني الطري واستغرقت في القراءة على الفور. لم ترفع رأسها عن المجلة حتى جاء الأصدقاء الذين تنتظرهم فطوتها وأعادتها إلى شنطتها.

تفحصها ليجد ذلك الخطأ في تكوينها الجسدي. كان لها جسد رشيق يحتفظ باستقامة الجذع رغم إحناءة الرأس وهي تقرأ. فمها واسع، يحمل تعبيراً كأن صاحبته تمنع نفسها طيلة الوقت من الضحك. فكر أنه ربما كان الخطأ في الفم، ففي كل لحظة، تكاد الشفتان تنفرجان. غير أن ذلك الفم لم يكن هو الذي أثار إحساسه بوجود تشوه خلقي ما في تكوينها الجسدي.

جاءه الجرسون بالقهوة والماء المثلج فاستعجل انصرافه بلهفة، وواصل تفحص المرأة. كان نهداها كبيرين، بارزين، دون تناسب مع جسدها النحيل. اقنع نفسه بأن ذلك هو مصدر إحساسه بوجود خطأ ما في تكوينها. ولذا انصرف عنها وأخذ يشرب فنجان قهوته باستمتاع، ويراقب الداخلين والخارجين إلى صالة الفندق الكبير. ولكن اللهفة التي تولدت في داخله انبعثت مرة أخرى. قد يكون الخطأ في الأسنان، قال لنفسه دون أن ينظر إليها. ثم ابتسم عندما حاور نفسه قائلاً: ولكن ما هو المطلوب مني بالضبط؟ أن أمد يدي وأفتح فمها بالقوة؟ وأخذ يشرب قهوته.

ثم فكر: إنني لم أر أسنانها. ربما كان الخطأ ذلك الوهم الذي اعتراه عندما اعتقد في أول الأمر أنها فتاة يعرفها ـ انتظر ابتسامتها وتوجهها إليه عندما دخلت تنظر حولها، تبحث عن شخص ما ـ وعندما تأملها جيداً تبين له خطأه. الأغلب أن ذلك قد تم هكذا: هذه هي عليّه، واستعد لقبولها هكذا، ثم حدث تشوّه ما جعلها فتاة أخرى. المرجح أن ذلك هو مبعث إحساسه. وعلى أي حال فالأمر طال حتى باخ وعليه أن

يتوقف عن هذا.

كان يعاني ليتوقف.

نجح في نسيانها ولكنها ظلت في الخلفية همّاً يثقل عليه ويدفعه إلى مواجهته بصراحة. ثم، وكأن ذلك تم بمجرد المصادفة عاود مطالعتها، فرأى أن شيئاً كالمعجزة قد حدث. لقد أصبحت الفتاة جميلة جمالاً مذهلاً. تهدلت بعض خصلات شعرها واكتسب وجهها تعبير قوة وحيوية كامنة وهي تواصل القراءة. وأخذت تفاصيل جديدة تتكشف له: الخصر الدقيق، الردفان القويان، العنق الشامخ المعتد، الذراعان في انسجامهما المنساب، وفكّر: «أنا أعلم أن ذلك لن يتوقف، وسوف يحكم علي باللوعة.»

وكما يحدث في الأفلام الرديئة جاء الأصدقاء المشتركون، وتم التعارف. انفصلوا عنهما، واستغرقا هما في الحديث. اجتاحته بسرعة اذهلته.

ثم كان بعد ذلك لقاء قصير، حميم، حلو، سعى إليه بكل البراعات التي تكوّنت لديه ولأسباب بدت في الظاهر عملية بحتة، ثم انتهى كل شيء كما ينتهي يوم شتوي دافئ، مخلّفاً إحساساً لذيذاً، دائماً. لقد كانت لكل منهما علاقة تعذبه، ويحاول أن ينهيها. واتفقا أن الشيء نفسه حدث لكليهما ـ كل منهما أضفى على من يحب صفات رائعة ليست به، ثم تكشفت له بعد ذلك الحقيقة المرة.

كان لقاؤهما مجرد تقاطع طريقين، تاه بعده كل منهما عن الآخر على وعد لقاء لن يتحقق.

كانا يجلسان في الصالون. نهضت وقالت فليتمشيا لأن الجو في الداخل خانق. غادر الحجرة وتوقف في الصالة. عندما تبعته استدار نحوها فرفعت نظرها إليه وتوقفت. أمسك وجهها بين يديه وقبل شعرها ومرغ وجهه بملمس شعرها اللدن الهش. كان يغري بمضغه، فوضعت رأسها في صدره. انتظر أن تقبله هناك، ولكنها كانت متكئة فقط. وعندما رفعت وجهها إليه تتأمله قبل عينيها وأحس باختلاجة الجفن بين شفتيه. علا حبها في داخله وأحس أن الزمام سوف يفلت منه، وسوف يصبح عنيفاً. ابتعدت عنه وقالت إن ذلك لا يصح وأخذت تسوّي ثوبها وشعرها. كانت عيناها مسبلتين.

سارا طويلاً ويدها تمسك بيده. كانت ودودة، مطواعة طيلة الوقت. أحس أنها تتخلى مختارة عن عنف هو جزء من تكوينها حتى لا تجرحه. ذلك السلوك المهذب كان مثل كرم يأتيك دون توقع أو تبرير. وعندما ودعته قالت إنه حين ينهي كل منهما هذه العلاقة التي تهينه وتعذبه (قالت له: عليك أن تنهيها، وكذلك سوف أفعل أنا ذلك) فسوف يقيمان علاقة رائعة.

(قالت صداقة رائعة). أراد أن يقول لها: فلنفعل ذلك الآن، فلنبدأ من هذه اللحظة وليذهب الاثنان إلى الجحيم. ولكنه لم يقل ذلك. كان يدرك أنها كانت تحب رجلاً آخر رغم كل شيء.

إن قرارات مثل قرارها لا تتحقق في العادة، ولكنها جميلة عندما تقال. إذ تظل بين الاثنين رابطة حية وعميقة لا تنتهي أبداً لأنها بداية حب وروعة اللحظات الأولى، فهي لهذا تجسد طزاجته وتحتفظ بها إلى النهاية.

يجب التوقف للتحدث عن عينيها. حين رآها تدخل صالة الفندق كانت العينان هما أول ما اجتذب انتباهه. غرابتهما جعلته ينسى كل شيء آخر. وعندما جلست كانتا أول ما نسي. ولكنهما ألحتا عليه وجعلتاه غير قادر على تحويل نظره عنها. أصبحتا جزءاً من الثروة النادرة من الذكريات التي يحتفظ بها للأيام القادمة، مثل حبه لعزة وقبلة الفتاة البدوية ومشهد الإعدام في سجن عمان المركزي.. ومثلما تعيش في داخله شخصيات أبي الوازع الراسبي، ناتاشا (الحرب والسلام)، سوان (البحث عن الزمن الضائع)، لونج جون سيلفر (جزيرة الكنز)، سوردو (لمن تقرع الأجراس).

لم تكونا العيون المصرية المتماسكة السواد حيث تتمايز القرنية وتستقل كأنها مثبتة فوق البياض. ولا العيون الأوروبية الزرقاء التي توحي بنظرة عمياء، بل عينان ذهبيتان تتعدد مراكز إشعاعهما، إذ تنحل القرنيتان في البياض ذهباً داكناً، سائلاً. نقاط بنية شفافة تبدو وتختفي في الجزء الملوّن من العين، فتأخذ العينان طابعاً رجراجاً، سريع التحول. فوق سطح العينين يطفو وهج قرمزي كغمامتين ناعمتين يوحي بحرارة قديمة وأليفة. (اللمعة القرمزية هي التي أوحت إليه، عندما رآها للمرة الأولى، بأن صاحبتهما مصابة بمرض ما أو بتشوه غير محدد).

عندما تطالع عينيها عن قرب يتكشف لك تعبيرهما الذي يحمل الحرج الممض (ترى بعين الخيال وأنت مستغرق في مصيدة العينين يدين تمسكان بطرف الفستان

وتشدانه فوق الركبة لأن عينين وقحتين اقتحمتا تلك الهوة المظلمة التي تفصل بين الفخذين). كان جرج امرأة تحمي كنزها بقلة حيلة.

تحمل العينان كل هذا، غير أن صاحبتهما تجلس مستقيمة، متماسكة، طلقة الحركة. كأنهما عينان أضيفتا إليها بفعل خيال سوريالي.

عندما تصغي إليك تحب أن تلمس الحدقتين بشفتيك، أن تذوقهما ولا تدري كيف. وحين تلقي عليها سؤالاً تتردد قليلاً، فتشع العينان وتراوغان. عندما تحب (أو حتى ترغب بسادية إن كنت من ذلك النوع) أن تداعب صاحبتهما وتقسو عليها كما نفعل مع الأطفال عندما نريد أن نخرجهم عن حيادهم الجميل. إذا اقتربت منهما أكثر مما يجب فإنك ترى حولاً خفيفاً، زئبقياً، فهي لهذا لا تستطيع أن تطالعك أو أن تطالع أي شيء آخر بتحديد جازم. عينان هاربتان أبداً، مراوغتان كأن صاحبتهما تخشى فضيحة (أو ربما كارثة) إذا التقت العيون، تحاولان وتحاولان أن تحددا النظر فلا تستطيعان فتستمر المحاولة إلى مالا نهاية.

العينان مفتاحها وقناعها، يرهق عينيك الضحك فيهما الذي يكتسي قواماً من ضوء رجراج، مختلط، سائل فلا تعود ترى غيره، ولن يصلك منه أي تعبير سوى هذا التحرج الطفولي المحض الذي يقف في النقطة الحاسمة بين الضحك والبكاء، وهذا الرد الدفاعي الأنثوي الخالص، تتمثل في تلك المحاماة الواهنة التي تسير في طريق القبول والرضوخ لذكورة جسورة. ولكن هذا التوتر المذاب هو هي ـ هو جوهرها وحقيقتها. لذا كانت كالشعاع مستحيلة الإمساك، دائبة الهروب، إلا أنها تتعرض دوماً كإمكانية تعتقد أنك تستطيع محاصرتها واكتنافها.

لما رآها في المرة الثانية وقف متردداً. لم يستطع التأكد أنها هي. لقد عادت امرأة نحيلة تعاني من تشوّه ما لا يستطيع تحديده. وربما كان قد انصرف عنها بخيبة أمل لو لم ترفع رأسها إليه وتبتسم له وتتحول ابتسامتها إلى شبه ضحكة. وظل متردداً أمامها وهي تساؤل يطرح نفسه عليه: لمن تبتسم هذه المرأة، وماذا حدث لها إن كانت هي فعلاً المرأة التي جاء إلى لقائها؟ ظلت تبتسم له، وخطا هو نحوها وهو يفكر: هذه هي المرأة التي تنتظرني، وهو يحاول أن ينزع الغرابة والدهشة من هذه الحقيقة التي يصعب عليه قبولها.

قالت:

ـ «نسيتني؟»

شعر بالخجل وقال :

ـ «شكلك تغير.»

وندم.

كان يفكر فيها كثيراً خلال المدة التي تلت لقاءه الأول بها، ولكنه في خياله كانت عيناها نقطة انطلاقة، فيراها امرأة متحرجة ترتدي ملابس قصيرة.

قال لها :

ـ «كنتي لابسه جونله في أول مرة ودلوقتي لابسه بنطلون...»

عبارة غبية، قال لنفسه. اندهشت وابتسمت. قال :

«الهدوم بتغير شكل الست.»

قالت إنها كانت بنطلون في المرة الأولى.

ـ «بنطلون؟»

بالفعل يذكر أنها كانت تمسك طرف الجونلة وتشدها فوق الركبة. ولكن ما لم يستطع قوله لها، وهو يغالب خيبة توقعه، إنها في المرة الأولى كانت امرأة جميلة أدارت رأسه وإنها الآن امرأة عادية لا تجذب الانتباه. ولكن خياله يتسارع من جديد مطالباً بأن تكون كما كانت في المرة الأولى، معيداً بناءها من جديد، فتستجيب المرأة له، ويتولّد أمام عينيه المنذهلتين جسد رشيق، متماسك، معتد. ينمو ويتصاعد افتتانه بها وهي تتخلق ببطء أمام عينيه.

يطالع نظرات الجالسين في الفندق تحوطها ويتساءل :

كيف يتقبلون معجزة التحول هذه؟ ولماذا يكتفون بتلك النظرات التي تتظاهر بأن دافعها هو حب الاستطلاع ـ مجرد العلم بالشيء بينما تختفي في داخلهم أحلام يقظة مجنونة يدفعون فيها هذه المرأة الرائعة إلى السرير وينزعون عنها ملابسها ويفترسونها؟

ويفكر : «إن الناس لا يرون ما أرى لأنني لا أرى الأشياء بوضوح كاف، مثل حكاية الجونلة، لقد كانت تلبس بنطلوناً في المرة السابقة.»

تقول إنها عند دخول الشتاء لا تلبس الجونلات. يتردد ويرتبك ثم يقول لها إن

شيئاً غريباً قد حدث. يحدث نفسه أنه قد تورط ويحاول التوقف، ثم يجد نفسه محاصراً فيبوح لها بما حدث. يحكي لها عن عينيها. تصغي له كأنه يحكي عن حدث يصعب تصديقه، فتنذهل وتتنفس بعمق وهي تعدل وضع خاتم غريب في يدها، ثم لا تقول شيئاً :

قال لها إنه آسف. تقول :

ـ «ليه؟»

فيقول لها إنه كان سخيفاً، والأغلب أن ذلك بسبب أنه لم ينم جيداً البارحة. ضحكت وقالت إنها سعيدة لأنه قال ما قال.

١

البحث عن جمال الدين الأفغاني

المشهد الختامي . . .

تلك اللوحة ـ عندما يستعيد ذلك المشهد ـ من صنع رسام هولندي من القرن السابع عشر : الضوء الشحيح والألوان القاتمة تسيطر على المكان (يفكر . ذلك يشبه الأيقونات، أيقونة العذراء مريم والطفل والشمعة تشتعل أمامها في عتمة الدار الكبيرة) . ويخوض زحمة الشارع .

اللوحة هكذا : الأب بوجهه الكبير، الأسمر ، قاتم، عابس، مزموم الشفتين . الأم محتقنة الوجه غيظاً وهي تخلع ملابس الطفلة التي بللت ثيابها (وبللته هو . يذكر ذلك) . والطفلة ملقاة على حجرها . الأب والأم يجلسان على كرسيين متجاورين، وهو يجلس في مواجهتهما يطالع ما يحدث أمامه . في وجهه تعبير خشية وتوجس . كما تنقل اللوحة للمشاهد رغبة في الهرب يتبينها المشاهد ـ ربما ـ من حركة الجسد (التفاتة نحو الباب؟! وتحفز للنهوض؟) وكذلك قد تعبر عنها ملامح الوجه .

روح ساخرة (تفسّر بعد ثلاثة قرون بأنها تعبير عن شخصية رافضة متمردة، أو حتى ثورية) تسيطر على اللوحة . غير أن السخرية يتخللها حنو رقيق كانت إحدى سمات الروح الإنسانية التي كانت تسود ذلك العصر . (عبث الخيال يجعله يضيف صورة كلب يجلس مقعياً في منتصف المسافة بين المجموعة والباب . الكلب ينظر إلى الطفلة بالنظرة الورعة نفسها، اللائمة التي تنطبع على وجه الأب، ولكن على نحو أكثر حدة إذ يخالطها قدر من الاشمئزاز والتقزز . ولو استطاع ذلك الكلب أن يعبر بالكلام عما يجول في ذهنه لقال : «إنني اعرف تماماً آنسات هذه الأيام !») .

نلمس ذلك الحنو بوضوح على شكل توق إلى الماضي، يتجسد في زخارف إسلامية تبدو كإطار للصورة، وربما كامتداد للاثاث العصري، إذ يحطم هيكله العملي ليضفي على اللوحة جمالاً فائضاً عن الحاجة . ينبعث من تلك الزخارف ومن

الشخوص الخمسة (على اعتبار أن الكلب أحدهم) مزاج حسي عنيف ورغبة عارمة في الحياة، تسيطر عليهما ـ المزاج والرغبة ـ وتحدهما صرامة أخلاقية لا مجال للنفاذ منها أو إلى الالتفاف من حولها.

في ذلك الجو الداكن تكون التفاصيل كلمات خفية من الضوء تنبت وتنبعث من أجزائها الداكنة بعد أن تكابد العين في التفحص. تتوالى تلك التفاصيل بإيقاع بطيء للغاية ولكن دون توقف حتى تغص العين بكثرتها في نهاية الأمر... ويكون ذلك كالعودة المنتصرة بعد مجاهدة كثيرة فتتبدد العتمة بعد أن تعودتها العين.

والقطة؟

كانت هنالك قطة بالفعل، ولكن ادخالها في اللوحة غير ممكن. إحساس مبهم أنبأه أن القطة سوف تحطم وحدة اللوحة. ثم بدا له ذلك على شكل مشهد سينمائي ثابت، أو مشاهد ثابتة متتالية يشهدها منعكسة على شاشة صغيرة من بروجكتر: القطة صديقة للطفلة، ولكنها أكثر إيجابية منها، إذ سوف تسخر من الكلب، ومن ذلك التجهم الذي يثقل وجه الأب. (تمد رأسها وتقترب بفمها من أذن الكلب وتهمس شيئاً ثم تتراجع على الفور مجنونة، مرحة، متحفزة، متقافزة. ينهار ذلك الرسوخ الثقيل الأبوالهولي الذي يسيطر على الكلب ويكشر بانزعاج عجوز ضيقة الأفق، عصبية، امتدت عنوستها عبر الشباب والشيخوخة.

بحركة بطيئة للغاية، كما في الأحلام، يفرد الأب ذراعه في اتجاه القطة ويقول: ـ «بست».)

أحس أنه بهذا قد حطم اللوحة الأصلية فجاهد حتى استعادها، وفكر: «الطفلة تكفي.»

***

هكذا بدا له المشهد وهو يخوض زحام شارع سليمان باشا بحثاً عن المقهى الذي كان يجلس فيه جمال الدين الأفغاني. كان مشهداً تجمدت فيه الحركة فأصبح يعبر عن انفعالات ذات مدى لا نهائي.

ثم يتوقف، مطالعاً ما حوله «أين أنا؟» ويجهد أن يتذكر تلك اللوحة. يمتح من سطح أقرب فيدفع بعض أجزاء المشهد الثابت إلى الحركة.

كانت الطفلة كالدمية المكسورة ـ دمية عبث بها طفل شرير، يحاول بعبثه أن ينسى

عقدته الأوديبية وعجزه عن فهم العالم. الأم قد نزعت البنطلون النبيذي، جاعلة نصفها الأسفل عارياً تماماً، وقلبت الطفلة على وجهها، فاستقر بطن الطفلة على فخذي الأم، وتدلى رأسها وذراعاها على يمين أمها، وانسابت قدماها إلى الجهة الأخرى. شريط شعرها فوق السجادة، ويداها تحاولان وتحاولان الإمساك بالفراغ دون جدوى.

ارتفعت الستارة التي تفصل الحجرات الداخلية عن الصالون قليلاً وارتعشت، وانسابت من تحتها القطة بظهر مقوّس وخطوات طويلة بطيئة للغاية كأنها حصان يعدو في عرض سينمائي وقد تحول إلى الحركة البطيئة. أدارت الطفلة رأسها وأخذت تتابع القطة وهي تقترب. واصلت القطة سيرها المتعجرف المتئد وتوقفت تحت رأس الطفلة تماماً. جاهدت الطفلة وأمسكت بعنق القطة فرفعت هذه الأخيرة وجهها إليها وأخذت تنظر إلى الطفلة نظرة مؤدبة. دفعت الطفلة رأسها بقدر ما يسمح لها وضعها وتمتمت:

ـ «بوسي!»

التفتت الأم بوجه مقطب، متسائل، وعندما رأت القطة رفستها بقدمها وقالت بضيق:

ـ «وانتي رخره!»

وعت كوثر ـ وهذا هو اسم الطفلة ـ الدرس فأوقفت كل حركة، واكتفت بتتبع القطة التي تراجعت، وجلست على عجيزتها ممتدة الجسد، رافعة الرأس، ساكنة تماماً، كأنها قطة من فولاذ، وراحت تطالع كوثر بعينين خضراوين ووقورتين للغاية. وبرشاقة منقطعة النظير رفعت القطة مخلبها الأمامي وأخذت تداعب أنفها الأحمر الرقيق.

ـ «أيوه يا اختي!»

قالت الأم وهي تجس فانيلة الطفلة لترى إن كانت مبلولة. كان مدلول العبارة غير واضح له. ولكنه شعر أن الطفلة قد كبرت وأصبحت تكايد الأم. ثم فجأة، ودون مقدمات تدعو إلى ذلك، ارتفعت يد الأم وضربت إلية الطفلة مرة وأخرى بدعوى أنها تكثر من الحركة وتعيقها عن تغيير ملابسها. تقبلت الطفلة ذلك بشجاعة وضبط نفس فريدين، لقد ارتفعت فوق الألم والمهانة فلم تطلق صرخة واحدة، ولم يصدر عنها أي شكوى من أي نوع.

القطة وحدها هي التي لم ترض بذلك ـ وهو أيضاً ـ فماءت مواء ثاقباً، نحيلاً، وغادرت المكان بخطوات متعثرة كخطوات امرأة بدينة حبلى.

والأب قائم، عابس، صارم الوجه، تقي النظرة، لفمه تعبير جدة عجوز ـ أحد قضاة محكمة التفتيش يشهد تعذيب خارج عن طريق الرب. والطفلة صامتة، مهانة، منبوذة، قد اعترفت بخطيئتها المميتة، وشاركت جلاديها وجهة نظرهم ورضيت بحكمهم الصادر عليها، تقف منتظرة الضوء في نهاية الطريق.

كان هو يود أن يصرخ لو أنه كان يملك الشجاعة الكافية، أو لو أنه كان يستطيع أن يصيغ قضيته صياغة مقنعة. ولكنه صمت وحزن ثقيل أصم يبهظه. كان ذلك يشبه نهاية تراجيديا شكسبيرية حيث يموت الجميع في النهاية ويصبح العالم كالحاً ـ أجل، فقد كانت للطفلة لحظات من المجد.

كان يختنق.

نهض أمام العيون المندهشة وأعلن رغبته في الانصراف : ماذا حدث؟ قال الأب، هل هو هذا..؟ ونظر إلى الطفلة... لم نكد نتحدث، قالا، اعتقدنا أننا سوف نمضي اليوم سوياً. ولكنه لم يجد التبرير ـ والوضوح أيضاً ـ لانصرافه فغادرهم بفظاظة. تأملته الأم وقالت :

ـ «إيه الحكاية؟»

قال :

ـ «مريت، فيه شغل مهم..»

ـ «شغل إيه؟»

مدت القطة رأسها الرمادي من تحت الستارة وأخذت ترمش بعينيها وهي ترقبه يودع مضيفيه ويتجه إلى الباب. الطفلة، عارية العجيزة، شيعته إلى الباب ومدت رأسها من فتحته وهو يخطو إلى الخارج. جذبتها الأم وقالت :

ـ «كنت حا اقفل الباب عليها»

ثم له :

ـ «ما تغبشي !»

كان واضحاً أنها تضايقت من انصرافه المفاجيء.

انطلق بحس الناجي.

في الخارج لفحه الحر، فبوغت إذ هو لاستغراقه فيما كان يحدث اعتقد أن مغادرة المكان تعني النسيم اللطيف والسير في شوارع واسعة وهادئة. اعتاد الحر بعد قليل وقبله ـ عدا منطقة رطبة تمتد بين نهاية ساقيه وأسفل بطنه، حملها كعار يخشى افتضاحه.

ثم نسي ذلك العار الذي يحيط بوسطه ـ تخلّف في أعماق بعيدة من وعيه إحساس بالقذارة ـ وسار وقد اعتاد الحر. كان يخالط فرحته بالنجاة شعور رقيق بالحزن وإحساس بالذنب، فهو قد شارك ـ بحسن نية دون شك ـ فيما تلقاه الطفلة من تعذيب ومهانة.

ثم استغرق في حلم يقظة يعيد به صياغة ذكرى قديمة: الفتاة البدوية متجردة في الكهف.. عيناها مسبلتان، ملمس كتفها المدوّر ناعم، زلق في يده. الرغبة تجعل الذكرى واقعاً، أو تكاد. يقترب منها ويلتحمان. أخذت خطواته تنتظم وأخذ الإيقاع يتخلله من جديد. حدث ذلك دون أن يدري. استغرق في الرؤيا القديمة، اشتملته فأصبح الشارع مختلفاً.

***

أولج في صفرة العصر المعصفرة. شارع سليمان باشا ينفث الحرارة المختزنة كما تداعبك أياد ممازحة، ثقيلة الظل وأنت في خدر الصحوة الأولى في الصباح.

يتخلل الزحام، وذكرى من الشتاء الفائت ترين عليه برعبها. ينفضها فتنزلق إلى الداخل، تنتشر فيه فتصبح كالصقيع. أرخت جسده فشعر أنه يسير على أرض زلقة.

٢

جملة اعتراضية

كان ذلك في اليوم الذي افتقد في صباحه عزة حتى الجنون. عندها أحس أن لحياته معنى وحيداً هو الاقتراب من الموت. في ذلك اليوم لقي عزة وفشل في استردادها ـ لم يكن يملك آنئذ لا الاتزان الكافي ولا الثقة بالحياة ـ فأحس أن عالم المرأة، الحب والحنان والمتعة، قد انتهى بالنسبة له وبالنسبة للآخرين أيضاً. ولكن الفرج أتاه على غير توقع وبأسرع من المعتاد.

كان الرذاذ يتساقط، وانتشرت نقاط صغيرة للغاية في شعر عزة، فبدا كأنه مرشوش بمسحوق الفضة. لم يعثرا على تاكسي وأتى الترولي باص فاندفعت إلى داخله. تخللت الزحام، ومضى الترولي بها، ولم تلتفت إليه ولو مرة واحدة. عاود السير في الشوارع الموحلة يحتمي بالأشجار من المطر، ولكنه اكتشف أن قطرات كبيرة سوداء تسقط على ملابسه من الشجر. فاشترى الصحيفة المسائية ووضعها فوق رأسه. غير أن ذلك لم يفد كثيراً.

ثم ذهب إلى ذلك النادي الذي يضم كتاب المسرح، ويجتمع فيه المثقفون فيشربون الروم والبراندي ويتناقشون في الثقافة والسياسة وفي الفن أساساً. وحدث ما كان يتوقع. انهالت الأسئلة :

أين كنت؟ لماذا اختفيت؟ فيرد على أسئلتهم بارتباك. ثم أحس أن عليه أن يحسم الأمر وبسرعة.

طلب براندي. شرب كأساً وثانية دفعة واحدة دون أن يضيف ثلجاً أو ماء إليهما. ثم طلب كأساً ثالثة وأكثر من الثلج ووضع عليه بعض الماء وشريحة ليمون وأخذ يشرب بتمهل. ساعتها طاب له الحديث. وكان يجيده أحياناً، خاصة عندما تحتد مشاعره، فيصبح حديثه مغالبة للافتعال حيناً وسقوطاً فيه حيناً آخر.

قال، لا تكثروا الحديث عن أوروبا ولا تعتبروها مثالاً يجب أن نحتذيه. الرواية

مثلاً، مجرد مثال، قد ماتت في أوروبا وتنبعث في العالم الثالث. وتوالت الأسماء في خطبته: جون ابدايك، سول بيلو، نورمان ميلر (رواية «العاري والميت»، وماذا بعد ذلك؟) ناتالي ساروت، والآن روب جرييه (تقاليع، مجرد تقاليع)، جونتر جراس (سوف أحكي لكم عن روايته «الطبلة الصفيح») أما كرواك، فلنتحدث بجدية، ولا نحاول أن نخدع أنفسنا، هل، بصراحة، قرأتم شيئاً له؟

وهكذا مضى.

والسينما؟ ألا ترون الأفلام الأمريكية والفرنسية؟... وتكلم أحد الحاضرين عن السينما الكوبية، فقال هو: علينا ألا ننسى أيضاً السينما البرازيلية والأرجنتينية بشكل خاص. (الواقع أن تأكيده على السينما الأرجنتينية كان بسبب أنه سمع عنها كثيراً ولكنه لم يشاهد أي فيلم من أفلامها).

قال أحد الحاضرين:

ـ «والسينما المصرية طبعاً.»

فضج الجميع بالضحك.

ولكنه هو ظل جاداً وذكرهم بأفلام بعض الشبان، وقال إنه لو أتيحت لهم الفرصة لبلغوا مستوى عالمياً.

وفي مقاييس رواد هذا النادي كان يعتبر ما يقوله كلاماً عميقاً ودالاً على معرفة واسعة بالثقافات العالمية. أضاف هو، إن كل من له اطلاع على ما تطرحه أوروبا في الأسواق يعلم أن ما أقوله صحيح تماماً.

وهذا ال «من» كان يعني به شخصه هو. ولم يعترض أحد على ذلك.

كانوا يصغون إليه دون أن يبدو للعيان ذلك الداء العريق ـ داء مقاطعة المتحدث. فالذي يحدث في الغالب أنه عندما يتحدث أحدهم، وقبل أن يتم جملته، ترى أكثر من واحد قد انفرجت شفاهه انفراجة ضيقة وبدا قطاع طولي ضيق من أسنانه، وقد ارتفع حاجباه، وما يتلو ذلك من اتساع العينين، وامتداد الأنف إلى أعلى. إنه في هذه الحالة يتوقف عن الإصغاء ويتحين مناسبة يتوقف فيها المتحدث لحظة يلتقط فيها أنفاسه فينقض عليه.

لم يحدث ذلك هذه المرة، ولكنه هو أقدم على مجازفة كاد يفقد على أثرها موقفه

الممتاز لو لم تسعفه سرعة الخاطر وثقة بالنفس ولدها البراندي، فقد أعلن أن ما قاله عن الرواية ينطبق على جميع الفنون دون تمييز «ولا تصدقوا غير ذلك». وهذه العبارة الأخيرة قالها بالعربية الفصحى.

صمت لثوان قليلة شرب فيها رشفة من كأسه وأعقبها ببعض حبات الترمس، فقال أحد الحاضرين ـ وكان فناناً تشكيلياً ـ وكأنه يقترح: هل ينطبق ذلك على الفن التشكيلي؟ (١) وذكر آخر اسماء غريبة ميز بينها اسم بيساروف، وذلك في اقتراح، أيضاً، أن الفن التشكيلي قد يكون شذوذاً عن هذه القاعدة.

وفكر هو: بيساروف؟ بيساروف هذا قد يكون روسياً. اسمه يدل على ذلك وخاصة هذه الأوف. فكر أن يؤكد أنه يتحدث عن أوروبا الغربية، ولكنه أذكى من أن يسقط في هذه الحفرة. فلجأ إلى التعميم ـ فقد يكون بيساروف ليس روسياً، وهذا يعني نهايته هو تماماً.

قال إن الفن التشكيلي في أوروبا الغربية يمر بالازمة نفسها، بل بأزمة أشد. إن الفنان لا يستطيع أن يبيع لوحاته إلا من خلال سمسار، والسمسار ـ تصوروا السمسار هو الذي يحدد مواصفات اللوحة. وماذا سوف يحدد هذا السيد؟ لوحة للعزاب: نساء عاريات (هاها ها) لوحات لحجرة الطعام: بطيخ، شمام، كوسا، لوحات لدورات المياه وأنتم تعرفونها.

ويضجون بضحك مقتضب.

قال أحدهم عبارة لم يسمعها بوضوح ولكنه رد عليها فوراً، قال: أنظر إلى الرسامين المصريين الذين ذهبوا إلى أوروبا، هل استفادوا من ذهابهم؟ هل تحسن مستواهم الفني؟ أجنبي!

لقد سجل نصراً دون شك. ارتفعت الأصوات مؤيدة، وأخذ بعض الرسامين

---

(١) الفنانون التشكيليون في مصر أقلية مضطهدة، ولكن قضيتهم لم تعرف طريقها إلى أروقة هيئة الأمم المتحدة. ففنهم ليس جماهيرياً ولا مكسباً، وهو حتى عند خاصة المثقفين غير مفهوم تماماً، وهم مثل كل الأقليات المضطهدة يتميزون بقدرة كبيرة على العمل الدؤوب وبتواضع جم. وعلى عكس الفنانين في الميادين الأخرى فإنهم عندما يجدون فنهم غير مفهوم يصابون بالابتئاس بدلاً من الغرور والتعالي.

يروون حكايات عن رسامين ذهبوا إلى أوروبا وتدنى مستواهم، وخبرات أخرى دعمت رأيه هو.

وكانت تلك المرأة تجلس مع مجموعة أخرى، وهو قد لاحظ منذ بعض الوقت أن وجهها الأبيض الكبير يلتفت نحوه ويصغي، ثم حملت كرسيها وجلست بجواره. اقترب وجهها منه كثيراً وهو يتحدث عن السماسرة في أوروبا. كانت تصغي باستغراق. وعندما انتهى من خطبته سألته إن كان قد سافر إلى أوروبا، فنفى ذلك، وسألها بدوره ـ متحسباً ـ هل ذهبت هي؟ فردت بالنفي، وأضافت، ولكن يبدو أنك مطلع على ما يجري هناك. فقال إن معرفة ذلك ممكنة من خلال قراءة الكتب والمجلات المتخصصة وهذه ليست أسراراً.

رد ببعض الحدة لأنه اعتقد أنها تستعد لمهاجمته. ولكنها قالت إنها مهتمة بهذه الموضوعات. هدأ تخوفه وسألها عن عملها فقالت إنها موظفة ولكنها ترسم. تولاه حماس مفاجئ للفن التشكيلي، فقال لها إنه أعظم الفنون قاطبة، التجديد يبدأ دائماً في الفن التشكيلي ثم تتبعه الفنون الأخرى؟ في السابق، وهذا ما سوف يحدث في المستقبل، كان الفن التشكيلي هو الذي يقود الثورات الشعبية، جيوتو، مثلاً. وفي العصر الحاضر يلعب الفن التشكيلي دوراً هاماً، بيساروف مثلاً. فهزت رأسها موافقة.

أحس الجميع أنه انصرف عن مواصلة خطبته، أو هم ربما قد خرجوا بالنتائج المطلوبة فانصرفوا عنه تاركين إياه مع صديقته الجديدة كتعبير عن المودة، وأخذ كل اثنين أو ثلاثة يكلمون بعضهم. وقد لاحظ أن الحديث قد أخذ طابع الهموم اليومية.

ثم ناداه صديقه الطويل جداً، قائلاً:

ـ «كلمه.»

استأذن من المرأة، فسأله صديقه بهمس إن كان قد ضاجع هذه المرأة من قبل، فرد عليه بأنه لم يرها في حياته قبل الآن. فقال له صديقه إن هذه المرأة سهلة للغاية، سهلة عندما ترغب في أحد، ومن الواضح أنها ترغب فيه، فعليه ألا يزهقها بمسائل الثقافة. إن أيسر السبل إليها أن يكون مباشراً. وأضاف صديقه إنها سوف تحدثه عن ضجرها في الحياة الزوجية فعليه أن يصغي لها باهتمام.

ثم انصرف ذلك الصديق، وقد أشعره أنه يمنحه إياها. كانت المرأة خلال ذلك ملتفتة إليهما.

تأملها جيداً فرآها سمينة من غير إفراط وقرر أنها تصلح تماماً، بل قد كانت حلم يقظته في سنين سابقة. كانت النظرة الأخيرة التي وجهها له ذلك الصديق نظرة تشجيع - بوجه وقور أومأ برأسه وأغمض عينيه وانصرف.

فكر هو أن هذا الصديق يقول هذه العبارة ذاتها عن كل النساء تقريباً وقرر أن ينسى ما قاله.

عاد وجلس بجوارها. قال:

- «لا مؤاخذة.»

كانت تبتسم.

سألها إن كانت قد أقامت معرضاً لصورها. أصبح وجهها حزيناً، وقوراً. فقالت بجدية:

- «أنا مجرد هاوية. بحب الرسم.»

قال لها أن الفن الحقيقي هو فن الهواة. ثم أمسك بيدها وقال إن عليها أن تقيم ذلك المعرض للوحاتها. اندهشت المرأة وجذبت يدها، فقال لنفسه: «لقد كنت متعجلاً. ذلك بسبب الكأسين اللتين شربتهما دفعة واحدة.» وصمت يبحث عما يقوله لاستمرار الحوار، ولكنها هي التي واصلته بيسر. سألته بصوت أجوف، محايد، إن كانت هذه المجلات التي تحدث عنها موجودة عنده، فرد بإيجاب.

ثم سارت الأمور بسرعة أذهلته. كانت تريد أن ترى تلك المجلات بأي شكل. وفي التاكسي إلى بيته فكر أنه في النهاية هنالك بعض الفوائد للثقافة. وابتسم وهو يفكر في هذا.

كانا قد خرجا من النادي ووقفا ينتظران عربة أجرة. لم يكن متأكداً من اتجاه الأمور، وعندما جاءت العربة همست له:

- «قلت ساكن فين؟»

قال:

- «المنيل.»

ولما وقفت عربة الأجرة أمام العمارة التي يسكنها هبطت ووقفت في الشارع راسمة على وجهها ذلك الحزن الملول الذي ينطبع على وجوه الزوجات بعد سهرة مرهقة. وهما على باب العمارة، في تلك اللحظة فقط، سألته تلك المرأة العجيبة إن كان يسكن وحده. دخلا حجرة المكتب وأشعل الدفاية. أتى بزجاجة الويسكي (هذه التي يأتي بها المسافرون هدية من السوق الحرة في المطار) وبكأسين، وأخذ يعد نفسه لإقناعها بالشرب. ولكنه لم يكن محتاجاً إلى ذلك. صب لها كأساً وقال:

ـ «كويس عشان البرد.»

أمسكت بالزجاجة وتفحصتها ثم قالت:

«وايت هورس، هاه!»

فتحت غطاءها، وشمتها. قالت:

ـ «ويسكي كويس. معظم الويسكي اللي في السوق اليومين دول مغشوش.»

قال:

ـ «فعلاً.»

ـ «اشتريتها من السوق؟»

قال:

ـ «من السوق الحرة.»

قالت:

ـ «عشان كده.»

لم تنتبه إلى الكأس التي صبها لها. صبت قليلاً من الويسكي في غطاء الزجاجة وشربته، ثم تناولت الكأس الفارغة وصبت لنفسها، وأضافت إليها قليلاً من الماء. شربت جرعة كبيرة، ثم أخذت تتفحص الحجرة، تتوقف عيناها عند مظاهر الفوضى ثم تواصل المسح. التفتت إليه بعد قليل وقالت بالانجليزية:

ـ «بوهيمي.»

بدأ يقول لها إن الخادمة، ولكنها قاطعته قائلة بالانجليزية:

ـ «أنا أعرف البوهيمي عندما أراه.»

وضعت يدها في شعره وشدته. لم يستجب لذلك لأنه تم بأسرع مما كان يتوقع ولأن حركتها بدت بريئة للغاية. كان قد استعد أن يقول لها لو أنها سألته عن تلك المجلات إن المكتبة غير منظمة وإنه سوف يحتاج إلى بحث طويل حتى يجدها. ولكنها لحسن الحظ لم تسأل عنها أبداً، بل استمرت تضع يدها في شعره وتتنهد وتشرب جرعات كبيرة من كأس الويسكي. ثم قالت :

ـ «إحنا تعرفنا على بعض من أقل من ساعة، لكن حاسة إني بعرفك من سنين.»

قال لها إن ذلك يحدث كثيراً، كما أنه يشعر كما لو أنه كان يعرفها منذ زمن طويل، وهو يفكر : «أين سوف يؤدي بنا هذا كله؟»

صبت لنفسها كأساً أخرى من الويسكي وأضافت إليها بعض الماء، ثم شربت جرعة وتاهت عيناها.

قالت لنفسه «وماذا بعد؟»

قالت وهي ما تزال تائهة النظرة :

«أنا تعسة في حياتي الزوجية.»

ثم التفتت إليه فجأة :

ـ «أنا هاكلمك بصراحة. أنا تعيسة قوي، قوي، في حياتي الزوجية.» قال لها إنه آسف لذلك، وأضاف عندما تذكر كلمات صديقه الطويل : «أنا حقيقة آسف.»

تركته يمسك يدها. قالت إنها منذ أن تزوجت وهي تشعر أن زوجها غير مناسب لها. إنه طيب، طيب للغاية، ولا يعترض على أي شيء تفعله ولكنها لا تستطيع أبداً أن تتحدث معه في أي شيء له أهمية. وهو في حالة غيرة دائمة، لا يتكلم أبداً عن ذلك ولكنها تعلم. وهي لا تستطيع أبداً أن تمارس الجنس معه.

ثم نظرت في عينيه نظرة مباشرة وقالت :

ـ «عارف يعني إيه الجنس؟»

فقال :

«طبعاً.»

كانت تنظر إليه ليستمر، فقال :

ـ «العملية الجنسية طبعاً.»

أخذت تهز رأسها، فقال:

ـ «علشان كده وشك دايماً حزين.»

فرحت بذلك ـ احمر وجهها كأنها مراهقة وأمسكت بيده وأخذت عيناها تبربشان. قال:

ـ «لاحظت أنك حزينة من أول ما شفتك.»

وأمسك بيدها. كانت تنظر إليه بعينين سوداوين تلك النظرة المباشرة المربكة، وقالت:

ـ «مالك؟»

ـ «مرهق.»

قالت:

ـ «برد؟»

قال لها إنه يتعب من البرد، من الرطوبة، تخلق عنده نوعاً من الحساسية. قالت:

ـ «بتاخد إيه عشان البرد؟»

ـ «اسبيرين، نوفالجين...»

قالت إن هنالك طريقة صينية لعلاجه. قال لها إن هنالك طرقاً كثيرة لذلك. قالت ولكن هذه مختلفة عنها كلها، إنها سريعة التأثير.

ـ «العلاج بالإبر؟»

قالت بجدية:

ـ «أحسن من طريقة الإبر، حاتشوف دلوقتي.»

وقفت خلفه، وانحنت فوقه، وفكت أزرار القميص، وأدخلت يديها وأخذت تدلك عنقه وكتفيه وصدره وظهره. كانت تفعل ذلك بهمة واستمرت لبعض الوقت، وهو خلال ذلك يفكر «أليست سريعة هذه المرأة!» ثم توقفت وأحاطت عنقه بذراعيها ووضعت ووجهها على رأسه. كان يحس بها تضع بعض شعره في فمها وتتذوقه بطرف لسانها. بعد قليل، أمسك بإحدى يديها وقبلها ثم احتفظ بها قريبة من فمه،

فأخذت تداعب شفتيه بأصابع تلك اليد.

قبل أن يتدبر الخطوة التالية كانت قد أخذت تتكلم في شعره، وكان ذلك غريباً. قالت إنها تحب بسرعة وتفقد السيطرة على نفسها عندما تحب، والجميع يفهمون ذلك فهماً خاطئاً. تريد حباً جنونياً، جارفاً، لا ينتهي أبداً، وتريد من الرجل الذي يحبها أن يفهمها تماماً.

أخذ يقبل يديها وقد فقد السيطرة على نفسه هو أيضاً. ومضت هي. ولكن الذي يحدث دائماً، دائماً أن الذي تحبه يزهد بسرعة، وقد تعلمت أن النقاش معه لا يجدي. أكاذيب، أكاذيب، ويهرب منها، وينتهي كل شيء. هل أنت من هؤلاء؟

لقد أصبح الطريق ممهداً. حاول أن ينهض ولكنها أعادته إلى مكانه بضغط كوعيها على كتفيه. قالت:

- «ما بتردش ليه؟ جاوبني!»

قال:

- «بس الإجابة...»

قاطعته وقالت بعنف:

- «عارفة، عارفة حاتقول إيه.. حاتقول إنك حبتني وإنك مختلف. كلهم بيبتدوا مختلفين أو همه بيقولوا عن أنفسهم مختلفين في الأول وبعد كده...»

قاطعها قائلاً إنه لم يكن يريد أن يقول ذلك، ولكن كيف يمكنه أن ينذر نفسه لحب جنوني، أبدي، ملتهب وهما لم يكادا يتعارفان. ذلك ما كان يود أن يقوله.

اشتعلت فوقه وتحولت إلى كتلة رهيبة من العنف والرغبة. أخذت تقبله في شعره، وعلى جبينه وفي عنقه، وقبلت أذنيه وهي خلال ذلك تهمهم:

- «حبيبي، حبيبي!»

حاول أن يفلت منها ولكنها أعادته بعنف. أصبح ذلك يؤلمه فانفلت منها بأن أحنى جسده وانزلق من تحت يديها. وتعانقا واقفين وهي تقول بالانجليزية:

- «هذا كثير جداً، أكثر مما أحتمل.»

حاول أن يجذبها نحو السرير ولكنها قاومت، ونجحت، لا، لا، كانت تقول ثم أضافت بالانجليزية:

ـ «أرجوك، لا تجعلني أفعل ذلك.»

ثم جلست وهي تتنفس بصعوبة. تكلمت بصوت نحيل:

ـ «ممكن توصلني البيت؟»

كان وجهها أحمر، منفعلاً. أخذت تسوي ملابسها وشعرها بحركات سريعة، عصبية دون أن يكون هنالك أدنى حاجة إلى ذلك. ثم تكلمت بالانجليزية:

ـ «يجب أن اذهب، يجب.»

قالت ذلك دون أن تنظر إليه. بدت له غاضبة. حاول أن يجد معنى لهذا كله فسألها:

ـ «إيه اللي حصل؟ إيه الموضوع؟»

ردت بالانجليزية بصوت قاطع، صوت تحدث به نفسها وهي تنظر إلى صدرها:

ـ «لا شيء، لا شيء على الإطلاق.»

ثم استولى عليه اليأس ـ اليأس الذي يعتريك عندما ترى ظاهرة كونية تأخذ مساراً خاصاً بها وغير متوقع وتدرك أنك مهما حاولت فلن تستطيع أن تفعل شيئاً أمامها. قال:

ـ «ممكن أفهم؟»

أخذت تتنهد، تائهة النظرة ولم ترد. وأخذ العالم ينزلق من قبضته، وأتته تلك اللحظات المرعبة عندما يعجز عن التأكد إن كان يحلم أم لا.

قال بصوت الكوابيس:

ـ «حالاً؟»

جلست على الكنبة، وتنفست بعمق، كأنها سوف تجلس هنالك إلى الأبد وقالت:

ـ «حالاً.»

جلس بجوارها وأمسك بيدها. التحمت يدها بيده واشتدت قبضتها ثم رفعت يده إلى وجهها وأخذت تمسح بها خدها وفمها وخدها الآخر ثم قبلتها. ثم دارت بها على وجهها مرة أخرى، وعادت بها إلى فمها وأخذت تقبلها قبلات كثيرة وهي تهمهم

ـ همهمة تحمل معنى الشكوى والبكاء، وتحمل الضراعة ـ بكلمات غير واضحة، استطاع أن يميز من بينها كلمة حبيبي، ثم نهضت فجأة بعنف، ملقية يده، وقالت :

ـ «عايزه أمشي.»

نهض وواجهها، قالت :

ـ «أرجوك.»

في صوتها بكاء.

ضمها إليه، حاولت أن تتخلص منه، ثم ضمته إليها بشكل فجائي كاد يلقي به أرضاً لولا أنه تشبث بها، وأخذت تقبله وتضمه بعنف وهي خلال ذلك تقول :

«نو، نو، . . .»

ثم تخلصت منه وسارت نحو الباب.

- "Please come with me". (1).

في التاكسي، كانت تجلس بجواره صامتة، مقطبة، وهي تمسك بيده. عندما ودعها أمام العمارة التي تسكنها قالت إنها سوف تمر على بيته غداً في الواحدة ظهراً لتأخذ المجلات. لقد نسيا المجلات تماماً.

ـ «مناسب؟»

قال لها إنه وقت مناسب تماماً.

ثم استدارت مسرعة داخل العمارة دون أن تودعه.

حاسب التاكسي وقرر أن يعود إلى بيته سيراً على الأقدام. لقد كان يوماً مليئاً بدأ بصباح كئيب، ثم بلقاء عزة، وانتهى بهذه المرأة التي كانت كابوساً كوميدياً. وخلال مسيرته إلى البيت عبر الوحل والبرد حاول أن يجد معنى لما حدث، فلم يستطع، ولكنه كان يحس أن هنالك تدبيراً ما وراء ذلك كله.

***

في عالم تتخلله الفوضى، لا تعرف ماذا يجيء به الغد، تصبح المواعيد مجرد

---

(١) «تعال معي، أرجوك.»

نكتة. إن هنالك مئات الأسباب التي تدعو إلى إخلافها وكلها تقريباً لا سيطرة لنا عليها.

فأخذ لذا يتمشى في الشقة متأكداً أنها لن تأتي مع هذا المطر والوحل، ولكنها في الواحدة تماماً كانت تدق جرس الباب. ويبدو أنه قد أعد نفسه لعذاب الانتظار، فكان مجرد مجيئها أمراً مخيباً للرجاء.

لم تشر بكلمة واحدة لما حدث بالأمس، ولم تذكر شيئاً عن تلك المجلات. بعد ربع ساعة تقريباً كانا في السرير. شربا كأساً سريعة من الويسكي بلا ماء ولا ثلج للوقاية من البرد، ثم أخذت تتفرج على الشقة «هاه، بوتاجاز!» ثم «هوه ما فيش خدامة بتيجي تنظف؟» وتواصل وهي خلال ذلك تردد «بوهيمي، بوهيمي!»، ثم فردت ذراعيها وأمسكت بباب حجرة النوم وأخذت تنظر إلى الداخل، ثم خطت نحو السرير وجلست على طرفه. جلس بجوارها وأحاط كتفيها بذراعه وقبلها فقالت:

«استنى شويه!»

تبين له أنها قد أخذت بالفعل تخلع ملابسها: خلعت الحذاء وفتحت سوستة الجونلة. ثم واصلت خلع ملابسها بوجه منسحب، محايد، وعندما انتهت اندست بين البطانيات. بمجرد أن لمسها كانت تتأوه وتستجيب، وأقبلت عليه تعانقه بعنف من فقد كل سيطرة على نفسه وهي تهمهم بكلمات الحب.

في ممارسة الحب كان لها مسارها الخاص.

استمتعا طويلاً، وأكلا، وشربا الويسكي، وناما قليلاً، وفي الثامنة مساء سارا إلى إحدى صالات الفنادق الكبرى وشربا القهوة وتحدثا بملل ثم غادرا المكان ـ قال لها:

ـ «المكان ممل.»

وذهبا إلى ذلك النادي. قبل أن يدخلاه، قالت:

ـ «حا اسبقك.»

ودخلت قبله، تمشى في الخارج قليلاً، فكر أن يواصل التمشية حتى بيته ولكنه تبعها.

يبدو أن رواد النادي كانوا ينتظرون منه أن يلقي خطبة أخرى، فصمتوا عند

دخوله، ولكن صديقه الطويل كان هنالك، فرمقه بنظرة عارفة وطلب له كأس براندي فلم تعد به رغبة في الكلام.

قال له صديقه :

ـ «عامل إيه؟»

ووجهه ثقيل، وقور.

فقال :

ـ «أبداً.»

ثم التقت عيونهما، وأسرع الصديق وأبعد عينيه وطلب من الجرسون أن يأتي بطبق ترمس.

وهي خلال ذلك تنظر إليه، لا ترفع عينيها عنه.

خرج معها وسارا. قالت له إنهما لن يجدا عربة أجرة. كانت صامتة. حاول أن يمسك يدها ولكنها جذبتها.

أمام باب عمارتها، قال لها :

ـ «بكره.»

فهزت رأسها ودخلت.

في اليوم التالي جاءت في الواحدة ظهراً بالضبط. كانت دقيقة دقة مذهلة. وتكرر ذلك كل يوم. ثم دعته للغداء. كان معهما على الغداء رسام معروف. أما الزوج فلم يكن له أي أثر. وأدهشه أنها هي والرسام كانا يرويان الحكايات المضحكة عن زوجها ويضحكان كثيراً. كان هو يتجنب في العادة الحديث عن زوجها.

ثم دعته مرة أن يزورها في المساء. أفهمته أنهما سوف يقضيان الليلة سوياً. قالت له :

ـ «حا اخدك بحضني للصبح!»

كان وعداً بالحنان.

ولكن ذلك تحقق بطريقة خاصة جداً يقف لها شعر رأسه رعباً كلما تذكرها.

٣

مواصلة البحث عن جمال الدين الأفغاني

دخل العصر المعصفر ـ ضوء ما قبل الغروب سائل أصفر يسيح على الوجوه السمراء الميتة العيون. يشرف على الشارع من أعلى الكوبري المعلق : الزحام والعربات في شارع سليمان باشا مجرد طبقة رقيقة رجراجة في اتساع ذلك الشارع وارتفاعه، الذي يملؤه حتى الحواف ذلك المسحوق الأصفر الداكن.

هبط إلى الشارع. شعر بأنه سوف يظل متميزاً، مطلاً على ذلك الزحام. بعد ثوان قليلة كان الزحام يحدد خط سيره. شعر بأنه يمتص. سخونة الشارع الملحة تكتنفه. ولكن ذلك كان مجرد قشرة خارجية. في داخله يقبع برد الرعب. من المحل الذي يبيع الجاتوه في أول شارع سليمان باشا تنبعث روائح الفانيليا والخبز الناضج. نفثات من عطر نسائي، روائح أجساد عرقانة، روائح القصب المتخمر، صاحب محل العصير جالس على الخزينة، كلها تومض في داخله وتتحول إلى كلمات، ثم تصبح جملاً بغير سياق.

يزهر في قلبه حلم يقظة، يفجر شوقاً ويبعث ذكرى. يمتزج بالإيقاع وبشوق إلى الانتماء متجسداً في حلم أن يذوب في القاهرة القديمة.

تبدو له الجوامع والحواري الضيقة والمشربيات، والمقابر بحجراتها البيضاء وحدائقها، والنساء بأجسادهن الباذخة وجرس أصواتهن العنيف، أكوام البخور واللبان الذكر، والعقود، والمسابح، و«شوف بختك بتعريفة». وروائح القدم العريقة، و«حي، حي.. مدد يا حسين، مدد» ... تبدو له القاهرة القديمة كسياج يحميه من الرعب، والخوف من الآتي.

يوغل في الزحام. الشارع يبث رائحة حسية غير محددة : روائح أجساد ناضجة، مكتنزة بدعاء رغبة فاجر. في الممر المؤدي إلى سينما راديو يرى الماكينة التي تصنع الفشار. تكوّمه داخل صندوق زجاجي والأيدي ممتدة بقطع معدنية مستديرة إلى

البائع العرقان الغاضب. وتختلط الأصوات. يعلو الجميع صورة امرأة تطل بعينين مذعورتين وقد انكشف فستانها عن فخذين هائلتين، راكيل وولش أو شيء كهذا. الفشار في صندوقه يبدو شبيهاً بالقطن الطبي. يتوه عن الشارع ويستغرق في تذكر المرأة وهي تعلوه لتعالج زكامه على الطريقة الصينية. رائحة البن الآتية من المحل الذي يبيع القهوة الأكسبرسو تعيده إلى الشارع. يعزم على الدخول، يتردد، يعزم، ثم يواصل سيره.

خلف زجاج الفترينات، في الهواء المكيف، يجلس رجال مكدودون. للعرض وليس للبيع. ممنوع اللمس. عندما يتحركون تتآكل مفاصلهم. ينظر إلى رجل منهم عبر زجاج الفترينة، يحاول أن يجعل عينيه تلتقيان بعيني الرجل. ولكن الرجل لا يعبأ به، لا يراه. كأنك تشاهد فيلماً سينمائياً أو تتذكر الذين ماتوا... ماذا كنت أقول؟ ماتوا.. من الذي مات؟ تكربه مطالبة وإلحاح بفعل شيء ما على وجه السرعة. يحاول أن يتذكر، يطالع الحذاء والبنطلون. ها أنا ذا اكتشف أنني أسير بلا بنطلون وبلا حذاء. يجب أن أمسك جيداً ببنطلون البيجاما، أمسك به بيدي الإثنتين فالأستك قد انقطع، ولكن يداً غير مرئية تشده بقوة لا تقاوم إلى أسفل، يحاول ويحاول أن يعيده ولكنه مشلول تماماً. سدني بواتيه يطل من إعلان سينما مترو. وتأتي الفتاة، كانت دائماً هنا ولكن دون حضور، يلتحمان، تستسلم، يعانقها، ويميل بها نحو أرض الشارع، والناس يعبرون بهما ولا يلتفتون «جود مورننج مستر» الناس لا يكترثون ولكنهم تهديد دائم، ولكن الفتاة، فيما يبدو، ترى أن ذلك أمر طبيعي تماماً.. أين أنا؟ «هذا الدوار اللعين، جيوب أنفية، قطرة بريزولين مضادة للحساسية» هل ما نزال في شارع سليمان؟

يفقد الاتجاه. يبدو الشارع غريباً غرابة الأماكن المألوفة حين نراها على شاشة السينما. الكنكة الألمنيوم على البوتاجاز. نسيت أن أطفئه. هل أطفأته؟ فتحت الحنفية ووضعت الكنكة بعد أن امتلأت بالماء على الرخامة، أشعلت البوتاجاز، من البلكونة رأيت المرأة تنشر الغسيل، سقط ثدياها من فتحة الفستان، يده على ظهرها يسيران بخطوات بطيئة «عيب!» وتضحك، ثم وضعت الكنكة.. هل شربت الشاي؟ في العادة أتذكر أنني أشعلت البوتاجاز ولكنني لا أستطيع أن اتذكر إن كنت قد أطفأته. أين هو؟ أين وضعته؟ تذكرت، أنه في الجيب الداخلي، أصفر وماسح. قد لا يكون

المفتاح، فإن قطع النقود المعدنية متداخلة بالمنديل وعلبة الكبريت ـ يجب أن أصلح الولاعة ـ بالأوراق تبدو وكأنها المفتاح، فلأحاول التأكد، لا داعي لذلك، فحتى لو نسيته في داخل الشقة فإن ذلك لن يغير في الأمر شيئاً. . أين أنا؟ ما هذا الميدان؟ هل هو ميدان التوفيقية؟ يا نهار اسود، يبدو أنني عدت إلى ميدان التحرير، التحرير؟ أين الساعة؟ أنا أعلم أنني لن أتوه في شوارع أعرفها حق المعرفة، وحتى لو افترضنا جدلاً، مجرد افتراض، أنني تهت فسوف أركب عربة أجرة «المسرح القومي يا ريس» «عند موقف الأتوبيسات؟»

ـ «جنينة الأزبكية، مش عارف جنينة الأزبكية فين؟»

أعبر الشارع (اتجاه المرور من ميدان العتبة إلى ميدان الأوبرا) وسوف أكون في مقهى متانيا حيث كان يجلس جمال الدين الأفغاني وحوله محمد عبده وسعد زغلول وأديب اسحق (الرجل ذو اللحية ينظر إليه بعينين زرقاوين، صافيتين، نظرة تعرف) وأديب اسحق وعرابي وهيمنجوي وإزرا باوند وجرترود شتاين.

ـ «هل أنت انجليزي؟»

ـ «أمريكي.»

كان عليه أن يدرك ذلك من لهجته.

ـ «أنظر إلى اتجاه يدي. هذا البناء الذي يبدو وكأنه يسد الشارع هو الهيلتون.»

(وبينما كنت أسير في شارع سوليمان باشا ستريت، حاليا تالات هرب ـ اقتصادي مصري ـ والجمال المحملة بالملابس العربية التقليدية تزاحم العربات الحديثة سألت شاباً:

ـ «أين الهيلتون؟»

(مد ذراعه وأشار خلفي وهو يضحك:

ـ «إنه خلفك مباشرة.»

شكرته وعدت أدراجي وأنا أسمع صوته خلفي يطاردني:

ـ «باكشيش مستر، ون بياستر مستر!»

يطاردني هذا النداء في كل مكان. .)

ثم ينشره في طبعة بنجوين.

ـ «هل هو هيلتون النيل؟»

ـ «لا يوجد إلا هيلتون واحد.»

ـ «شكراً أيها الجنتلمان.»

ـ «إذا كنت تريدني أن . . .»

ولكنه استدار وانصرف:

«ليس هناك ما أفعله. إنني أبحث عن جمال الدين وهذا ليس عملاً فإذا كنت . . .»

ولكنه استدار وانصرف.

أي سخافات تطرأ لي! بالطبع هناك محل للحلاقة اسمه هيلتون، ومصبغة للتنظيف بالبخار وجزار أعني محل جزارة، أعني . . . رغم ذلك، فإنه بإمكاننا أن نقول إنه لا يوجد إلا هيلتون واحد. . إنت تورست؟ إنت شوف، شوف بيراميدز؟ سفنكس؟ سفنكس كويس كتير. . شفتي بنت؟ . . بنت سمينة وسمرا يا خواجة، جوني . . . كم مرة يا أبا الفرج جعلت عائشة بنت طلحة تخلع ثيابها وتتعرى؟ وعندما وقع عليها الأمير جاءت بالأعاجيب. ماذا كنت تفعل مع الرقابة يا أبا الفرج؟ هل كانت رقابة على المسائل العسكرية فقط؟

ـ «أنت بريطاني، أليس كذلك؟»

كان علي أن أدرك ذلك من لهجته.

ـ «بل أمريكي.»

ـ «الهيلتون؟ ذلك الزجاج الكثير في نهاية الشارع»، يسد منافذه، يجعل من شارع قصر النيل حارة سد، يسمونها عطفة، ثم تدخل شارع الغورية ـ لبان دكر، قرفة، خروب، بخور، عقود، أساور، حلقان نساء. . . ما هذا؟ أما زلت في شارع سليمان أو فؤاد، بل أين أنا بالضبط؟ إلى أين أنا ذاهب بالضبط؟ وإلى أين أتجه وماذا أريد بالضبط؟ صوت فيروز ينساب فضياً من محل لبيع الاسطوانات، مرة أخرى القمر والشجر والثلج والجبل والضيعة، كأن ذلك لن ينتهي أبداً، من قال أني حكيت معه وحاكاني عادرب مدرستي؟ أخبار ملفقة، ثم تتكشف الحقيقة إنها حكت معه

وحكى معها وألقى بالورود من شباك حجرة نومها وفعل أفاعيل أخرى، فيما يبدو، لا تليق.

فتاة صاخبة، ضاحكة تقف أمامه وتقول :

ـ «هالو مستر!»

تجذبها من يدها الفتاة الاخرى الأقل جمالاً والأقل حيوية والأكثر تعقيداً.

ـ «هالو يا عين أمك.»

تضحك، تصخب، تخفي وجهها في كفيها وتحني رأسها. تبتسم الفتاة الأخرى.

ـ «يا خبر ده بيتكلم عربي.»

ـ «وانجليزي كمان وحياة أمك.»

يجلس في المقهى المطل على ميدان العتبة. الطرابيزة تلامس السور المصنوع من الأنابيب الفولاذية المفرغة ـ هل هنالك مثل هذا السور؟ قريباً منه يجلس بائع العصافير أمام موقده، يضع كل عصفورين مشويين في طبق ويضعهما أمامه على الطرابيزة. الرجل العجوز يتذكر بالطبع سي جمال الدين الافغاني، طبعاً يتذكره، يشرب في الليلة زجاجة ويسكي كاملة ويأكل خمسين عصفوراً مشوياً، ثم يتعشى بعد ذلك. قبل أن ينصرف يضع في يده خمسة وعشرين قرشاً. ربع جنيه عندما كانت العشر بيضات بقرش تعريفة. كان ـ الله يرحمه ـ راجل فنجري.

ـ «كان بيشرب ويسكي يا عم محمود؟»

ـ «مش عارف ويسكي والا كونياك. أهه حاجة من اللي كانوا بيشربوها، يقعد هوه، وعلي الكسار.. كان راجل أمير صحيح، ومجدع.»

ـ «ما يمكن كانت كوكا كولا يا عم محمود.»

ـ «هوه يعني أنا غشيم عن الكوكا كولا، والا يعني غشيم.»

ـ «القصد.»

والمرأة تجلس على الطرابيزة المجاورة تشرب القهوة. نظرة جانبية إلى اليسار فتلتقي عيونهما. ترتعش عيناها، تشرب رشفة من فنجان القهوة، ثم تبادله النظر. لا

يدعوها كما يفعل الآخرون ـ يغمزون بعيونهم ويشيرون بأيديهم، هذا إذا لم يفعلوا أموراً أخرى أشد بذاءة ـ بل سوف يمد ذراعه اليسرى ويحني رأسه ويقول :

ـ «قاعدة لوحدك ليه يا مدام؟»

تندهش.

ـ «اتفضلي اقعدي معايا يا مدام!»

تحرك رأسها شمالاً ويميناً متسائلة.

ـ «بتشربي بيره يا مدام؟»

ـ «مرسي.»

ـ «البراندي سبرتو (يضحك) عصير فوط.»

ترتبك، تبتسم. الابتسامة لمسة إضافية إلى وجهها المنتحب. لولا هذه التجاعيد الدقيقة تحت العينين وعلى جانبي الفم وهذه الأصابع المتورمة، الحمراء لكانت البطلة الرومانسية التي تموت في نهاية الرواية بالسل، بهذا الوجه المنتحب.. الموت بالسيف شنقاً، فشحذ السيف حتى إذا رضيه حكم وخبط، ثم حمل على الناس... إني لأرى الدماء بين العمائم واللحى ـ حتى أتى مقبرة لبني يشكر...

ـ «تصوري، جمال الدين الأفغاني كان بيقعد عالقهوة دي، يمكن كان بيقعد مطرحي.»

رمشت عيناها : إنها تعلم ذلك.

ـ «بتعرفيه؟»

تومئ برأسها إيجاباً وتسوي فستانها فوق ركبتيها.

العربة تمرق رغم الإشارة الحمراء. عيناه تنظران عبر الشارع إلى الجالسين في مقهى الاميركين. يبدون كالموتى ولكن أحداً لم يغمض عيونهم (عندما سمع عبدالصمد بن المعذل بيت أبي تمام :

لا تسقني ماء الملام فإنني
صب قد استعذبت ماء بكائي

قال لخادمه : «اذهب إلى أبي تمام واطلب إليه أن ينفذ شيئاً من ماء الملام». إذا

تأملتهم طويلاً فسوف تجد رواد الأمريكين يحركون رؤوسهم حركة خفيفة لا تكاد تلحظ. عندما تغرب الشمس سوف تدب فيهم الحياة مثل دراكيولا)

فقال عبدالصمد :

أي مـــاء لماء وجـــهك يبـــقى

بعـد ذل الهـــوى وذل الســـؤال

هنا تباع الصحف والمجلات الليبية واللبنانية، الحوادث والنهار والجهاد والفجر، يمد ذراعه :

ـ «قاعدة لوحدك ليه يا مدام؟»

ـ «بتضحك ليه يا خواجه؟»

وجوههم خضراء، أشعة الشمس الأخيرة تلمس وجوههم. موتى، موتى. وجمال الدين الأفغاني يدخن النارجيلة، يشفط بقوة فينتفخ منخاراه وعندما ينتهي يلف الخرطوم بمبسمة الكهرمان الأحمر حول النارجيلة ببطء وإتقان، ثم يفتح يده ويتكلم : «إلى متى تظلون نياماً أيها المصريون! انهضوا من سباتكم الثقيل الكئيب الذي استمر عشرات القرون!» أو شيء كهذا.

وسعد زغلول يصغي ويصغي ويصغي، يخاف أن تفوته ولو كلمة واحدة. ويمد جمال الدين علبة السعوط إلى سعد زغلول ويقول له :

ـ «هيا، استيقظ!»

أوكازيون تخفيضات في المحل من ٢٠ بالمئة إلى ٥٠ بالمئة لمدة أسبوع. سجاير نفرتيتي سوبر رمز الجودة، طويلة ولذيذة.

ـ «أنظر في اتجاه يدي. هذا البناء الذي يبدو وكأنه يسد الشارع، لو أنك كنت رصاصة وأطلقتها في خط مستقيم لحطمت إحدى نوافذه. هذا هو الهيلتون.»

(أدارت زينات ظهرها لي وأخذت تنظر من النافذة إلى نهر النيل ـ يسمونه في مصر البهر ومعناها محيط أو بحر ـ وإلى أهرامات الجيزة، ثم التفتت إلي وقالت ـ كان في عينيها دموع ـ :

ـ «هذه هي مصر الحقيقية»..

ثم عادت لتجلس في مواجهتي وقالت :

ـ «إننا أصدقاء الغرب . أصبح ذلك عاراً الآن . »

سكتت وشردت عيناها . كان من المستحيل إخراجها من صمتها . أمسكت بيدي وقالت :

ـ «كم أحب أن أذهب إلى أمريكا . ولكنني يجب أن أبقى هنا . لن تكون مصر للروس . »

وشربت بقية الكأس دفعة واحدة .

طبعة بانتام : مثير . كتاب يجتاحك كالعاصفة . حقيقة مصر ناصر . مخيف ، مثير ، رائع . ٧٥ سنتاً . جنس . سوف تكتشف أن ليدي تشاترلي مجرد طالبة مدرسة ثانوية ، غرة . (وعندما سألت فاتيما ذات العينين السوداوين عن مهنتها ذكرت لي أنها شارموتا ، قالت :

ـ «شارموتا يا خواجة»

ذلك الإسم العربي الجميل الذي يعني أنها فتاة متحررة) .

تقوده إلى حجرتها . وجهها المنتحب يصبح صارماً . تصبح أمّاً . دروب ضيقة تبدو وكأنها تنتهي إلى جدار يسد الطريق ولكنها تمضي وتدور وتتعرج وتستقيم . ثم تقول مبهورة الأنفاس ، وقد انطفأت الوداعة في وجهها وشعت عيناها :

ـ «هنا . »

يدخلان من الباب الواسع إلى حوش مربع كبير ، كبير ، بشكل خرافي ، تحيطه من الجوانب الأربعة حجرات متجاورة تعلو ثلاثة أدوار . بدت له كخلية النحل . بمجرد دخولهما يرتفع الضجيج كأنه كان في انتظارهما : صخب الحلل والمعالق وهيصة الأطفال ونداءات النساء كلها تشكل صوتاً واحداً . امرأة عبرت الحوش إلى طلمبة المياه ، تجاوزتهما دون أن تنظر إليهما .

يصعدان ، السلم حجري أبيض ، عتيق ، زلق ، وبلا حاجز . تقول له :

ـ «حاسب راسك ياخوي . »

على بسطة السلم كان يجلس درويش بملابس فضفاضة ، كثيرة الألوان ، وتتدلى من عنقه قلائد ذوات خرز أزرق وأحمر وأصفر . عندما يرفع الدرويش رأسه إليهما

يرى أن شفتيه تتمتمان. تقترب المرأة منه، تمسك بيده وتنحني عليها وتقبلها. يرفع إليها الدرويش عينين عجوزتين ويقول :

ـ «ربنا يسامحك يا فطنة.»

تقول المرأة :

ـ «معليش تأخرت.»

وتبحث في شنطتها وتخرج قرشاً وتضعه في يده. يتنهد الدرويش بعمق ويقول :

ـ «ربنا يغفرلك.»

فتقول :

ـ «لينا كلنا.»

وأحس بنفسه مهجوراً.

كانت حجرتها نظيفة.

ـ «إنت فين يا راجل؟»

يعرفه ولكن اسمه ومهنته تاهتا عنه. يكتشف أن هذا الصديق قد بحث عنه كثيراً. ذهب إلى بيته في كل ساعات النهار، تردد على الأماكن التي ينتظر أن يجده فيها، يتكلم بالتليفون فيرد عليه خواجات بلغة غير مفهومة، يذهب إلى مقهى ريش، ولكن كل ذلك بلا جدوى. وها هو صدفة، في الشارع ودون موعد، (صدفة خير من ألف ميعاد ويضحك) يجده. يمد ذراعه ويقول :

ـ «قاعدة لوحدك ليه يا مدام؟»

اسمه نبيل. يقول إنه يود أن يراه لأمر ضروري للغاية.. باين مستعجل؟ اسمه نبيل وليس نعيم. أشوفك إمتى؟ (يفكر هو : هل يريد أن يقترض مني نقوداً؟ ربما كان يجمع نقوداً لإجهاض فتاة ما). يواصل الآخر : يوم التلات، الظهر، كويس؟ يفكر هو : عليّ أن أقول شيئاً وإلا فسوف يسوقني إلى قسم البوليس. أي سخافات تخطر لي؟ يتوقف الآخر، منتظراً إجابة عن سؤال ألقاه. مسكتو واحد بنت يا خواجه؟ يقول :

ـ «ازيك يا فرج؟»

يقهقه الآخر، يضحك بشدة. لا بد أنني ارتكبت حماقة شديدة، ما اسمه إذن؟ صافحه نبيل ـ نعيم ـ فرج وانصرف مستعجلاً وهو يقول :

ـ «يوم التلات. الظهر!»

كأنه ينذره. وعلى إيه؟ (نيكسون يستعرض...) شيء ما في الوجه لصورة فوتوغرافية ملونة لراقصة يابانية معلقة مع صور أخرى كثيرة على واجهة الكشك يجتذبه، شيء بذيء وفاجر. عندما يدقق النظر ويقترب يرى صورة الراقصة تغمزه بعينها وتبتسم. يقترب أكثر فيراها تنظر بجدية تامة في الفراغ. فتيات الجيشا، مراوح ملونة، هاريكاري ينقض الطيار على السفينة بطيارته :

ـ «منتظرة حد يا مدام؟ بتشربي بيره؟»

وعندما وقع عليها الأمر جاءت بالعجائب، قالت إننا نتشهى لهذه الفحول ما يحركها وكل ما قدرنا عليه :

ـ «دوقي العصافير المشوية يا مدام.»

تمسك بالعصفور الملتهب بأناملها الطويلة الحمراء وتقضم منه قطعاً صغيرة، تضعه فوق كفها، تقربه من فمها وتقضم منه قضمة صغيرة. الدكتور محمد الارناؤوطي، أستاذ المسالك البولية. لا تتركني وحدي، نظراً لإلحاح الجماهير (العريضة الواسعة، نتغلغل بينها) فلسفة الصيام، مذكرات حلاق سيدات ملفوف بورق سوليفان أصفر، معصفر.

ـ «إنت فين يا راجل؟»

لا يتذكر اسمه. يعرف هذا الوجه ولكنه لا يضعه في سياق، ذلك يحتاج إلى بعض المجهود. عليّ أن أقول له شيئاً :

ـ «بتشربي بيرة؟»

ما اسمه؟ أنظر في عينيه، ارسم تعبير ألم لتتظاهر بالإصغاء والمشاركة. مساحات سوداء تحت عينيه، فقر دم بسبب البلهارسيا، نوع معين من الأحذية يقي منها. أقنع الفلاحين، أقنعهم هيا ليستعملوها. يتكلم بلا انقطاع. مرح للغاية :

ـ «النسوان تا تا تا...»

ماذا قال؟ ابتسم.

ـ «مش ترمي علينا النسوان اللي خلصت منها!»

أضحك إنها نكتة. لا يستطيع. ويلقي دعابة أخرى أو ربما حكاية ولكنه عاجز عن المتابعة: اسمه محمود، محمد.. هيا أجهد نفسك قليلاً، نبيل في الغالب:

ـ «أنا آسف، قلت فرج وقصدي...»

بين أسنانه بقايا طعام لونها أبيض. جبنة قريش ولهذا دلالة على الطبقة التي ينتمي إليها. ألست عميقاً؟ يبحث عني ليحدثني في أمر هام. انظر في الساعة وأقول «آسف، بس يعني...» يقول نكتة ويضحك، ربما كان علي أن أضحك أنا أيضاً. مشكلة الأسماء، لا أدري ماذا يحدث لي، إنني أنسى. سوف يقول شيئاً كهذا:

ـ «اللي خد عقلك يتهنى بيه.»

قال شيئاً آخر. سرحان في إيه أو شيئاً كهذا.

ـ «قاعدة لوحدك ليه؟»

بائع الجنبري يضع أمامه كوماً من الجنبري النحيل الأحمر ـ الأبيض، ويقول:

ـ «اتناشر يا بيه.»

عدد تلاميذ المسيح، أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي. يريد ابناً، بطولة النجم الصاعد...

ـ «إزيك يا فرج؟»

يقهقه. خلفية أسنانه سوداء. مشكلة الأسماء. لا تسير حافي القدمين حتى لا تصاب بالبلهارسيا. يوم التلات الظهر. الفتاة التي تسير أمامه طاعنة في الخبرة، تقول للولد الذي يسير بجوارها:

ـ «لا يا خويا، ما اقدرشي اتأخرع البيت..»

صوت فيه حسية ودفق جنسي تجذب الرجل كالمغناطيس.

ـ «لا طبعاً، عايز ماما تزعق لي...»

في العادة أخوها يضربها «كنتي فين يا بنت إلى...» من جرس صوتها يبدو

واضحاً أنها تستطيع أن تغيب عن البيت شهراً كاملاً. الفتى يفح بكلام غير مفهوم. الفتى خائف. ماذا نفعل لنجعل لغة الكتابة تقول ما توحي به لغة النطق؟ فكرة عميقة للغاية. أكتب مقالاً عن هذا الموضوع يدفعون عنه عشرة جنيهات، معاك فكة؟ وبعد خصم الضرائب ستة أو سبعة جنيهات، غير متأكد، الضرائب التصاعدية لحركة التاريخ الصاعدة، ثمن كأسين من الويسكي. أين؟ أين؟ في شارع الهرم، ملهى البيروكية. الراقصة ـ عائشة بنت طلحة ـ اسمها فيفي، أساور وحلقان، وقالت لسكينة بنت الحسين. ولكن ذلك لا أهمية له لأن الجمال مسألة كيفية وليست كمية، الجمال، الاسطاطيقا، علاقات.. مقال عن ذلك.. آه، فرج ذاك، تذكرت، قال شيئاً عن إصدار مجلة بالجهود الذاتية، خير له أن يمارس العادة السرية من هذا الهراء، مجلة، حديث صحفي بالجهود الذاتية.

سؤال : سيادتك تعرفين مالك من وزن يا مدام عائشة...

اندفعت مقاطعة بعنف وغضب :

ـ «أعرف ذلك، وإذا كان يهمك أنت أن تعرف فإن وزني تسعون كيلو جراماً.»

سؤال : سيدتي، لم أكن أعني الوزن المادي وإنما أعني الوزن المعنوي. القيمة الكبيرة التي يعلقها قراء الصحيفة، التي أنا مندوب لها، على أحكامك الجمالية.

ـ «كنت أمزح.»

تقول ذلك بغضب شديد يمزق تماسكه فيضحك باقتضاب مجاملاً ويقول :

كان ذلك لطيفاً منك.

ـ «شكراً»

ـ «شكراً»

سؤال : أود أن أسأل حضرتك عن التصريح الذي أدليت به مؤخراً، إذا كنت تذكرين، وهو قولك أنك أجمل من السيدة ـ ماذا كان اسمها ـ لأن عجيزتك أكبر من عجيزتها. فهل تعتقدين أن ضخامة العجيزة هي المقياس الوحيد للجمال؟ الواقع أن السؤال قد طال أكثر مما يجب ولكن تصريحك يطرح بحدة مسألة الكيف والكم.

ـ «من قال إني قلت ذلك؟»

سؤال : الأستاذ عمر بن أبي ربيعة . أعتقد أنك تذكرينه؟ لقد صدر له ديوان يحتوي مجموعة أشعاره مؤخراً .

ـ «إنه يكذب . »

سؤال : هل أنقل هذا التكذيب عن سيادتك؟

ـ «وإلا لم قلته؟»

سؤال : شكراً يا سيدتي . سوف أثقل عليك بسؤال أخير : من هو كاتبك المفضل؟

ـ «جان جينيه . »

وقالت سكينة : «أدخلت على مصعب وأنا أحسن من النار الموقدة . »

ويوماً تنهدت بنانة ، جاريتها ، تنهيدة كادت لها أضلاعها تتحطم . قالت سكينة .

ـ «مالك ويلك؟»

قالت :

ـ «أحب أن أرى في الدار جلبة . »

تعني العرس .

فارسلت سكينة إلى إبراهيم بن عبدالرحمن بن عوف فتزوجته . فبلغ ذلك بنو هاشم فأنكروه ، وحملوا العصي ، وجاءوا وقاتلوا بني زهرة . وكثر الشجاج ، ثم فرق بينهم . وخيرت سكينة فأبت نكاح إبراهيم . ثم جاء بنو هاشم بكساء طاروقي فبسطوه ثم حملوها . فالتفتت إلى بنانة وهي محمولة وقالت لها :

ـ «يا بنانة ، ارأيت في الدار جلبة؟»

قالت بنانة :

ـ «أي والله إلا أنها شديدة . »

ويبدو له الوجه الأبيض الكبير . تتراءى له سائرة عبر حجرة الجلوس . تمتصه الذكرى ـ الرعب .

فيغيب عن الشارع . يعلو ويعلو ويبتعد .

٤

الرعب وراء الباب

في الخارج مطر يسقط رتيباً وريح لها أنين ممطوط، طويل، خافت وهي تمر بين الأشجار. لا أصوات أخرى، ورأسه على كتفها، قال لها :

ـ «عايزاني أمشي الساعة كام؟»

نظرت إليه كأنها تود أن تكتشف شيئاً في وجهه. تعبير وجهها كان خالياً من حس الفكاهة.

كانا في بيتها والساعة تشير إلى العاشرة. كانت تنظر ما تزال، فقال :

ـ «هاه؟»

ولماذا تمشي؟ قالت. قال : قبل أن يجيء. قالت : ولكنني قلت لك. قال : ماذا قلت؟ قالت : قلت لك. قال : ماذا؟ قالت :

ـ «قلت لك إنه في المستشفى.»

قال : ما الذي حدث؟ قالت :

ـ «بيعمل عملية بواسير.»

ضحك بصوت مرتفع. كان ذلك بالرغم منه. قال :

ـ «قلتي بواسير؟»

هزت رأسها وهي تبتسم خجلة. فكر أن الأمور الآن تبدو في ضوء جديد. فخلع حذاءه.

وعندها غادرته وذهبت إلى المطبخ. البسمة الخجول ومشيتها الأليفة إلى المطبخ ابتعثتا فرحاً خاصاً للغاية. بعد لحظات شعر برغبة ملحة إلحاحاً لا يطاق أن يلمسها، أن يشعر أنها ممنوحة له في كل الأوقات وكل الأمكنة. تبعها إلى المطبخ وفاجأها من الخلف. أحاطها بيديه، وأمسك بثدييها، وقبل شعرها. ارتعشت للمباغتة، ثم

سكنت. بعد قليل وضعت الشوكة التي تقلب بها اللحمة على الطرابيزة بجوار موقد البوتاجاز، ثم أدارت مفتاح الموقد فانخفضت شعلته، ثم أمسكت بفوطة صغيرة للغاية وأخذت تجفف يديها. تنهدت بعمق ولوت عنقها وقبلت خده. وبعد ذلك أخذت تستدير ببطء شديد كأنها تتحرك في وسط زحام أتوبيس مسرع. واجهته بعينين مسبلتين وشفتين منفرجتين قليلاً. كانت ذراعاه ممتلئتين بها ولكنهما عاجزتين عن الإحاطة بها وامتلاكها كلية.

ـ «إيه؟»

قال لها.

وضعت رأسها على كتفه وتأوهت.

حين أخذ يقبلها قبلات كثيرة شبكت أصابعها خلف ظهره وأخذت تضغط جسده بذراعيها السمينتين، القصيرتين. كانت قوية دون شك وكان يختنق.

انفلتت منه فجأة وقالت:

ـ «اللحمة حاتتحرق.»

خرج من المطبخ ودخل الصالون. أشعل سيجارة وشرب جرعة كبيرة من كأس البراندي. كان مجرد ماء مثلج. أضاف كمية أخرى من البراندي وشرب الكأس دفعة واحدة.

***

كانت شقتها في الدور الأخير تحتل نصف السطح والنصف الباقي المسور كان حوشاً لها وبلكونة.

كانا يقفان على السور متجاورين، كتفها القريبة منه تضغط على صدره. مد ذراعه وأحاط عنقها. كانت حركة مصارع يود أن يدق عنق خصمه. وقفا هكذا تمثالين في لوحة واحدة. بين آن وآخر تفرك خدها بكتفه القريب وتئن.

رذاذ خفيف، خفيف يسقط في شعره، يحس به كلمسات أنامل رقيقة، والهواء نقي، خصب برائحة الأرض والأشجار والعشب المبلولة. هذا الهواء الدسم الخائر كالنبيذ المعتق يفتت هذا الثقل الذي يرزح على صدره. يقول لها: هذا الجو النقي بعد جو القاهرة المشبع بعادم العربات ودخان السولار وأنفاس وروائح عشرة ملايين

إنسان، ولا يتم جملته. يقول إنه كان يظن أنها تسكن في باب الحديد، لأنه كان يسير معها إلى هناك عندما يوصلها، قالت :

ـ «ماما ساكنة هناك.»

يستنشق الهواء بعمق كأنه يتزود به لرحلة العودة. كاد أن يحبها ـ أو شك أن يقترح عليها حباً طويلاً لا ينتهي ـ لأجل هذه الضاحية والأشجار الكثيفة على امتداد العين والهدوء المسيطر. ولكنه في قمة نشوته تلك يعلم أن هذا الحب لن يكون ولن يستمر، وهي تقف ملاصقة تضغط بخدها الأيسر على خده وتقول إن ذلك يشبه أيام زمان، يشبه ما كانت تريده أن يكون. ويقول لها مغالباً انفعاله إنه يعلم. وبقلب ملتاع، مكدود بالخيبة والهزيمة، تراءت أمامه ما تعنيه أيام زمان بالنسبة لها، وانفتح جرح الذكرى. كانت مؤلمة وجميلة كأنها ذكراه الخاصة :

شوارع مصر الجديدة مشمسة بعد المطر وحدائقها التي تتوسط الشارع وتنساب طويلة على امتداده، وقطرات المطر العالقة بأوراق الشجر تبرق وتتفزز بضوء الشمس، تكاد تكون معجونة به. وهي، ممشوقة، متضرجة الوجه، طويلة الساقين، تلبس بنطلوناً وتركب عجلة تدور بها بين الحدائق، تسابق صديقاتها وتزعق بمرح، ترشف عطور التراب المبلول والأشجار والأزهار في الحدائق الصغيرة المحيطة بالفيلات.

هل كنت تظنين أن الحياة سوف تنتهي بك هكذا سمينة، مدورة، تطفئين الرغبات العابرة لأناس لا يحملون لك إلا السخرية، وأنت خلال ذلك تعيشين على وهم أن تصبحي رسامة مشهورة؟

يود أن يصفعها بالسؤال، ولكنه يعرف الإجابة لأنها في داخلها، يحسها بذلك الموت الذي يزحف ببطء مصمم، متعال، يلتهم خلاياه دون توقف.

ها هو البكاء ينفذ فيه، يخنقه، باعثاً صقيعاً في سقف رأسه، يضغط على أنفه وعينيه. بكاء من أجلها لأنه رأى فيها نفسه، رآها تعليقاً صادقاً، عميقاً على أوهامه.

يبعد ذراعه عن عنقها ويلفها حول خصرها. يقول لها إنه سعيد بها، بجد هو سعيد، وهي تملؤه حباً. وجذبها إليه أكثر. استجابتها كسرت طوق اللحظة الرائعة. أحاطته بذراعيها ورفعته عن الأرض وأعادته وهي تضحك وتلهث.

كانت ثقيلة عندما حملها. عاركته ضاحكة وعاركها واستثير فحاول أن يضاجعها

على طرف السور. استجابت له، ولكن ذلك كان صعباً فقالت بصوت لاهث :

ـ «حاتبرد، ندخل جوه.»

كانت تحته تتوجع، تحرك رأسها يميناً وشمالاً كأنها تحاول أن تتفادى يداً سوف تكتم أنفاسها. وهو خلال ذلك يسجل ما يدور محاولاً وضعه في عبارات قيلت كثيراً، وفي عمق آخر منه، يتساءل : هل هذا هو كل شيء؟ لقد كان يعلم، في كل مرة كان يعلم، ولكنه مفاجأ أبداً بتلك المعرفة.

يقبلها فتئن وتوقف حركة رأسها، ثم ينفلت فمها من إمساكة فمه ويدور شمالاً ويميناً بتوقيع منتظم. يحاول اقتناص الفم مرة أخرى فيحرك رأسه كأنه أفعى تناوش عصفوراً فيلمس فمها، مجرد لمس، في عبوره نصف الدائري ثم يبتعد عنه.

ـ «نو، نو، نو...»

قالت، وانتهى كل شيء.

بعد قليل كانت تجلس على مرتبة ملقاة على أرض الحجرة. كان هو يضع رأسه على فخذها. شرب جرعة من كأس البراندي ثم مد يده في داخل الروب الحريري الأصفر وأخذ يداعبها. كان ذلك يضحكها قليلاً ولكنه لا يمنعها من مواصلة الحديث : أن حبهما قد أعاد لها أيام زمان بعد أن اعتقدت أن تلك الأيام قد انتهت ولن تعود.

ثم صمتت، تنظر دون تحديد.

يدها كانت تداعب شعره وهي مستغرقة تفكر في شيء ما عندما تنبه إلى ذلك الذي يحدث. اختلج قلبه بالفزع حتى قبل أن يتبين دلالته. لقد كان يسمع ذلك منذ بعض الوقت، ولكنه في تلك اللحظة فقط أدرك ما يعنيه. أخذ يصغي. كانت هنالك اقدام تصعد السلم، خطواتها ثابتة، راسخة العزم، ووقعها واضح محدد. شعر أن في تلك الخطوات نذيراً وقصداً موجهين إليه شخصياً.

اضطرب وحاول أن يرفع رأسه. توقفت يداها ومالت نحوه، وأصبح وجهها قريباً من وجهه. أخذ يدقق السمع ليتأكد قبل أن يخبرها، فقالت بصوت واضح :

ـ «مالك؟»

قبلت شعره.

ـ «فيه إيه؟»

قالت . لم يجب . كان يصغي . توقف الصوت .

قالت :

ـ «تعبان؟»

أخذ يسمع الخطوات مرة أخرى . قال :

ـ «إيه ده؟»

انحنت نحوه . شعرها يتفلت، وينساب ببطء ويحجب الضوء عنه كأنه جناح غراب . يلمس الشعر أنفه فيشعر برغبة في العطس، ووجهها قريب ومنزعج . قالت :

ـ «إيه؟»

قال بهمس مختنق :

ـ «فيه حد طالع السلم . »

أدارت رأسها نحو باب الشقة، ورشقته بنظرة متفحصة متسائلة وهي تشد الروب حول جسدها مخفية بذلك نحرها . ثم التفتت إليه وقالت :

ـ «حد من السكان . »

قالت ذلك بصوت طبيعي تماماً . ومدت ذراعها حول كتفيه وأمسكت يده بيدها الأخرى وأخذت تقبل باطنها . من الواضح أن تلك الخطوات لم تثر فيها أدنى قلق . التفت إليها وقبل خدها . لم يعد في ذلك أي متعة . لهثت واحتضنته بقوة وقالت :

ـ «حبيبي ! »

ثم هدأت ووضعت رأسها على كتفه وأخذت تداعب أزرار قميصه، وسمعها تقول إنها سعيدة . لم يكن متأكداً أنه سمعها جيداً فسألها هامساً :

ـ «قلتي إيه؟»

قالت :

ـ «لو سبتني حا أموت نفسي . »

قال :

ـ «كده؟»

قلبه يدق في أذنيه . أخذ يصغي . اكتشف أن هنالك أصواتاً كثيرة لم يكن قد تنبه

إليها قبل تلك اللحظة. كان هنالك صوت ماكينة المياه تدفع الماء إلى الخزانات الموضوعة على السطوح، ونفير عربة، وصوت قطار بعيد يخبط القضبان الحديدية بإيقاع منتظم رتيب.

قال لها إن الخطوات قد توقفت. كانت عبارته في صيغة سؤال.

التفتت إليه بدهشة وقالت :

ـ «إيه اللي توقف؟»

ثم تذكرت. قالت :

ـ «حد من السكان.»

قال لها إنه لم يسمع باباً يفتح أو يغلق. كان يفح بهمس مختنق، أعاد ما قاله مرة أخرى كأنه يرجوها أن تطمئنه.

لم ترد. مطت عنقها وقبلت ذقنه. رأى أن احمراراً خفيفاً قد تسرب إلى عينيها. قالت :

ـ «نعسان؟»

توقفت الخطوات بعض الوقت. أحس بالقادم يتردد : هل يواصل الصعود أم يعود من حيث أتى؟ غير أن ذلك التوقف، الصمت، ما زال يبعث نذيره إليه. بدا له ذلك التوقف تحفزاً مدروساً. قالت بذلك الصوت الصغير الذي يميز المراهقات : لو أنها فقدته، لو أنه ابتعد عنها وانتهت هذه السعادة وعادت هي إلى روتين حياتها القديم فالحياة عندها سوف تكون هي والموت سواء. أحس أنها تكلمت طويلاً، وأنها على نحو ما تتحدث خارج السياق وأن عليه أن ينبهها إلى ذلك.

انتفض فجأة ودفعها عنه. قال :

ـ «سامعة؟»

الخطوات استأنفت الصعود، ولكنها في هذه المرة تحمل تأكيداً ما، عزماً أن تكون واضحة وضوحاً لا يتسرب إليه الشك للحظة واحدة.

ضحكت وقالت :

ـ «إنت مش عايز حد يطلع السلم؟ دي العمارة فيها عشر شقق غير شقتي.»

قال :

ـ «بس هيه الخطوات نفسها . »

مالت نحوه وأخذت تقبله قبلات صغيرة ، متتالية على فمه وذقنه وعينيه وأنفه وهي تهمهم :

«يا وحش . . . »

وتواصل التقبيل . ثم تتنهد وتقول إنه هو الوحيد الذي تحس معه بمثل هذه السعادة . وتضحك وهي تقول :

«كنت قربت أنسى الحب . »

كان من الواضح أن تلك الخطوات لا تثير انزعاجها ولا حتى انتباهها .

قالت :

ـ «مالك؟»

نظر إليها وأدار وجهه . قالت :

ـ «مش عايز تبوسني؟»

لما رأته لا يستجيب قالت إنها سوف تحكي له نكتة ، بتضحك موت . وأخذت تحكي . لم يكن مصغياً لها . سمعها تحكي شيئاً عن مستشفى المجاذيب ، ثم «أنا الدكتور . . » أو شيئاً كهذا . كان انتباهه مشدوداً إلى تلك الخطوات التي تصعد السلم بحسم ، فتيقن بشكل قاطع أن صاحبها يتجه إلى الشقة . قال لها وهي ما تزال تضحك مغمضة العينين للنكتة التي يبدو أنها انتهت من روايتها وهو يشير إلى الخارج :

ـ «فيه حد جاي . »

التفتت التفاتة يسيرة وتركزت نظرتها بتساؤل على باب الشقة كأنها تتوقع دخول شخص سوف ينبثق من الباب بعد قليل . رأى أن الدم قد هرب من وجهها وأن شفتيها الحمراوين دائماً قد أصبح لونهما أصفر . ثم قالت وعيناها كبيرتان تحدقان :

ـ «الشقة اللي تحتينا . »

أصغت قليلاً ، وانفرج وجهها ، قالت :

ـ «قلت لك الشقة اللي تحتينا . »

إلا أنه في تلك اللحظة نفسها استأنفت الخطوات صعودها. وضعت إصبعها على شفتيها آمرة بالصمت، وجلست مستقيمة يقظة النظرة.

أخذ يبحث في جيوبه فأخرج قلم حبر جاف وكراسة صغيرة. كتب بخط كبير :

ـ «هوه؟»

تمعنت في الكلمة طويلاً وتمتمت :

«هره؟»

ثم نطقت الكلمة الصحيحة :

ـ «هوه»

لمست الكلمة بسبابتها، ثم أومأت برأسها عدة مرات : إنه هو. كتب :

ـ «مش انتي قلتي إنه في المستشفى بيعمل عملية بواسير؟»

قرأت ما كتبه بعينين محدقتين، ثم رفعت كتفيها فسقط رأسها بينهما، وضمت شفتيها فأصبح فمها كالوردة. همست شيئاً لم يتبينه فتساءل بعينيه، فقالت :

ـ «مش عارفة.»

همس مغيظاً :

ـ «مش عارفة؟»

أخذت القلم منه وأحنت رأسها حتى كاد وجهها يلامس الورقة. أخفت خصلات شعرها ما تكتب. استطاع أن يلاحظ أن شعرها، رغم مظهره الغزير وسواده الحالك، فمنبته ضعيف وشاحب. عندما رفعت رأسها قرأ :

ـ «في هذا اليوم التاسعة صباحاً أخذ الروب والبيجاما ومرهم البواسير وقال حعمل عملية بواسير الساعة ١٢»

كتب :

ـ «١٢ إمتى؟»

كتبت :

«١٢، الساعة ١٢».

كتب :

ـ «١٢ الظهر والا بالليل؟»

كتبت :

ـ «الظهر طبعاً.»

كتب :

ـ «عملها والا ما عملهاش؟»

كتب :

ـ «عملها.»

كتب :

ـ «عرفتي ازاي؟»

كتبت :

ـ «اتصلت بالتليفون قالوا عملها.»

الخطوات أكملت الصعود، ثم أخذت تقترب بخفة من الباب، ثم توقفت ولكن احتكاك القدمين بالأرض ما زال مستمراً. مرت لحظات ثم أخذ يسمع ذلك الصوت. كان صوت ضغط جسده على الباب. كان صوتاً خافتاً يشبه تمزقاً بطيئاً لثوب قديم أو كالصوت الصادر عن كرسي خشبي عند الجلوس عليه.

الرعب الذي بعثه ذلك الصوت يتولد من جديد كلما استعاده. أمسك القلم وقرر أن يكتب : «إنه يتنصت». ولكنه عدل عن ذلك وكتب بدلاً منه :

ـ «حاتفتحي الباب؟»

نظرت إليه ثم نظرت إلى الباب طويلاً. عاودت القراءة، فاتسعت عيناها حتى بدا الجزء الملون مجرد كرة صغيرة تدور بجنون في بياض شاسع. كانت تتنفس بصعوبة. حركت شفتيها دون أن يصدر عنها صوت. كتب :

ـ «مش فاهم.»

حاولت أن تتكلم مرة أخرى ولكن دون جدوى. أمسكت القلم وكتبت. ابيضت أظافرها بالمجهود ـ كانت تحفر في الورق. كان ما كتبته مجرد خطوط لم يستطع أن يستجلي منها شيئاً. وضع سبابته فوق عبارة «مش فاهم» وأخذ يشير إليها عدة مرات

بإصبعه ولكنها نظرت إليها للحظة عابرة ثم أخذت تحدق بالباب. أمسك بذقنها وأدار وجهها إليه ثم أشار مرة أخرى إلى عبارة «مش فاهم». أخذت تنظر إليه وإلى العبارة بذهول. فكر أنها عاجزة عن فهم ما يريد فالعبارة نفسها مبهمة: «مش فاهم» ماذا؟ ولكنها فاجأته بأن خطفت القلم من يده وكتبت بسرعة وعصبية، ثم أعادت الكتابة. قرأ:

ـ «مش مهم.»

«مش مهم» ماذا؟ ما هو الذي ليس مهماً، أخذ يسائل نفسه. كانت تلهث ونظرتها تائهة. فركت أنفها وفمها، ثم أدنت الورقة وكتبت:

ـ «أصله شاف النور.»

كتب:

ـ «حاتفتحي؟»

ثم أضاف:

ـ «حاتفتحي الباب؟»

أمسكت الورقة بيدها وتمعنت فيها، فركت عينيها بيدها الأخرى ثم وضعت إبهامها على عبارة «اصله شاف النور» وأخذت تمرره فوقها.

حاول أن يفهم ما تعنيه ولكن ذلك استغلق عليه. أمسك يدها وقبل باطنها. كانت جافة باردة. ثم تبين له أنها تعني أنها سوف تفتح الباب لأن الآخر رأى أن الشقة مضاءة. كان ينوي أن يسألها أو يقترح عليها شيئاً ما ولكنه عجز عن تذكر ذلك الشيء. مد يده داخل الروب الذي ترتديه وأمسك إحدى ثنيات بطنها. كانت في يده سمينة، صلبة وزلقة، وهي تنظر إلى موضع يده داخل الروب بعينين جاحظتين، منزعجتين للغاية. ثم خطر له أن يسأل متى تفتح الباب. أخرج يده من داخل الروب فتنفست بارتياح. كتب:

ـ «امتى حاتفتحي الباب؟»

كتبت:

ـ «لما يضرب الجرس.»

أحاط كتفيها بذراعه وضمها إليه. وحين قبل خدها القريب أبعدت وجهها وهي

تومئ برأسها وتشير بسبابتها إلى الباب. ثم هدأت، وضعت رأسها على كتفه واستكنت. جلس ساكناً تماماً لأن كل حركة منه سوف تجعلها تفاجأ.

كم من الوقت استمرا على هذا الوضع، ساعتين، ثلاثاً، أربعاً؟ لا يستطيع أن يجزم بذلك، ربما أكثر من ذلك، أو ربما أقل، ولكن ذلك الضغط الملح على الباب اتصل مصدراً ذلك الصوت الهين الذي يشبه تهتك ثوب قديم. ولن ينسى أبداً صوت خرير ماء يتسرب ببطء إلى البالوعة قادماً من الحمام.

همس في أذنها :

ـ «بتحبيني؟»

نظرت إليه طويلاً ولم تقل شيئاً. فكر أن الليل يقترب من نهايته، بائع اللبن سوف يعبر باب العمارة وسوف تنفتح أبواب الشقق لتستلم منه اللبن نساء نصف نائمات، صاحب قدرة الفول يقف الآن في الميدان يضع الأطباق الصغيرة المطلية بالقيشاني الأزرق والأبيض متجاورة على سطح عربته، ويملؤها بالفول الساخن ويضيف إليها الزيت الحار وقليلاً من الملح والشطة وسلطة من الطماطم والجرجير والبصل. سوف يأتي عمال الورديات المبكرة بأوفرولات زرقاء، أو صعايدة بجلابيب وعمم بيضاء ويأكلون إفطارهم وهم واقفون، والبخار يتسرب من أنوفهم وأفواههم كأنهم ينفثون دخان سجاير. عمال النظافة، الآن، يجمعون القمامة من فوق الأرصفة بمكانسهم الطويلة ثم يضعونها في مقاطف مصنوعة من ورق النخيل يحملونها بعد ذلك إلى العربية المربوطة إلى حمار. يمر الأتوبيس نصف فارغ. التلميذات الصغيرات يسرعن صاخبات، نزقات، يتفززن بالحيوية، إلى مدارسهن. خادمات الطلبة المغتربين يعبرن الميدان، متشحات بالسواد بإحساس من تأخر.

بدا الخارج له مشحوناً ببراءة وتلقائية أفعمت قلبه بالشوق. عبر عن شوقه بسؤال طرحه على نفسه : «أين سوف أكون بعد أربع وعشرين ساعة؟» ضمها إليه، اقترب بفمه من أذنها وهمس :

ـ «بتحبيني؟»

أومأت برأسها مرة واحدة إيجاباً، ثم أعادت الرأس إلى كتفه. همس :

ـ «أنا بحبك.»

وضعت سبابتها على شفتيها ودعته إلى الصمت . . . صوت فرامل، والعربة تكاد تلمسه، وسائقها يمد رأسه من شباكها ويدعوه ابن زانية ومسطولاً، والمكان غريب كأنه سقط فيه فجأة دون تمهيد والوجوه حوله غاضبة، محتجة، متسائلة. حاول أن يقول شيئاً ولكن حلقه كان جافاً، فلم تطلع منه كلمة. والأصوات تتعالى، تختلط : «يا جماعة، دا خواجه» «ده ما بيفهمش عربي» ويقترب منه وجه ضاحك ويصيح :

ـ «واكل داتورة يا خواجه؟»

وشاب يقف على الرصيف الأوسط للشارع قال :

ـ «لما يكون خواجه مش حايعرف إذا كان النور أحمر والا أخضر!»

رجل له وجه قرد، محتقن بالغضب والتقوى، تسلل من بين الزحام يمسك بطرف جاكتته ويجذبه ثم يقترب بفمه من أذنه ويزعق كلماته ببطء :

ـ «رد لايت مش يعدي. فاهم يا خواجه؟»

هز رأسه وقال :

ـ «فاهم.»

ابتسم الرجل ـ القرد لمن حوله وقال :

ـ «بيقول فاهم.»

ويضحك ثم يتوجه إليه :

ـ «إنت يعدي وفيه رد لايت إنت يموت يا جوني. إنت فاهم جود فولي جود.»

يتساءل رجل قصير للغاية :

ـ «إنت واحد روسي؟»

يحاول آخر أن يصحح :

ـ «يعني إنت خروشوف، روسي؟»

فيزعق الرجل القرد :

ـ «روسي والا بلجيكي إنت حتناسبه يا أخي!»

وصوت في طرف الزحام يقول :

ـ «ده ما بيعرفشي ولا كلمة عربي.»

في داخله الدوار الفرح للحرية التي كاد أن يمتلكها : الموت . في الطرف الآخر من الشارع تمتد حديقة الأزبكية ، اشتاق أن ينزوي في عتمة أشجارها . . يتذكر : كانت الفتاة تجلس بجواره و . . . ويمد ذراعه ويحني رأسه :

ـ «قاعدة لوحدك ليه يا مدام؟»

الرجل ـ القرد يشير بيده ويقول له :

ـ «إنت لازم يفتح عينك كويس . رد لايت يستنى شويه . »

نجح فريق من الجراحين الكنديين في زراعة الإصبع الكبيرة لقدم شاب محل إبهام يده اليمنى . . ويفاجئه الرجل قائلاً باشمئزاز ووجهه قريب للغاية :

ـ «إنت فاهم يا خواجه والا بس بتهز راسك على الفاضي والمليان؟»

يصرخ هو بحدة :

«إيه الحكاية يا جماعة!»

ـ «الله ، دا بيتكلم عربي زي البربند!»

ويضحك الذي قال ذلك . كومضة البرق يتذكر : «فوجئت طالبات المدينة الجامعية بالجيزة بزميلتهن تصعد إلى الطابق الخامس بملابس النوم ، ثم تلقي بنفسها إلى الأرض وقد ماتت . . كانت منطوية على نفسها . . » في أطراف الجمع عينان متسعتان بالدهشة والتساؤل ، عزة ، ليست عزة ، بل . . . يمسك الرجل ـ القرد بيده ، يجذبه ، ويجتاز به الشارع مسرعاً عبر الجمع ، ويميل نحوه وهو يفعل ذلك ويقول وهو ينطق كلماته ببطء وبصوت مرتفع كأنه يخاطب أصماً :

ـ «دلوقتي . . إنت . . ممكن . . يعدي . »

كان الرجل يزعق بذلك قرب أذنه ، فجذب يده من الرجل ، فقال الأخير بضيق وهو يشير إلى ضوء الإشارة الأخضر بإصبعه :

ـ «خايف من إيه؟ جرين لايت . »

يشعر وهو يجتاز الشارع بتلك الفجوة التي أحدثتها العربة التي لم تصدمه . . يشعر بها في جانبه الأيسر معلقة ، رطبة ، ممتعة . كانت الفجوة منفذاً لأفراح قديمة ، لحلم الطفل بأن يفقد هذا الجسد استجابته لقانون الطبيعة . حديقة الأزبكية أمامه . في

غبشة الغروب، وقد أضفت عليها العتمة تفصيلات وتهاويل، أصبحت دغلاً. يجتاحه الرعب فجأة : يجب الاطمئنان على فاطمة . . أين التليفون؟ هنالك دائماً طابور طويل من المنتظرين الذين لا يراعون الدور وكل شيء يجب أن يؤخذ بالذراع - مثل التاكسيات - يجب الاتصال . . هالو . . مين؟ ثم صوت الأب . . أيوه؟ ثم يمتص يقظته ذلك الجزء الكثيف من جنينة الأزبكية. صمت طويل. نرى جذوع الأشجار فقط، وبينها حشائش لامعة الخضرة.

تنتقل الكاميرا إلى مجرى مائي يندفع صاخباً، مزبداً دون صوت. ثم نعود إلى جذوع الأشجار والحشائش البراقة، والصمت، صمت . . وببطء شديد تبدو الأفعى حمراء براقة كأنها خط ناري يسري بين الحشائش. خطان أسودان يمتدان بطولها وهي تنساب بين الحشائش البراقة. ثم يتوقف كل شيء، وتنظر الأفعى إليه، يتبادل معها النظرات . . وفجأة تعدو جذوع الأشجار وتتوقف. يظهر نهر كأنه انبثق من الأرض فجأة له خرير رتيب . . تظلم الشاشة. الفلم من تصوير ملك بلجيكا، صوّره في الكونجو. في الغابات الغريبة والصحاري. راكيل ولش ممزقة الثياب وجسدها القوي الفارع الأسمر الذي لوّحته الشمس . . عينان بنفسجيتان غريبتان في سمرة ذلك الوجه، تنسل بين الأشجار بثقة. الأسد يعدو وسط الغابة، وجسده متصلب، ولكنه يعدو بسرعة مخيفة. يقترب، يقترب، ينهض فرانسيس ماكومبر. الصياد يطلق النار على الأسد ويضاجع الزوجة، تدخل الخيمة في الليل :

ـ «كلبه؟»

ـ «جبان؟»

الدم ينتشر سريعاً على الإسفلت (تمسك زوجته البندقية وتصوب إلى وحيد القرن، إليه . .) يجب الاطمئنان على فاطمة.

ـ «هالو . . . ؟ أبداً ، بس عايز . . »

ـ «مين؟ آه . . . »

في الخلفية تنهدات . . نحيب . .

يسير على رصيف الشارع، يستظل بأغصان الشجر، يسير بمشية الحبلى : متصلباً، متباعد الساقين، يرتكز ثقله على الطرفين الخارجيين لقدميه. يتأرجح جسده

بلحن بكائية تردد بها امرأة جالسة، يدور جذعها مع اللحن في انحناءات دائرية. يتفشى اللحن في داخله حزيناً، حزيناً، إلى أن يكتمل، ثم فترة صمت قصيرة ينبت اللحن خلالها مرة أخرى ويأخذ مساره.

«قضيت عمري وانا بمداراة صاحبي

لا صاحبي راضي ولا العمر خالص.»

وشمس الظهيرة تفتت العزم، تسلمه لانحلال الوعي، والغوص في الذكرى والاستسلام لها، لتلقيه في قبضة ذلك الأنين الدائري المطوط. يخطو نحو الباب عابراً ظلاً كثيفاً هلامي الملمس يأخذ قوامه من رطوبة المنور. ينفتح الباب على العتمة. الصالة صورة فوتوغرافية بالأبيض والأسود منقولة عن إحدى لوحات بروجل. نساء متشحات بالسواد، ملفوفات ومقيدات به، يجلسن على امتداد جدران الصالة: كرات سوداء، كبيرة، منفصلة ومتجاورة، صامتة، دامعة، مبلولة الأنوف والوجنات. ينزلق متكئاً على سطح القتامة السمراء ضوء قادم من فتحة الشيش الضيقة، ضوء أبيض يبث لحن البكائية على الوجوه الساكنة، والعيون السوداء الصغيرة المتسائلة بأسى. صمت تحفز، صمت انتظار ملهوف، وتنطلق الصرخة يتتالى صداها، يتتابع، ثم يرق ويخفت ويظل معلقاً في الهواء. والدم على إسفلت الشارع اللامع والعربة تختفي في المنعطف.

تباغته مصابيح الشوارع التي أضاءت دفعة واحدة. إنه الليل، قال لنفسه، وكأنه فقد شيئاً عزيزاً. المصابيح الملونة في الكازينو الذي على يمينه ما تزال مطفأة. ألوانها سوقية وهي هكذا. حمراء وخضراء وصفراء وبرتقالية تتدلى متربة بين الأغصان. في هذا الكازينو كتب قصصه الأولى. كان يعتقد أن الكتابة يجب أن تتم في مكان كهذا حيث الشجر، وأحواض الورد البلدي، والجدول الصغير الذي ينتهي ببركة صغيرة مغطاة بنباتات عريضة الورد وزهور بيضاء. وفي هذا الكازينو جلس مع المومسات حين كن يملكن الوقت الكافي ـ قبل موجة السياحة ـ واستمع إليهن يروين تواريخ حياتهن وهن يشربن البيرة المثلجة. عند السور الغربي، في الطرف، كانت تجلس الممثلة التي كانت يوماً مشهورة ثم تحولت إلى مدمنة أفيون وسكيرة. كانت تشرب البيرة بلا انقطاع وتدعو المارة أن يجلسوا معها. جلس معها مرة ولم يكررها بعد ذلك. كانت كئيبة، ومتوترة الأعصاب. وعندما تتكلم كانت تضع بين كل كلمة وأخرى:

«أنا» فلانة الفلانية، وهذا اسمها هي، هي التي صنعت ذلك المخرج، وهي التي جعلت ذلك الفيلم ينجح. المسرح والسينما الآن ماتا عندما توقفت عن التمثيل.. هي، هي، لما لا نهاية. كانت تتحدث عن نفسها كأنها إنسانة أخرى. كانت ممثلة جيدة دون ريب، ولكنها تستحق ما يحدث لها. غادرها وهو مكتئب، وهو يكرهها كراهية حقيقية ويكره كل شيء. كانت تنظر إليه بعد ذلك عندما يدخل الكازينو وتبتسم له فيتجاوزها مسرعاً، محرجاً. لم يكن يريد أن يهينها، ولكنه ـ لم يعد يستطيع أن يعاود الجلوس معها وسماع كراهيتها للعالم.

كان الكازينو مزدحماً بالرواد. يطالع الرواد. لم يستطع التعرف على أحد. يجتازه، ويمشي ببطء أمام أكشاك الكتب القديمة على السور. صاحب أحد الاكشاك يمد يده إلى مفتاح النور وينظر إلى السماء. يقف متردداً: هل يعلن عن الليل؟ يعزم فجأة فينفجر الضوء. تصعد نحوه صورة لمحمد عبدالوهاب على غلاف كتاب بحجم اليد. الوجه مبتئس، مكدود، النظارة الطبية تخفي عينيه وتجعلهما بقعتين من اللون الأبيض. والرأس صلعاء. كانت صورته تجعله يبدو كسمكة خرجت لتوها من الماء. ظهر في التلفزيون منذ فترة قصيرة، بضع باروكة يخفي بها صلعته، وقد خلع النظارة الطبية، وقد راح يلقي نظرة رهيبة، مفزعة في الفراغ. كان يمسك بعصا المايسترو يحركها صعوداً وهبوطاً برتابة ميكانيكية طيلة الوقت. ثم تظهر شادية واقفة على قاعدة خشبية ضيقة، وتغني: وطني حبيبي وطني الأكبر.. ثم تظهر وردة الجزائرية وعبدالحليم حافظ، وفايدة كامل. المفروض أن عصا المايسترو التي يمسكها محمد عبدالوهاب هي التي تقودهم وأنهم لولاها لما استطاعوا أن يقولوا: «وطني حبيبي، وطني الأكبر، يوم عن يوم أمجاده بتكتر، وانتصاراته، ماليه حياته..» وتاه منهم اللحن تماماً. وقد صرح عبدالوهاب بعد ذلك أنه ما يزال في ربيع العمر. صحفي، نسي اسمه، اعتبر هذا التصريح معجزة، ودعا الشباب أن يتعلموا من هذا الرائد الكبير... ويسترجع هو صوته الشاكي: «يا اللي ساكن في قلبي. لما يدوب قلبي، حاتروح فين؟» دون حس فكاهة أبداً.. ما تقولشي حاتجوز إلا لما تلاقي شقة.. أصلك إنت بمش واخذ بال سيادتك.. التوسع في العمران.. لازم يعني يكون في الصحراء.. أما الأراضي الزراعية.. أنا لما كنت في أوروبا.. ويمد ذراعه.. «قاعدة؟»... طبعاً، طبعاً،

ـ «طبعاً، طبعاً، أوروبا مختلفة . . »

ـ «ما هو بقول لسيادتك، زي ما كنت بقول لما كنت في أوروبا يعني، من . . . »

ـ «الكتاب ده بكام يا ريس؟»

ـ «جميع الكتب هنا بقرشين . »

ـ «طبعاً . . . »

٥

لقاء مع جمال الدين الأفغاني

قال له الأب إنهم كانوا ينتظرونه يوم الجمعة الماضي. قال هو إن ذلك صحيح فقد وعدهم أن يأتي. قال الأب إنهم انتظروه طويلاً ولكنه لم يأت. إنهم لم يغادروا البيت طيلة ذلك اليوم.

قال هو، هل كان ذلك بسببه؟

قال الأب بعد أن تلكأ قليلاً..

ـ «يعني...»

ثم قال إنهم لا يحبون أن يغادروا البيت في يوم الجمعة في هذا الحر.

فقال هو إنه آسف للغاية، ولكن الذي حدث هو أن ضيوفاً غير منتظرين جاءوا على غير انتظار. لم يرهم منذ زمن طويل جاؤوا فجأة فلم يستطع الاعتذار.

قال الأب، بالطبع لا بد أن هنالك سبباً ما منعه من الحضور، وقد قال ذلك لزوجته. ونظر إليها لتؤكد ما قاله. كانت الأم تائهة النظرة، تصغي. ثم اكتشفت أنها مطالبة أن تقول شيئاً. فابتسمت، ونظرت إليهما وقالت:

ـ «ما جتشي ليه الأسبوع اللي فات؟»

قال:

ـ «ضيوف.. كنت بقول..»

ثم صمت الجميع. أحس أنه مطالب بالمزيد من التبرير، فقال، بل إنه حاول أن يتصل بالتليفون ولكن التليفون كان مشغولاً طيلة الوقت فاعتقد أنه معطل.

قال الأب:

ـ «تليفونا ما بيتعطلشي أبداً..»

فأدرك هو أنه أخطأ فصمت. نهضت الأم وقالت :

ـ «حا عملك قهوة. . »

حاول أن يتكلم فاضافت :

ـ «عارفة، عاالريحة. . . »

وضحكت. دائماً تضحك لأسباب غير واضحة تماماً. ثم انصرفت إلى المطبخ وعادت بعد قليل بفنجان القهوة. وانتهى من القهوة وحملت الأم الفنجان إلى الداخل. وتناول الأب الصحيفة التي أتى هو بها واستغرق في القراءة. عبوس وجه الأب كان يدل على أنه غير راض عما يقرأ، أما هو فقد غلبه الإيقاع فأخذ يدقه على الطرابيزة الخشبية التي بجواره. التفتت إليه الطفلة فغالب خجله وواصل الإيقاع. والطفلة تطالعه بنظرة أسيانة، متعالية، تقول : «وفي مثل سنك هذا، وأمام مثل هذا الأب. . ؟ ألا تخجل. . ؟!» ثم سارت حتى توقفت قريباً منه وأخذت ترقص.

وعندما وقعت تلك الواقعة وأقدمت الطفلة على تلك الفعلة الشنيعة التي لقيت بسببها الأهوال وضع الأب الجريدة جانباً. تأمل ما يحدث وأدانه، ثم توجه إليه وسأله إن كان يعتقد أن العرب سوف يحاربون؟ هل ذلك بإمكانهم؟

السؤال نفسه كان يتضمن نفي تلك الإمكانية، فقد كان في جرس الصوت شيء ولدته تلك الشناعة التي فعلتها الطفلة، فبدا وكأنه يقول :

ـ «بعد كل هذا. وما دام بيننا أمثال هذه الطفلة، فهل ما زلت تعتقد أن العرب سوف يحاربون؟»

فقال هو إن العرب ليس لهم خيار. أي خيار أمامهم غير الحرب؟ وكان ذلك، على نحو ما، اعتذاراً عن الطفلة.

قال الأب :

ـ «خيار في إيه؟»

قال ذلك باستنكار.

رد هو :

ـ «خيار في الحرب. ماهمه طبعاً لازم يحاربوا. الحرب مفروضة عليهم ولازم يحاربوا. »

صمت الأب وأصبح قاتماً، لسان حاله يقول هذا ما كنت أتوقعه. فأخذ يلوم نفسه ويفكر: «إنني لم أكد أقول شيئاً.» ولكن الحديث استمر. ولم تكن للطفلة علاقة به.

قال الأب بعد قليل:

ـ «عايز تعرف العرب حيحاربوا وحاينتصروا متى؟»

قال ذلك وهو يتحسس ذقنه النامية، الخشنة، ثم أخذ ينتظر رده بشفتين مقلوبتين.

قال هو إنه راغب بالفعل في معرفة ذلك.

قال الأب إن العرب سوف ينتصرون عندما يتوقفون عن الكلام وينصرفون للعمل. فلينظر إلى اليهود. هل تسمعهم يتكلمون؟ عمل ليل نهار، ثم يحاربون وينتصرون.

تحيّر، بماذا يرد على ذلك، فصمت. وواصل الأب: أنظر إلى صحفنا، إنها تتحدث بلا انقطاع. إن من يقرأها يعتقد أننا بلا مشاكل على الإطلاق. ولكن، هل نحن حقيقة حللنا جميع مشاكلنا؟

رد هو:

ـ «لا، طبعاً، المجاري مثلاً.»

ابتسم الأب بسخرية وقال:

ـ «المجاري... أيوه المجاري.. هيه بس المجاري؟ شوف الشبان، أبناء المستقبل يا سيدي، مربيين شعورهم زي النسوان وقال عايزين يحاربوا اسرائيل، وينتصروا على اسرائيل. الحرب عايزة رجاله.»

قال هو:

ـ «ده صحيح فعلاً.»

تصاعدت حماسة الأب فجأة دون سبب واضح.. كلام، كلام، كلام، هذا كل ما يفعله العرب. وقد قال سعد باشا من قبل: «ما فيش فايده.» هل تعرف على أي

شيء اتفق العرب؟ أنا الذي سوف أقول لك : لقد اتفق العرب على ألا يتفقوا. هؤلاء هم العرب يا سيدي . اتفقوا على ألا يتفقوا. واليهود يضحكون بالطبع. هل عمرك كله سمعت عن خلاف وقع بين اليهود؟!!

أراد أن يقول إن اليهود يختلفون فيما بينهم ولكنه يدرك مغبة ذلك. إن الأب وهو في هذه الحالة لن يصغي إليه، وإن الأسئلة التي يلقيها هي فترات استراحة حتى يتيح للسامعين أن يستوعبوا ما قاله. فقال هو إن هنالك بالطبع بعض الخلافات بين الأنظمة العربية. وهي أحياناً خلافات حادة بالفعل.

قال الأب : خلاف؟ هل تسمي هذا الذي يحدث خلافاً؟ بل قل إن العرب يحارب بعضهم بعضاً ويختلفون مع إسرائيل.

كان الزهو الذي على وجه الأب أكثر مما يطيق هو. ولكنه اكتفى بالامتناع عن الإعجاب الذي يتوقعه الأب منه.

مضى الأب بعد فترة توقف : هل تريد احتقاراً أكثر من هذا؟ سوف أسألك سؤالاً واحداً فقط : من هو الذي يقود دولة اسرائيل الآن؟ امرأة، أليس كذلك؟ هل هم حقاً غير قادرين على تقليد هذا المنصب لرجل؟ (وعلا صوته) إن هنالك ألف رجل خير من هذه العجوز الشمطاء. ولكنهم فعلوا ذلك حتى يقولوا للعرب :

يا عرب، أنتم تتحدثون عن الماضي، وعن الأمجاد، وأنكم كنتم أسياد العالم وكنتم كذا وكذا؟ طيب، نحن موافقون، لا أحد ينكر ذلك. ولكننا سوف نجعل امرأة تنتصر عليهم. ثم أنهى حديثه قائلاً وقد هدأ صوته، وأصبح كالمعتذر :

ـ «أنا عارف إن كلامي مش حا يعجبك. بس لازم نواجه الحقيقة وما نضحكشي على أنفسنا.»

أراد أن يقول له : «على العكس فإن النقد مفيد.» ولكنه فضّل أن يعبّر عن إعجابه برسم تعبير مأساوي على وجهه.

ثم غادرهم فجأة. شعر أنه من المستحيل أن يستمر. التقط أول تاكسي في طريقه وذهب إلى شقته. خلع ملابسه واستحم، ثم غادرها وخاض زحام شارع سليمان باشا. هاجمه فجأة رعب تلك الليلة الشتوية.

***

يجلس ويراقب الميدان.

ميدان العتبة أمامه مجموعة من الطرق الدائرية والأرصفة ذات الوظائف المتعددة: أرصفة مواقف الترامويات، أرصفة الشارع، الأرصفة التي تستعمل كتراس للمقاهي، أرصفة طويلة ضيقة تفصل بين قضبان الترمواي، وأرصفة عبثية، لا تستطيع مهما حاولت أن تفهم سبباً أو مغزى لوجودها.. خطوط الترام الفولاذية محفورة في الأرض، تتقاطع بزاوية حادة وتتوازى وتتداخل وتدور.. يراها تلمع بين فجوات الاكتظاظ. شبكة أسلاك متفاوتة العلو تستقيم وتنحني وتدور وتصعد مشكلة مثلثات وأقواساً ومعينات، صانعة ميداناً علوياً مصغراً خاصاً بها. غابة متحضرة تعكس غزو المدينة المبكر وتنفيه. والناس يتوقفون متوترين ينتظرون، ثم ينطلقون مسرعين يتفادون الموت بسنتيمترات قليلة، تقذفهم الأتوبيسات كأنها تتخلص من فضلاتها ثم تستعيدهم (الأتوبيسات: تلك الوحوش الحمراء، الفطساء، المتصلبة الأجساد، تنحز وتقذف هباباً أسود).

وهو جالس يرقب الفوران الفوضوي لعالم معقد أشد التعقيد، عنيف للغاية فيتولاه حس فاجع بالعبثية وفقدان المعنى. كان له هو إيقاع مختلف، إيقاع بسيط، أعد حسب خطة محكمة بعناية فائقة تأخذ جميع الأمور بالاعتبار، وقد تثبتت معطيات عالمه بانفعالات عميقة الغور، صاغته، وصلبّته ضد ذلك الاندفاع العشوائي، الهمجي، بيروقراطية متقنة وخالية من الانفعال، تفرّغ الإنسان من كل حس. لذا اشتاق إلى ماض من قريته جعلته الذكرى ذهبياً، وإلى ماض تعرف عليه من كتب التاريخ... اشتاق إلى عالم لأنه أصبح ذكريات قديمة، شاحبّة، مستسلمة، تلقت صياغته بطواعية.

يجلس في ذلك البار منتظراً تقادم الليل. تهدأ الحركة عند ذاك ويسود الصمت. يعلم أن الأضواء سوف تتقلص وتنكمش في دائرة عمشاء من ضباب الليل، وأن لوناً رمادياً باهتاً سوف يسود المكان وينفسح أمام ناظريه شارع الأزهر، وتهدأ الحركة في شارع الموسكي فيصبح كشوارع الأيام الغابرة في الأفلام السينمائية: شوارع ضيقة متعرجة، خافتة الأضواء، أرضيتها مرصوفة بالأحجار الملساء المستطيلة، والبيوت على جانبيها تتقارب في ارتفاعها حتى تكاد شرفاتها تتلامس ـ وتبدو له البواكي في الطرف الآخر من الميدان، وفي بداية شارع محمد علي المؤدي إلى القلعة، متتالية،

رتيبة، تخفي عالماً غامضاً غريباً . من مكانه، كان يستطيع أن يرى من خلال إحدى البواكي مدخل فندق شعبي. بوابته الخشبية الكبيرة مفتوحة ورجل يرتدي جلابية بلدي وطربوشاً، يجلس إلى مكتب وقد أحنى رأسه فوق مساحة بيضاء يقدر هو أنها الدفتر الذي يسجل فيه أسماء الزبائن وأرقام بطاقاتهم الشخصية، أو ربما كان دفتراً يراجع به حساب الأرباح والخسائر.

وهو ليس هنالك ما يفعله سوى احتساء البراندي، وانتظار تقادم الليل، عندما تمد القاهرة القديمة أذرعها المليون وتستعيد الميدان إليها، دامغة إياه بطابعها. من قلب الميدان الصامت، الرمادي، سوف ينبعث ذلك الإغواء الحريف، القديم. حين تأتي تلك الساعة، ويصبح الميدان عيناً مفتوحة، حالكة لجسد كبير يحيطها، فسوف يعيش هو لحظات مسحورة في هناءة التاريخ.

يأخذ العالم طابعاً رجراجاً والزحام ما يزال على أشده. لم تكن المرأة في المقهى. يقدّر أنها في إحدى مهماتها الروتينية. ولا بائع العصافير المشوية. لقد اختفى تماماً. ولكنه هو يجلس على الطرابيزة التي كان البائع يضع موقده بجوارها. عندما يسهو، يراه قريباً ويحس بناره تلسع فخذه الأيمن. يأمل أن ينبثق فجأة حاملاً عصافيره وموقده. وقد اختفى بائع الجنبري الملتهب الجفنين. عيناه جمرتان صغيرتان وأنفه مجرد قطعة غضروفية طارئة في وجه طويل، كان يدور بسبته بين الزبائن، بسبته الذي امتلأ بأوراق الخس التي يختفي الجنبري بينها. يقول له الجرسون الذي فقد أسنانه، والذي يطالع الميدان بنظرة عارفة، مستنكرة:

ـ «الجنبري؟ الجنبري فين النهار ده يا سعادة البيه، ده كان زمان!»

وتمتد وتطول كلمة «زمان» في فمه. وينطلق مبتعداً. لم يعد مغرماً بالحديث.

أين ذهب كل شيء؟ وكيف تغير، وما الذي غيّره؟ والمرأة؟ أين المرأة؟ خجل أن يسأل عنها، وعلى أي حال فهو حتى لو سأل عنها فلن يأتوا بها إليه.

ـ «عايز أسأل، بعد إذنك، مجرد سؤال: هوه يعني مستوى الأخلاق ارتفع قوي اليومين دول؟»

حقاً، هل ارتفع مستوى الأخلاق إلى حد ألغى معه المرأة؟ عايز أسأل بجد، لأنه عندي شواهد على العكس.

بين الحين والحين تطفو أمامه عينا عزة، ساطعتين بالضحك، مبلولتين بدمع سابق لمشاجرة تجاوزاها.

ـ «لسه زعلانه؟»

ـ «إنت مجنون، حقيقي إنت مجنون.»

وتستغرق في الضحك.

يكتم هو ضحكه، فالشيخ جمال الدين هنالك، جالساً خلف باب المقهى الزجاجي، محاطاً بمجموعة من المطربشين والمعممين. الجميع صامتون، ساكنون كأنهم تماثيل ـ تلك التي في المتحف الزراعي.

ـ «نروح المتحف الزراعي؟»

ـ «إشمعنى المتحف..؟»

ـ «نتفرج عالورد والناس.»

ـ «سبب مقنع.»

أو تلك الصور التي في المتحف الحربي في القلعة ـ لا أحد منهم يتحرك أو ينبس بكلمة. تحاول وتحاول أن تجعل عينيك تلتقيان بعيني واحد منهم فتفشل. لم يحن الوقت بعد للانضمام إليهم. إلا أنه حين يهدأ الليل يكون ذلك مناسباً تماماً.

ها هي المرأة تأتي، تجلس على الطرابيزة المقابلة. تجيء مستعجلة. مستغرقة قليلاً. الحق أنها لم تأت، بل كانت جالسة هناك طيلة الوقت، مجاورة له، وكان يعلم ذلك. كانت أكثر شباباً من عشر سنوات مضت، أجمل وأشد حيوية وفهماً. تلتفت، تفرقع أصابعها، فيأتي الجرسون، ودون أن تنظر إليه تطلب فنجان قهوة:

ـ «زيادة لو تسمح.»

ثم ينحني الجرسون، ويضع الصينية النحاسية أمامها عليها فنجان القهوة وكباية الماء المثلج. وهي خلال ذلك متأهبة للوقوف، منشغلة بما يجري في الميدان، تراقبه بجديّة وتركيز كأن الذي تبحث عنه هناك في الزحام. تعود إلى الماء المثلج، والقهوة «ما تبحث عنه لا أثر له.» تتنهد وتشرب القهوة برشفات سريعة متلاحقة:

«آن لنا أن نيأس ونستريح.»

ثم تعود تطالع الحركة الصاخبة أمامها بعيني أم لا تمل أبداً رعاية أطفالها. على وجهها ظل ابتسامة : «كل شيء على ما يرام، ولكن الأتوبيس يقترب من الموقف. يمرق من أمامه رجل يعدو، يقف على الرصيف يلهث، ويدقق النظر في الأتوبيس. تضرب المرأة كفاً بكف في حركة ندب، تتنهد : «لقد نجا على أي حال» ثم يلتهب وجهها المنتحب ويتورد.

قالت :

ـ «حاسب يا حبيبي!»

ثم تضيف متعجبة :

ـ «يا عين امك، خلي بالك!»

والرجل يلهث وينظر إلى الأتوبيس ولا يلقي بالاً إليها. وهي لا تكف. تلتفت إليه وتقول :

ـ «شفت؟ الأتوبيس كان حاياكله.»

يضحك. تتأمله قليلاً متسائلة، منتحبة، عيناها ترمشان بلا انقطاع وفمها يشكل الكلمات ولا تقول شيئاً. ثم ضحكت، وعيناها في عينيه. سألته :

ـ «بتضحك ليه؟»

قال لها إنه ضحك لأنها قالت عبارة «كاد الأتوبيس أن يأكله.»

قالت، ألم يحدث هذا؟ قال : ماذا؟ تأملته قليلاً ثم أخذت تحكي وهي تمثل الحادثة بيديها :

ـ «الأتوبيس جاي كده، الراجل يا عيني شايف الأتوبيس هاجم عليه زي الوحش قام لاص منه وجرى كده، أصله كان بيبص للعربية اللي جايه من الشمال، جايه كده، بعد عنها قام لقي الأتوبيس في وشه، كده...»

قال لها إنه قد اقتنع. عاودت النظر إلى الميدان، وهي بين الحين والحين تلتفت إليه لترى إن كان يوجه حديثاً إليها.

نهضت المرأة لتفصل بين طفلين يتشاجران. عباراتهما مبتورة، مختنقة :

ـ «سيب يا ابن الكلب.»

ـ «ودين النبي لاشرب من دمك.»

كان كل منهما يمسك بكيس ورقي جمع فيه أعقاب السجاير. وضعا الكيسين على الأرض بعنف والتحما في عراك لاهث. كان أكبرهما يعتصر الآخر اعتصاراً، فأمسكت بأحدهما وأبعدت الآخر وقالت لأكبرهما الذي يتفلت منها :

ـ «عيب يا محمود! ده ابراهيم زي اخوك الصغير.»

ومحمود يقسم أنه لو أمسك بابن الجزمة فلسوف يصنع منه كفتة، ويمسح به الأرض حتى تصبح أنظف من وجه أمه. ثم ابتعد محمود ووقف الأصغر يتنهد، ويرمق المرأة بعينين دامعتين. فحصت المرأة خدشاً في وجهه، لمسته بسبابتها، ثم أحاطته بذراعها، وانحنت فوقه وقبلته ثم قالت :

ـ «ما فيش حاجه.»

ثم فتحت شنطتها وأخرجت منها قرشاً ووضعته في يد الطفل وأغلقت أصابعه عليه وهي تقول :

ـ «أسكت يا ضنايا، كفاك عياط يا عين امك.»

ثم نظرت إليه وهو يضع كأس البراندي على فمه ويتجرعه حتى آخر قطرة، وقالت :

ـ «يا عين امه!»

ثم عادت إلى الطفل وقالت :

ـ «كفايه عياط، امال!»

عندما جلست المرأة نظرت إليه. ربما كانت تنتظر منه أن يعلق على ما حدث، فقال لها إنه لم يضحك، حين ضحك منذ قليل، سخرية منها. لقد ضحك لأنها قالت عبارة : «كاد الأتوبيس يأكله.» عليها أن تصدقه أنه لم يضحك إلا لهذا السبب. واجهته وأمسكت يده كأنها تود أن تجذب انتباهه إلى شيء ما وقالت إن عليه أن يتوقف عن الشرب لأن ذلك سوف يسبب له المشاكل. فقال لها إنه ليس سكراناً، فلتتأكد من ذلك، وعلى كل حال فليس هذا هو جوهر المسألة. إنه كان سوف يقول لها هذا الكلام نفسه في كل الأوقات. ففي نهاية الأمر لا أحد يرغمه على قول ما قاله.

قالت :

ـ «الخمرة بتهري الكبد وانت صغير . . !»

أكد لها مرة أخرى أنه ليس سكراناً. وما هو السكر في حقيقة الأمر؟ إنه إلغاء مستوى من الوعي واستبدال مستوى آخر به. ولكن عبارة «كاد الأتوبيس أن يأكله» جميلة ومبهجة. مبهجة إلى حد أنه كاد أن يبكي فضحك. تتذكرين الأغنية الزنجية دون ريب، الحزينة، الحزينة، التي تقول :

ـ «إذا رأيتني يا ولد أضحك، فذلك لكي أمنع نفسي من البكاء.» أغنية حزينة للغاية. بلوز. ها أنا ذا سوف أبكي الآن :

«يدعوني سافلاً وأضحك فقط.»

«يرفسني وهذا بعض ما يفعله.»

«لا يعرفني، ولا ما أفكر فيه.»

«عندما يراني أضحك.»

«فأضحك لأمنع نفسي من البكاء.»

سوف أبكي. إنني أبكي. أترين؟ إن اهتمامك بكل ما يجري في الميدان، والرعاية التي تمنحينها للجميع كأنهم أبناؤك الحمقى مفرح إلى درجة البكاء ولهذا أضحك. هنالك نوعان من الضحك، ضحك للسخرية من الآخرين ومن الذات، وهذا مؤلم في العادة، وضحك لأن الإنسان يشعر بالفرح والحب، لأن العالم جميل وحلو، يملؤنا بالنشوة والسعادة، يشعر بالفرح والحب، لأن العالم جميل وحلو، يملؤنا بالنشوة والسعادة، هل تفهم ما يقول؟

دعت أن يبعد الهم عن قلبه، ويتمدد على السرير ويضع رأسه على فخذها. ها هو يغرق في لدونة اللحم الوفير، وأصابعها تتخلل شعره وتداعبه. سألها إن كانت قد فهمت ما يعنيه؟ ما كان يريد أن يقوله، إن الفرح المنبثق من كوننا موجودين. . . قاطعته قائلة إنها تفهم ما يقول، ولكن ليس الآن أوانه. وأحنت رأسها وقبلت جبينه وعينيه وخديه. قال لها : قد يكون في ذلك ـ أعني الفرح بالوجود ـ رداً على هذه المرارة التي. . .

قالت بحزن :

ـ «هل جف ماء الحياة منك إلى هذا الحد؟ ألا تراني؟»

- «بل أراك وإلا فمن الذي أكلمه؟»

انحنت فوقه. حلمتا ثدييها هبطتا على عينيه. لم يعد يرى، احتواه العطر ورائحة اللحم الحي، المتفزز. وكان صوتها حزيناً، حزيناً، كان ما تقوله أشبه ببكائية ترددها لنفسها:

- «نم يا حبيبي الآن نم...»

ثم أخذت تغمغم:

- «لقد قست عليه الحياة، يقاوم ويقاوم وهو خلال ذلك يتلاشى ويتهشم. لم يعرف حضن الزوجة، ولا ضحكة الابن وها هو الآن يسرع إلى قبره قبل الأوان.»

قال لها، هل تعرف فرح الإنسان بأن يوجد؟ مجرد أن يوجد؟ وتواصل، عطر جسدها القوي يلقيه في تيه النسيان، ثدياها يداعبان وجهه وهو مليء بالكلام:

- «نم يا ابني. لم تكد تعيش. جف ماء الحياة منك. أنت جيفة تعيش على الذكرى. لم تكد تذوق طعم التجربة الحقيقية. كلمات يا رب هي كل بضاعته، كلمات ملأوا بها رأسه فألغت مدلولاتها، واعتقد أنها كل شيء.»

يقول للمرأة إنها نسيت أن تكمل قهوتها. نظرت إلى فنجان القهوة، ثم أمسكت به وجرعت ما تبقى دفعة واحدة. ثم قالت له إنهما عندما يتقدم الليل فسوف ينضمان إلى حلقة الشيخ ويناقشان كل شيء، أو قد يذهبان إلى حجرتها في ذلك الربع القديم ولسوف يجلسان مع البسطاء من أهل الربع، وهنالك سوف تحكي له قصة حياتها بلا أكاذيب ولا ميلودراما. سوف تلقي أمامه بالحقائق صافية مثل البلور.

- «هل تريد شيئاً آخر؟»

لا، قال لها، ذلك هو المهم، هذا هو جوهر المسألة. ابتأست كثيراً وقالت:

- «هل جف ماء الحياة منك؟»

ويدها تداعب شعره ورأسه على فخذها وعطر اللحم الحي، حمى الشهوة تتسرب إليه منها وهو يقول لها: ها هو الشيخ ومن يلتفون حوله صامتون كأنهم تماثيل من الشمع الأصفر، يجلسون مستغرقين في تأمل الذات ومراجعة النفس.. وصوت المرأة، صوت عزة باكياً، مختنقاً بالانفعال:

- «أخرج من هذه المقابر! اصعد إلى الحياة.»

ـ «أنا قلت يا عزة، طلبت منك نتجوز.»

ـ «أيوه!»

ـ «إنتي اللي رفضت يا عزة.»

وتقول عزة، أنت قلت ذلك عندما قلت لك إنني خائفة. لم تكن جاداً.

ـ «يعني...»

ـ «لو كنت جاداً، لما رفضت..»

تخف الحركة في الميدان، يتناقص الناس والعربات ويخفت الضجيج. المتبقون أشلاء عنف انقضى، أشلاء متآكلة، سوف يمتصها الميدان. تنفسح القاهرة القديمة شيئاً فشيئاً أمامه، وتتفتح مساربها العميقة المظلمة، وتزحف إلى الميدان وإليه. رائحة عطر قديم، رائحة بيوت أغلقت منذ زمان بعيد على البخور والعود والريحان تغلفه وتحيط به. يستسلم لإغوائها ويغوص في رطوبتها الثقيلة المظلمة، يدعوها أن تعجل إليه.

وقال للمرأة إنها سيدة حكيمة. لا يستطيع الإنسان أن يكون ودوداً ومتفهماً إلا إذا امتلك قدراً كبيراً من الحكمة. ولكن ألا يتطلب هذا تعريفاً جديداً لكلمة الحكمة؟ لا تخافي، لن أطيل... أنت سيدة حكيمة ولهذا اتفق معك في كل ما تقولين. ولكن، بالمناسبة، مجرد سؤال عابر أرجو ألا يضايقك أن تجيبي عليه: أين ذلك الرجل الذي كان يبيع العصافير المشوية؟ ذاك الذي كان يضع موقده هنا، حيث يشير إصبعي، قريباً من هذا الكرسي الذي أجلس عليه، يعلق عصافيره المذبوحة الحمراء هنا على طرف السور، يتناول عصفورين ويضعهما على قطعة من الصفيح ويشويهما على الموقد؟ لا بد أنك تذكرينه؟ كان يتحدث كثيراً عن جمال الدين، يقول: آه، سي جمال؟ كان بيمثل في فرقة الريحاني، راجل سكره، وساعة الجد... وأشياء كهذه تبهجنا ولكننا لا نضحك حتى لا نجرح الرجل العجوز.. أين هو؟ أنا هنا في انتظاره. لا ترد. فقط تنظر بهاتين العينين اللتين يسيل منهما الحزن، ولا تقول شيئاً. يحدثها ويحدثها ولا ترد. يسمع صوته فقط. وبائع الجنبري؟ لا بد أنك تذكرينه، لا يمكن أن تكوني قد نسيته! أين اختفى؟ أنا هنا في انتظاره أيضاً. ذلك الذي كان نحيلاً، ملتهب الجفنين، ووجهه مجرد خرق مهلهلة، الذي كان ينسل بين الزبائن في صمت، حاملاً سبته الكبير، ثم يفاجئنا قرب الأذن منادياً بهمس مخنوق كأنه يسر إليك شيئاً خطيراً:

ـ «جنبري، جنبري حلو..»

كأنه يتساءل؟

كيف انتهى وإلى أين، وماذا يفعل الآن؟ والمرأة تقول دون صوت، بل بعينيها اللتين ترشحان بحزن رصين عارف:

ـ «لقد قلت لك من زمن إن هذا لن ينتهي على خير. وها هم قد ذمروك فأصبحت حطاماً.»

ليست الأمور على هذه الدرجة من السوء، ولكنني أحب أن أسأل، إن كان ذلك لا يثقل عليك: المرأة المنتحبة؟ أعني التي كان لها وجه منتحب يرشح بالحنان والألفة ـ ما يرشح هذه؟ ـ تجلس على هذه الطرابيزة، هذه التي أشير إليها بإصبعي، ليست تلك، بل هذه، تجلس تشرب القهوة وترقب الحركة في الميدان بلهفة أم. يتشاجر طفلان فتنهض وتفصل بينهما:

ـ «كفاياك عياط، أمّال!»

وتفتح شنطتها وتخرج قرشاً؟ ماذا حدث لها؟ لم يكن مستوى الأخلاق أقل منه الآن، ولكنها رغم ذلك كانت تجلس هنا، تصغي بوجه حزين، وعيناها ترمشان بلا انقطاع. انا جالس هنا انتظرها منذ ساعات، ولم تأت بعد.

ينهض بائع العصافير المشوية، يضع عصفوراً ملتهباً على طبق ويدفعه إلى الطرابيزة. بائع الجنبري يضع مجموعة من بضاعته بجوار العصفور. يقضم قطعة من العصفور المشوي ويشرب جرعة من البراندي وينتظر أن تزحف القاهرة القديمة إلى الميدان وتغمره، وفي أثناء ذلك الانتظار يحدث المرأة:

ـ «لم تكن متحمسة حين طلبت منها أن أزور حجرتها في ذلك الربع القديم.»

قالت:

ـ «جوزي شرّاني...»

أو شيئاً كهذا وأنه سوف يقتلني إن رآني معها. ثم قالت إنها لا تسكن في ربع. تقول لي أنا مثل هذا الكلام. لم أصدق ذلك ولكنني لم ألح ساعتها. كان ما زال في الوقت فسحة، ولم نكن قد تعلمنا هذا الجري والاستعجال.. لكنني الآن مصمم أن أزورها في حجرتها وأن أسهر معها حتى الصباح. ذلك أمر لا بد منه ولا يمكنني

تأجيله بأي حال. أريدها أن تحدثني عن قصة حياتها. طبعاً الحبيب الغني الذي انتحر بسببها لأن عائلته العريقة قد وقفت في سبيل زواجهما، وأنها تشرب الخمر لتنسى، حكايات المومس الفاضلة التي أنهكنا حتى من السخرية بها... مثل هذه الحكايات لا أحب سماعها. أنا أذكرك به ولذا تحبين أن ترينني كثيراً!؟! أنا أسألك كصديقة، ولأن لك وجهاً حزيناً، أسألك لأنه من المستحيل أن أقول أمثال هذه الأمور في الإذاعة والتلفزيون أو في الصحافة أو في محاضرة أو ندوة أو في اجتماع جماهيري، أو على مقهى ريش، أو على الفيشاوي، تبقى السينما، ولكن ذلك يجب أن يقال بشكل غير مباشر، لأن للسينما لغتها. هنا خلفنا، في سينما أوبرا يقولون ذلك..

ثم يتعجب مما يحدث. يشرب جرعة من كأس البراندي فيفاجأ به أنه عصير ليمون مركز. كيف وأين؟ الجرسون وبعض الآخرين يحيطون به. ثم يلسع يده فنجان القهوة. كانت مرة، مرة، بشكل لا يطاق. وهذه الـ «لا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم».

- «إنت كويس دلوقتي؟»

ولماذا لا أكون؟

في الطرف الآخر من الميدان تتخلق الرؤيا. هناك مدينة من الصلب والزجاج، الضوء فيها لا ينبعث خارجها ولا ينتشر. كأن الضوء لون للجدران والأرصفة والمارة، أو كأنه تكثف وتجمد فأصبح هذه الجدران والأرصفة والناس. شوارعها مستقيمة، عارية، شبه مهجورة. وتندفع العربة عبرها دون صوت، كما يحدث في فيلم صامت. فاطمة هناك واقفة تنظر إلى العربة، ولكن العربة تجتاحها فلا يبقى من فاطمة إلا بقعة كبيرة من الدم المشع على الأرض. ينهض، أين التليفون، أين ذهب؟ ها .. ! يدير القرص. يدق الجرس، يدق طويلاً، ثم صوت الأب كأنه يتثاءب:

- «هالو؟»

- «فاطمة.. كويسة؟»

صوت الأب منزعجاً، يقول:

- «فاطمة؟ مين فاطمة؟»

- «اللي كانت بترقص... الطفلة يا أخي..»

ـ «كوثر . . ؟ خالد؟ إنت بتتكلم من فين؟»

ثم أخذ يزعق، تناول شخص ما التليفون من يده وأخذ يشرح له مكان البار الذي يجلس فيه. يعودون به إلى مكانه. يقولون له إن عليه أن يستريح فقط. وعندما كان يحاول أن يشرح لهم كانوا يهزون رؤوسهم ويقولون :

ـ «طبعاً، طبعاً. . بس اقعد استريح . . .»

ثم حدث هذا الأمر الذي لا يصدقه أحد. فها هو الأب بلحمه ودمه يهبط من التاكسي ويتوجه إليه. ينهض ليصافحه ولكنه يتحدث إلى الجرسون ويخرج نقوداً ويعطيها له. ثم يتجه إليه ويدعوه للنهوض.

وهما في داخل التاكسي والأب صامت، وعندما يحاول أن يشرح له يقول أيضاً:

ـ «طبعاً، طبعاً.»

ولكن العربة لا تتجه إلى حيث يسكن. ها هو الأب يعود إلى ألاعيبه. ثم تخرج إليهما الأم ترتدي روباً وشعرها مشعث. ويتعاونان، وهو يحاول أن يشرح لهما، ويضعانه في البيجاما، ويجد نفسه في السرير، وعصير الليمون والقهوة اللاذعة مرة أخرى. كل شيء يبدأ من جديد.

١

جملة اعتراضية

ـ «هالو، أنا خالد، أرجوكي يا عزة، أرجوكي حاولي تفهمي، أنا... أنا بختنق، بموت، أنا حا، حاتجنن.. الوحدة، الرطوبة.. مش دي، أرجوكي.. من الصبح، أرجوكي، من الصبح وانا عايش في كابوس، كابوس حقيقي.. البرد، الرطوبة.. بقول البرد، الرطوبة... حاولي تفهمي.. عندي دفاية، بس مش دي المشكلة... المشكلة... المشكلة مش دي.. سيبيني أتكلم.. إفهمي، إسمعي..»

ويصرخ، ويصرخ.. ثم انقطع الاتصال.. يضرب الرقم مرة أخرى، ترد عليه:

ـ «قفلت السكة ليه؟»

ـ «أنا؟»

ـ «إنت اللي طالب مش ممكن اقطع السكة، بس...»

ثم ضاع صوتها. السماعة في يده صماء. يحاول أن يعيد الحرارة إلى التليفون ولكنه يظل ميتاً في يده.

واصل المسيرة في الشوارع. يكتشف أنه أصبح في ميدان سليمان باشا. سار طويلاً. كان مرهقاً. اتجه إلى شارع صبري أبو علم. يخوض في الماء الوحل، وتوقف أمام باب العمارة وتردد. تحول الرذاذ إلى مطر حقيقي فأنهى تردده وعبر باب العمارة. كانت غارقة في الظلام. التيار الكهربائي مقطوع هنا أيضاً. لا أحد بالباب. توقف في الداخل وأخذ ينفض رأسه، ويعصر شعره ليزيل المطر العالق بشعره. أرضية المدخل مغطاة بنشارة الخشب، رسمت فوقها مواطىء أقدام مبلولة.

يتوقف ويتردد مرة أخرى. ثم يمتصه المكان، يبهظه بالشوق. مدخل العمارة الواسع، وقد زادته الظلمة اتساعاً، والباب العالي للعمارة بحديده المدهون بالأسود وقد اتخذ شكل دوائر غير كاملة ومقرنصات، تداخلت فأصبحت أرابيسك تتوه العين

فيه، والطراز الأوروبي الذي يمتزج فيه الذوق بالفخامة، والمصعد الضخم، القديم الطراز، الذي تستطيع أن ترى من في داخله من الصاعدين والهابطين ذكره بأيام مضت ولن تعود، بعالم له قواعد وتقاليد معروفة، بمصر في قصص يحيى حقي وروايات نجيب محفوظ وإحسان عبدالقدوس التي قرأها قبل أن يجيء مصر. كانت مصر هكذا عندما جاء إليها ـ هكذا بدت له في الشهور الأولى.

صعد الدرجات العريضة إلى بسطة السلم. في الانفساح الكبير ينشأ حلم اليقظة، ولكنه أصبح توقعاً مملاً بسبب عدم تحققه الدائم. (ينفتح الباب عن امرأة في الثلاثين، وعن عالم من المعرفة والمتعة قرأ عنهما ولم يرهما قط). يواصل سيره في الظلمة المثلجة. المصعد كبير، هاجع مظلم، في داخله المرآة تشع لمعة سوداء. يصعد السلم الذي على يسار المصعد. لا يستطيع أن يتبين طريقه فيشعل الولاعة. على الدرجات الرخامية الواسعة نشارة خشب، وآثار أقدام ـ قد أزالت النشارة وخلفت مواطئ أقدام مبللة موحلة. في الدور الأول فاجأه اسم دار النشر «دار الثقافة الجديدة» قاتماً بسبب انطفاء المصباح الكهربائي الذي يضيئها من الخلف. دخل الدار يتلمس طريقه. في الداخل كان برد مركز، راكد، رمادي. السكرتيرة التي تجلس في المدخل لم تكن هنالك، لقد اعتقلت بسبب اتهامها بالاشتراك في المظاهرات. الحجرة التي تواجه الباب الخارجي مغلقة ومطفأة من الداخل. دخل في الممر الطويل الذي على اليمين. كان خالياً وبارداً. في الحجرة التي على اليمين كان يجلس اثنان قد اعتقلا أيضاً. الحجرة التي في نهاية الممر مفتوحة يغلفها الظلام. مد رأسه من الباب ودقق النظر. لا أحد هنالك. انحرف إلى اليمين وسار في الممر الطويل. لا أحد. لا أحد. دخل الحجرة التي يجلس فيها صنع الله. رآه. كان قد فتح الشيش وأغلق زجاج النافذة. على هذا الضوء الشحيح كان يقرأ سلخ البروفات المكتظة بالكلمات السوداء، المحفورة بعمق في الورق الأسمر. سار دون صوت وحجب عنه الضوء المتسلل من النافذة. رفع صنع الله رأسه وتأهب للوقوف، ثم جلس. رأى أن الدم قد هرب من وجهه، وأخذ يحدق به من وراء نظارته الطبية كأنه لم يره قط قبل ذلك. قال:

ـ «خضتني يا أخي!»

أمسك بالسيجارة، وكانت يده ترتعش وما زال يحدق فيه كأن شيئاً لا يصدق يحدث أمامه. وفجأة ضحك ضحكته الغريبة، الطويلة، الممطوطة، التي كانت في

تلك اللحظة أشبه بالنحيب. كانت الضحكة شبه اعتذار. قال :

ـ «مالك واقف كده؟ اقعد، حاخلص من دول بعد دقيقة واحدة.» ثم اتخذ وجهه طابع إصغاء. كان كوجه من يعاني مغصاً. وعندما رأى وجه خالد، قال :

ـ «أقعد، حا اجيب لك قهوة.»

قال خالد :

ـ «لا، بلاش القهوة.»

وأعاد صنع الله ضحكته. في أغلب الأحيان تكون هنالك مشكلة ما تجعل إحضار القهوة مستحيلاً، أو أن ذلك على الأقل يحتاج إلى وقت طويل يتخلله تأنيب شعبان، ثم الشكوى منه، ومن غش البن. قال صنع الله وقد أدرك ما يدور في ذهنه :

ـ «لا، بجد المرة دي.»

قال إنه يريد أن يتكلم في التليفون فقط. وكلم عزة من التليفون الذي في الحجرة الأخرى. قال بهدوء :

ـ «عزة أنا خالد. الساعة كام دلوقتي؟ اتنين. أربعة في الشيراتون. هالو؟»

قالت :

ـ «بس...»

ـ «بلاش بس والنبي أحسن الحرارة تنقطع.»

ـ «بقولك إيه...»

قال خالد :

ـ «أحسن الحرارة...»

وانقطعت الحرارة عن التليفون بالفعل.

وضع السماعة. اكتشف أنه قد عرق خلال تلك الفترة. سار خائفاً، مرهقاً، قد تسربت منه كل قوة. وتقمص الخوف الذي ينتشر في الدار. غادر المكان دون أن يقول شيئاً لصنع الله، ماراً بالحجرات الواسعة، الفارغة، المعتمة، الصامتة. تسلل عبر ذلك الصقيع الرمادي، الراكد وقد بعثت فيه الحجرات إحساساً فاجعاً بموت ما، بنهاية شيء ما. إن عائلة عريضة تنقرض ـ ذلك ما خطر له، وفي داخله صورة آمنة في القرية وقد

مات سادة البيت وبيعت الأرض.

في الشارع كان حزيناً وخائفاً. أحس أن عليه أن يفعل شيئاً ما، شيئاً محدداً، دون إبطاء، ولكنه لم يكن يعلم ما هو. جعله ذلك متوتراً. قرر أن يذهب إلى جروبي، وقد صعدت أمامه صورة الزحام والنساء الجميلات يجلسن ملولات تلتقي عيونهن بالداخلين، والتدفئة والشاي الممتاز. وعندما سار في هذا الاتجاه استولى عليه إحساس بأنه يبتعد عن المكان الذي يجب أن يذهب إليه، وأنه بالتالي يطيل المسافة بينه وبين الأمر الملح الذي عليه أن يقوم به. كان ذلك فاجعاً، ثقيلاً على نحو ما.

كانت مسيرته إلى جروبي أشبه بذلك الاستسلام اليائس عندما يكتشف الإنسان أن العمر قد تقدم به، وأنه ينحدر إلى الشيخوخة والموت انحداراً لا سبيل إلى مقاومته، بينما هو ما يزال في مرحلة المشاريع التي كرس نفسه لوضعها، والتي قد أصبح الوقت متأخراً لتحقيقها. إن ذلك الإنسان يقول لنفسه: «إنها حتى لو تحققت فسوف يكون ذلك متأخراً جداً.» ثم تولاه غضب عنيف جامح، وفي داخله صرخة لا تنطلق: «ألا أستطيع أن أذهب إلى مقهى أشرب فيه فنجان شاي دون هذه المقارنات المفزعة، ودون هذه المشاعر الرهيبة بالذنب؟!» سار إلى المقهى بعنف من يصارع عدواً يقف في طريقه.

في جروبي، كما توقع، كانت جميع الطرابيزات مشغولة، وهنالك أناس يقفون في مدخل المكان بانتظار أن تخلو إحدى الطرابيزات، أو ربما للاستمتاع بالدفء. هنالك بعض الوجوه المألوفة التي لم يكن متأكداً من اسماء اصحابها. رفعوا وجوههم إليه مترقبين تحيته، فتجاهلهم. يعلم أنهم سوف يرحبون به إذا جلس معهم، وسوف يكشفون عن معرفة وافية به. هنالك دائماً هذه الوجوه المألوفة التي تعرفك جيداً والتي لن تستطيع أبداً معرفة أسمائها، والتي يكون أصحابها مستعدين للحديث في كل وقت والإصغاء بأدب واهتمام. ورغم ما يمنحه الجلوس معهم من الرضى عن الذات فقد انصرف عنهم يراقب النساء. لم يكن مستعداً أن يجلس مع أناس لا يستطيع أن يشكو إليهم.

غادر المكان.

مقهى لاباس مزدحم ومزيد من الوجوه المألوفة. نوع النساء هنا مختلف عن جروبي، أكثر شباباً وانطلاقاً. مقهى ريش شبه خال ومقبض. دفع الباب الزجاجي

ونظر إلى المطعم. كان هنالك أحد أصدقائه، يشرب البراندي. اغلق الباب بسرعة وابتعد متعجلاً وهو يتساءل: «إذن، ما الذي أريده؟» سار قليلاً وتوقف أمام مكان عبور المشاة وانتظر. تحول الضوء إلى اللون الأخضر ولكن العربات واصلت السير، ثم توقفت ببطء. كان ذلك تم بدافع القصور الذاتي. عبر الشارع إلى الرصيف الآخر، نظر إلى شركة طيران «إير فرانس» كأنه ينتظر أن يجد أحداً هنالك، تمهل حتى تحول الضوء إلى أحمر، ثم إلى أخضر، وعبر شارع قصر النيل. في منتصف الشارع رأى الفتاة، تضع لباس رأس من الفرو. حدقت في وجهه، حدق بها، تمهلا قليلاً، ثم واصلا السير في اتجاهين متعاكسين. على الرصيف الذي أمام جروبي نظر خلفه، فرآها تقف على الرصيف الآخر مستديرة نصف استدارة، والتقت عيونهما. واصل السير بعزم وعبر شارع الانتيكخانة. ثم خطر له: «إنها سميرة. كيف تريدني أن أتعرف عليها في نصف ثانية وهي تضع هذه الطاقية المضحكة على رأسها؟» ثم كلم نفسه مدافعاً عن نفسه أمام شخص وهمي: «أترى؟ إنهن لا يبدأن بالتحية حتى وإن أخفين وجوههن تماماً وأصبحت رؤوسهن في ذلك الفراء المضحك كأنها رؤوس نعاج... بنات مؤدبات... ويدعنك هكذا تعاني من الإحساس بالذنب..» ثم وجد نفسه على رأس مدخل هانو. سار في الوحل، وعبر زحام العربات إلى نادي الأتيلييه. كان مغلقاً. في مثل هذا الوقت يكون دائماً مغلقاً. عاد إلى الميدان وسار نحو الاكسلسيور. كان لا يطاق. زحام، وبخار في الجو، وضجيج مرعب. ويظل يمشي ويمشي. يحاول أن يتذكر ذلك الشيء الذي يلح عليه، ويجب أن يفعله دون إبطاء، فلا يستطيع. يثقل حتى الاختناق شعور أنه كلما تأخر تذكر ذلك الشي، كان القيام به أشد صعوبة.

***

- «هالو، هالو، أيوه يا عزة، أرجوكي، حاولي تفهمي، حاولي تفهمي... مش ممكن تتصوري، مستحيل تفهمي إلا لما تعيشي اللحظة نفسها، بقول اللحظة نفسها.. هالو... هالو.»

ثم تنقطع الحرارة عن التليفون. السماعة في يده جثة. يميل الرجل اليوناني نحوه:

- «حبيبي، التليفون من الصبح كده...!»

ثم يمسك اليوناني بالسماعة ويقول باستغاثة وهو يمد يده بالسماعة :

ـ «الحق، مسيو، الحرارة جت . . »

ويطلب النمرة. التليفون مشغول في الجانب الآخر. يعيد طلب النمرة. الخط في الجانب الآخر صامت.

عندما يتذكر ذلك يدرك بوضوح أنه كان في ذلك اليوم يستطيع استعادة عزة لو أنه بذل مجهوداً كافياً، لو أنه لم يتصرف بهستيرية. ولكنه كان دائماً ينتظر منهن أن يكن دائماً أمهات متسامحات، أن يهرعن إليه عندما يكون حزيناً أو محتاجاً إليهن. على الطرف الآخر أن يفهم ويبرر وليس عليه هو أن يبذل أقل مجهود.

يهيب بها ويناديها بالتليفون وقد وجد بعد بحث يائس تليفوناً يعمل :

ـ «عزة . . ؟»

ـ «أهلاً خالد . »

صوتها محايدا كان.

يصرخ :

ـ «عزة، مستحيل، مستحيل أوصف لك بالتليفون، لكنه شيء، شيء كده زي الموت الحقيقي، مش فكرة الموت، الموت، الموت الحقيقي . . . . حاولي تفهمي . . سيبي كل حاجة، إنسي كل حاجة وتعالي بسرعة، تعالي حتى لو تيجي ماشية . . . »

«ماذا قلت؟» كان البقال ينظر إليه ويهز رأسه. وجهه كبير وعيناه حزينتان. قال :

ـ «ربنا كبير . »

ـ «شكراً . »

ـ «شد حيلك . »

انصرف وهو يقول لنفسه : «ينتظر مني أن أحكي له قصة حياتي . »

ناداه الرجل :

ـ «الباقي . »

ابتعد بعنف. كان غضبه موجهاً ضد عزة : «هكذا ينتهي بنا الأمر. يعجبك هذا دون شك . » كان يريدها أن تتألم وتعاني لهذا الذي يحدث له.

***

الدفء الخانق احتواه منذ أن دخل باب الفندق الكبير، هبط عليه وسلب منه الحدة. هواء أجهزة التكييف يحمل نفثات من روائح الطعام، وروائح الديتول والنفتالين، وعطور نادرة ـ ربما كانت عطوراً وهمية أثارها مرأى النساء في صالة الفندق. رخام الأرضية يلمع بين السجاجيد الفاخرة التي تغوص فيها القدم قليلاً. وهو يعبر المدخل الرئيسي يعاني من ضغط المثانة والتهاب الزور، مثلج الأنف والقدمين، ودوار خفيف ألم به عند الانتقال من الجو البارد في الخارج إلى دفء الفندق.

كان قد أعد الكلام الذي قرر أن يقوله لعزة. كان يهذي به طيلة الساعات الخمس التي كان يلوب خلالها الشوارع الموحلة، ينتقل فيها من مقهى إلى آخر، يقابل صديقاً، يتلقاه بحماسة ويتحدث معه لبضع دقائق ثم يتولاه ضجر وضيق، فيودعه لأنه يتبين فجأة أنه يود أن يظل وحيداً. كان قد قرر أن يقول لها :

«أعترف أنني انهزمت. لا استطيع أن استمر في هذه اللعبة، هذه اللعبة التي يجب ألا نعود إليها مرة أخرى. لا داعي لأن نناقش أي شيء مضى، ومن المخطئ ومن المصيب، فأنا مهزوم منذ البداية. كما أن نقاشاً كهذا لن يجدي شيئاً. في هذا الصباح قد عرفت الوحدة حتى الموت، ولن أعود إليها أبداً.. أبداً..»

ودخل الحمام. تبول ونظر في المرآة وتأمل وجهه، وخلال ذلك كان يحاور نفسه : «هل أقول لها إن ليالي كثيرة قد مضت لم أنم فيها؟» إن وجهه لا ينبئ بذلك ـ وجه يصلح للإعلان عن فوائد الكينا الحديدية ـ كما أنه غير صحيح. غسل يديه بالماء الساخن، استمتع به عندما تزايدت حرارته وأخذ يلسع باطن اليدين، ترك نفسه يصل إلى قمة أخذت أعصابه بعدها ترتاح وتتهدهد، ثم جفف يديه وخرج.

عندما دخل الكافتيريا رآها تجلس قرب الشباك شاخصة، ساكنة كتمثال، تحدق في النهر الرمادي. لقد جاءت قبل الموعد كعادتها، ولكنها كانت بعيدة ومختلفة. لقد شك للحظات أنها فتاة أخرى. لقد استفزه إلى أقصى حد هذا التعالي البارد، الموحش... واقترب، وحبه ولهفته يطعنان قلبه بتتال مؤلم.

عندما رأته أصبح وجهها متسائلاً، شبح ابتسامة طاف على وجهها كان يعبر عن ترقب أكثر مما يعبر عن ترحيب. حين واجهها لم يقل ما كان قد قرر أن يقوله لها. قال :

ـ «أهلاً عزة!»

كان صوته محايداً. قالت :

ـ «أهلاً.»

قال لها إنه متعب ويشعر بالضجر. نظرت إليه، ثم ضاع التحديق من نظرتها. وبدا كأنها مشغولة بأفكار خاصة بها. لم تعلق على ما قال. سألها عن صحتها، قالت :

ـ «يعني!»

ـ «عاملة إيه في البرد دا؟»

هزت رأسها ولم تقل شيئاً. أخذت تعبث بشنطتها، وتراقب يديها وهي تفعل ذلك. رفعت وجهها إليه متسائلة، فلم يقل شيئاً. تبادلا النظر بصمت. جاءت الجرسونة وتوقفت أمامهما بوقار، ثم ابتسمت وهي تقول له :

ـ «مساء الخير.»

قال :

ـ «بتشربي إيه يا عزة؟»

قالت عزة :

ـ «طلبت..»

وفي الوقت نفسه قالت الجرسونة :

ـ «المدموزيل طلبت شاي.»

طلب قهوة سادة وانصرفت الجرسونة. ثم صمتا. عانت كرامته كثيراً قبل أن يقطع الصمت ويقول :

ـ «ما حدش بشوفك ليه؟»

فكر : «كأنني لا أعلم. إنني أجرحها» ولكن ذلك بدأ ولا يستطيع إيقافه. قالت :

ـ «يعني»..

لم يفته التوتر الذي في صوتها. أدرك أنها تلجأ إلى الكلمات المقتضبة حتى لا يخونها صوتها. ثم صمتا، وكانت هي خلال ذلك تراقب الجرسونات يحملن

الطلبات إلى الزبائن. ثم عادت إليه وقالت :

ـ «وانت عامل إيه؟»

قال :

ـ «مش بطال.»

ثم ابتسم وقال لها :

ـ «يعني.»

تظاهرت أنها لم تفهم أنه يمزح فأخذت تنظر إليه كأنها تطالبه بأن يستمر. رأى أن عينيها جميلتان. لم يلحظ من قبل هذا اللون البنفسجي الذي يخالط سوادهما. قال لنفسه : «فليكن!» ثم أخذ ينظر عبر النافذة إلى النهر. كان رمادياً تحت سماء رمادية. في أقصى الأفق الشرقي رأى سماء بيضاء، ومزقاً زرقاء داكنة كأنها قطن متسخ من الغيوم الصغيرة. بدا ذلك كلوحات مايكل أنجلو. كان الشاطئ مهجوراً عدا رجل يضع على رأسه كيساً من الخيش ويسرع على شاطئ الجزيرة. وهنالك مراكب واقفة، حلت قلوعها ولا أحد يبدو على سطحها. وعزة خلال ذلك تنظر إلى يديها اللتين تمسكان بالشنطة. كانت تبدو كأنها تتأهب لأن تنطلق بشكوى مريرة، لم تستطع السكوت عنها أكثر من هذا.

قال :

ـ «عزة.»

فوجئت. قالت :

ـ «أيوه؟»

«لقد أهانتني» فكر «أهكذا ترد على هذه الصرخة؟ أتفاجأ بها أيضاً؟» ولكن عليه أن يقول شيئاً، غالب اختناقه ومهانته وقال :

ـ «بتقري إيه دلوقتي؟»

ـ «مش بقرا حاجة.»

لمس الغضب في صوتها. قال :

ـ «علشان البرد؟»

المفروض أن هذه كانت نكتة، ولكنها لم تضحك لها. فكر: «إنني أهنتها، وها أنذا أستمر في ذلك!» ولكنه لم يعد في استطاعته كبح تلك المتعة الجنونية، متعة أن يؤلمها، ويغرق في إيلامها لأنها رفضت أن تضعف وترق لألمه. يفعل ذلك وهو يعلم أن الألم الأكبر هو ذاك الذي ينتظره هو.

قال:

ـ «أنا آسف النهار ده، بس..»

ردت بقطع:

ـ «معليش، مش مشكلة...»

جاءت الجرسونة بالطلبات. كان طعم القهوة ممتازاً وأحب كثيراً أن يقول ذلك لعزة لأنها كانت تفهم ذلك. نهض وذهب إلى دورة المياه. تذكر وهو في طريقه إليها أنه لم يعد بحاجة إلى ذلك. ولكنه واصل طريقه، وفتح الحنفية، تاركاً الماء الحار يلسع يديه. نظر إلى وجهه في المرآة، وخطر له أن يصفه بأنه يصلح للإعلان عن الكينا الحديدية، ثم تذكر بسأم أنه قال لنفسه هذه الفكاهة منذ قليل. عاد وهو يحاول أن يصيغ ذلك الإعلان: «خالد يقول إنني أتناول الكينا الحديدية، صباح، مساء...»

لا، ليس هكذا. «هل تحبين يا سيدتي أن يكون لك إبن سمين كصاحب هذا الوجه..؟» وهل هذا معقول؟ تبين له فجأة أنه في الوقت الذي يردد فيه هذه الفكاهات تضيع منه عزة. أسرع عائداً يتملكه الفزع. لقيها تستعد للانصراف، قد لبست البالطو والجوانتي، وأمسكت بشنطتها، ووقفت تنتظر. كانت تحني رأسها. رأى حاجبيها مقتربين، وقد برزت بينهما تغضنة، وقد ضمت شفتيها المكتنزتين بتعبير صارم. كانت جميلة بشكل لا يطاق. كاد أن يبكي. لاحظ أنها تتحاشى أن تلتقي عيونهما. تبين له فيما بعد، عندما كان يستعيد صورتها وهي واقفة تنتظر عودته أنها كانت تحاول أن تمنع نفسها من البكاء.

كان يختنق. قال لنفسه: «إن ما نفعله هو لعب أطفال.» ولكنه كان عاجزاً تماماً عن قول أو فعل أي شيء. عندما يستعيد ذلك الآن، يرى نفسه يمسك بيدها في عنف ويقول لها: «توقفي عن هذا، فلنتوقف نحن الاثنان عن هذا. هيا اجلسي!» ثم يشكو لها ما عانى ذلك الصباح، والأيام السابقة. ولكنه لم يفعل ذلك. قال:

ـ «ماشية!»

هزت رأسها عدة مرات.

ـ «ممكن نقعد شوية إذا كنت عايزة.»

قالت :

ـ «شكراً.»

أفسح لها الطريق، ثم تذكر. قال :

ـ «الحساب.»

قالت :

ـ «حاسبت.»

كان يرغب في قتل ذلك السائح الذي كان يطالع عزة بنظرات وقحة. قال لها :

ـ «حاسبت فعلاً؟»

سارت وتبعها. كان ذلك مؤلماً إلى أقصى حد. لقد كان ساعتها فاقد القدرة على التصرف. ما زالت تلك اللحظات النهائية تنفذ إلى قلبه كالسكين كلما تذكرها. قال لها :

ـ «ما تجريش.»

التفتت خلفها وقالت :

ـ «ما فيش داعي تيجي معايا. حا اخذ تاكسي واروح.»

ثم أسرعت، وأسرع وراءها وسار بجوارها. وهما يغادران الفندق إلى الجو البارد حاول أن يقول لها : «أهكذا انتهى كل شيء!» غير أنه لم يستطع ذلك. كان يختنق، ويعلم تماماً أن صوته سوف يخرج نحيلاً، يشيء بالبكاء.

انتظر تاكسياً، وهو يقول لنفسه : سوف أصلح كل شيء في التاكسي. ولكن التاكسيات كانت ترفض أن تتوقف. شعر أنه ما زال هنالك خيط يربطهما. قالت :

ـ «نوقف هناك.»

لم يكن يعلم معنى ذلك إلا عندما رأى الترولي قادماً ورآها تندفع نحوه. قالت :

ـ «حاخد الترولي» وغادرته بسرعة دون أن تصافحه. كانت تهرب من ذلك الموقف الذي وضعها فيه.

فكر فيما بعد أنه كان عليه أن يتبعها إلى الترولي، ولكنه كان مشلولاً تماماً. كل ما كان يتذكره وهو واقف أن رذاذ المطر في شعرها له لون الفضة المسحوقة.

في ذلك الجو الممطر أدرك فجأة أن كل شيء قد انتهى، انتهى فعلاً ولن يعود. فكر أنه ترك أجمل شيء في حياته ينفلت منه، فقد كل ما كان يجعل حياته ذات معنى. لم يبق أمامه الآن سوى أن ينحدر إلى الهاوية. إلى فقدان المعنى. سوف يصبح كل يوم جديد خطوة جديدة في طريق السقوط. ولكنه قد قال لنفسه أيضاً: «لن أضعف أمامها حتى لو كلفني ذلك حياتي.» وبمعنى من المعاني فإن ذلك قد كلفه حياته بالفعل.

ويسير في الشوارع الموحلة، يقول لنفسه: لن يلحظ أحد أنني أبكي، بسبب المطر، وهو يردد لنفسه بيت شعر قديم:

ابك مثل النساء ملكاً مضاعاً

لم تحافظ عليه مثل الرجال

ويهذي وينادي باسمها:

«أجل يا ملكتي، يا مملكتي.. ولكنني عندما دخلت ذلك الفندق الكبير اعتقدت أن ما عانيته من عذاب ووحدة، والسير لساعات طويلة في البرد والوحل وأنا أهذي باسمك، والحزن الثقيل الخانق، الحزن الموت، كنت اعتقد أنك سوف تتخلين عن لعبة الخصام، وتتخلين عن اللعبة الطفولية ـ لعبة الكرامة المجروحة. وحين واجهني ذلك الحياد اللامبالي لم أطق. لم أقبل أن أشرح لك ما كنت أتصور أنك تعرفينه.»

«عزة!»

«هذه الصرخات الملتاثة في التليفون ألم تكن كافية؟»

***

علم فيما بعد أن عزة قد ذهبت لتزور الأب والأم. حكت لهما ما حدث. ثار الأب ثورة عارمة وطلع بالنتائج اللازمة: هذا جيل فاسد. وكتعبير عن غضبه دفع الطفلة بقدمه. ثم همس للأم التي لم تكن تكف عن التساؤل والكلام. نهضا بعد ذلك

وارتديا ملابسهما، ومن الغريب أنهما وجدا تاكسياً بمنتهى السهولة. عندما ترددت عزة أقسم الأب بأغلظ الأيمان أنه سوف يضربها، وأنه لن يكف حتى تعود إلى عقلها.

جاءوا إلى بيته فلم يجدوه. وعادوا بعد ساعات، فلم يكن هنالك أيضاً.

وهو يمضي في تلك الشوارع، يستعيد وجهها وهي تقف مستعدة للمغادرة، يستعيد قطرات الماء الدقيقة عالقة بشعرها فيدرك مدى حبه لها، وأن فقدها كان أشبه بالانتحار. فتاتان مراهقتان التقيتا به. كانتا تصخبان وتضحكان، وحين اقتربتا صمتتا فجأة وأخذتا تنظران إليه. سمع إحداهما تقول:

ـ «بيعيط.»

قالت الأخرى:

ـ «دا من النطره.»

أصرت الأخرى.

ـ «أنا متأكدة إنه بيعيط.»

وعندما التفت خلفه، رآهما واقفتين، متجاورتين كأنهما في طابور عسكري، تنظران إليه.

استدار وأسرع مبتعداً.

٢

عزة تتحدث

أتت إليَّ أمي بالإفطار وأنا في السرير. قالت لي :

ـ «النهارْ ده عايزاك تخلصي الأكل كله.»

تقول ذلك بشبه اعتذار لأنها تخاف أن أغضب. قلت لنفسي إنها تفعل ذلك لأنها أمي وتحبني. وحاولت فهم ذلك من خلال ابتعاث عاطفة حب نحو إنسان ما يكون إبناً فلم استطع، فظلت عبارتي عن أمي غير مفهومة. قلت لنفسي، إنها الهرمونات التي تؤدي إلى.. ثم مللت. انتهيت من الإفطار وناديت أخي :

ـ «عادل، إعمل شاي الله يخليك.»

لقد أصبحنا أصدقاء. جاء صوته من الخارج :

ـ «بطلي بلاده يا حضرة البرنسيسة.»

قلت :

ـ «شاي تقيل الله يخليك.»

سمعت أمي تتساءل. ما زالت تخشى أن نتشاجر مع أن هذا لم يحدث منذ زمن طويل. قال عادل رداً على سؤال أمي الذي لم أسمعه وإن كنت أعلم كنهه.

ـ «المزمزيل عزة عايزاني أعمل لها شاي واكنس الأودة وأنظف لها جزمتها... وإيه كمان يا عزة؟»

قلت :

«وتضحكني شوية.»

ومضى عادل يقول لأمي :

ـ «وعايزاني أعمل لها عجين الفلاحة..»

ثم ضحكت أمي. وانصرف عادل بعد الشاي. ناديت أمي :

ـ «ماما، دقيقة...»

كنت أريد أن أسألها عن العلاقة بين كوني ابنتها وبين كونها تحبني. وعندما وقفت أمامي ورأيت شعرها الذي بدأ يدب فيه الشيب، وعينيها السوداوين المذعورتين دائماً، تبين لي استحالة أن ألقي عليها سؤالي. فأخذت أبحث عن شيء أقوله، ولما لم أجد، قلت :

ـ «كان بيقول لك إيه الواد المجرم دا؟»

قالت :

ـ «أهه بيعمل لك شاي يا حبيبتي.»

ناديت :

ـ «عادل!»

فقال بضيق :

ـ «فيه إيه كمان؟»

قلت :

ـ «طز فيك.»

قال :

ـ «دا من أصلك بس..»

كان أهم اكتشافاتي في الفترة أن كثيراً من المعارك والمشاجرات التي كنت أخوضها مع أهلي لا ضرورة لها. يتعسني قليلاً أن نتيجة كهذه تعبت في الوصول إليها هي فكرة شائعة تقال دائماً ولا تحتاج إلى كل هذا المجهود المضني لمعرفتها. يكاد هذا يكون أهم شيء في حياتي الآن. إن الكلام العادي والحكم الشائعة التي كانت تثير عندي الضحك في السابق أصبحت تفجأني كاكتشاف باهر. فأتعجب كيف أن الناس يمتلكون كل هذه الحكمة وأنا وحدي فقط التي لا تستطيع الوصول إلا إلى نتائج محدودة، وغير مؤكدة، وبعد مجاهدة كبيرة. دخل عادل يحمل الشاي ووضعه على الكومودينو بجواري ثم وقف محنياً رأسه، شابكاً أصابعه وقال :

ـ «أوامر تانية يا هانم؟»

كان وجهه جميلاً بشكل أذهلني، وقلت له ذلك. أصغى لي بخشوع تام ثم نادى أمي :

ـ «ماما، البنت دي بتعاكسني.»

قلت :

ـ «بجد، حقيقي نفسي أحب واحد زيك.»

قال :

ـ «طبعاً اللي بتحب ما بتهمهاش المادة.»

قلت :

ـ «حاديلك فلوس.»

ـ «خمسين قرش؟»

ـ «جنيه.»

كان في وجهه تعبير غريب لم أفهمه. لم يكن تعبيراً مريحاً. فخفت وصمت. خرج دون أن يقول شيئاً، وأخذت أفكر : ما الذي حدث؟ ما الذي أزعجه؟ ها أنا أقع في خطأ ما دون أن أعلم.. هل اعتقد..؟ أخذت أغضب، وناديته. جاء، قلت :

ـ «إنت زعلت ليه؟»

كانت دهشته حقيقية. قال :

ـ «أنا زعلت؟»

لا يمكن فهم ما يحدث. أعطيته الجنيه، أمسك يدي وقبلها وهو يقول :

ـ «ألف شكر يا كابتن.»

القبلة ظلت معلقة في يدي وأنا أسير إلى الحمام.

أحياناً تصبح المسألة مستحيلة. لا أفهم ما يحدث أمامي. كانت أمي تقف بالصالة. فقدرت أن علي أن أصنع لها شيئاً فقبلتها وأنا أقول :

ـ «صباح الخير يا ماما.»

وهي الأخرى انذهلت فلم ترد. فلتنذهلوا كلكم حتى الموت. لقد أصبح ذلك لا يطاق. حقيقة لا يطاق.

في الحمام قررت أن أذهب إلى الكازينو القريب. لو بقيت في البيت لتشاجرت.

***

ما الذي يحدث؟ ما بال الناس هكذا؟ اعني ماذا حدث لي؟ أحاول أحياناً أن أقول شيئاً فيتبين لي أن الكلمات التي سوف استعملها خالية من المعنى، أو بالأصح أن لها معاني غير محددة، وأنه من المستحيل أن تكون جملة مفهومة ـ كدت أقول مفيدة.. كيف تكون الجملة مفيدة.. أعتقد أن هنالك تعبيراً كهذا : جملة مفيدة.. إنني أتعجب عند هذا كيف أنه حتى الأطفال يستطيعون أن يصيغوا أفكارهم في عبارات واضحة ودون أن يبذلوا أي مجهود، بينما أنا على هذه الحال. ولكن الغريب أنه لا يوجد أحد يلاحظ ذلك علي، بل الأشد إدهاشاً أنهم أحياناً يمتدحونني على اعتبار أنني ذكية ولبقة في الحديث. يجعلني مديحهم أشعر بسعادة استعيدها كلما دخلت في دوامة الكلمات.

أقول لعادل إنني أشعر أنني غبية وأردد ذلك لأنه لا يجيب.

يقول فجأة بحدة :

ـ «بطلي يا عزة بقى.»

فأرتبك وأضحك وأقول :

ـ «أبطل إيه؟»

وأنا أعلم تماماً ما يعنيه. فلا يجيب، فأكرر بإلحاح :

ـ «أبطل إيه؟ إنت مش فاهمني!»

فيقول :

ـ «بطلي تسوّل المديح.»

وينظر إلي ويقول :

ـ «زعلتي؟»

فأقول :

ـ «أنا عايزة حد يمدحني بس . . »

ـ «بس؟»

فأقول له إنني أريد أن شعر أنني كالآخرين . يتأملني ويقول :

ـ «العفو يا هانم ، إنت ست الكل . »

أجاهد كثيراً لأن أجد معنى لحادثة ما . تنفتح أمامي مئات الاحتمالات التي لا يفضل أحدها الآخر فأضيع في متاهة لا نهاية لها ، ثم فجأة يأتي إنسان عادي للغاية ويحل اللغز فأتعجب إلى درجة الجنون كيف لم يخطر لي ذلك من قبل . أحاول أن أشرح هذه الحالة تلميحاً لبعض صديقاتي حتى أرى إن كن هن أيضاً يعانين مثلي . تكون ردود فعلهن مثل رد فعل عادل : الضيق . بعضهن يصغين وعندما أتوقف منتظرة الإجابة اكتشف أنهن لم يكن مصغيات إذ يبدأن حديثاً لا علاقة له بما كنت أقوله .

دخلت الكازينو . اكتشفت أنه مكان مناسب للعمل على غير ما كنت أتوقع ـ كل شيء يتضح لي فيما بعد أنه على غير ما كنت أتوقع . جلست وأخذت أراجع ما كتبته . في مثل هذه اللحظة يصيبني اليأس بعض الوقت ، فأقرر أن أتوقف عن المضي في رسالة الماجستير . ثم أعدل عن ذلك بعد قليل وإن كنت ما أزال اشعر بأنني أخطأت إذ اتخذت جراهام جرين موضوعاً لرسالتي . لقد قرأت رواياته كلها وأعدت قراءتها . إن عالمه تعس وبائس ، عالم بشع . ولكنني لم أستطع أن أجد لذلك أي علاقة بعقيدته الكاثوليكية . أي كاثوليكي هو هذا الذي لا يجد موضوعات للكتابة سوى عن العلاقة الجنسية بين رجل وزوجة أخيه ، أو عن علاقة غريبة من الحب بين أخ وأخته ، تسلم فيها الأخت ، رغم ذلك ، أخاها للموت ، وعن وعن . . موضوعات مستحيلة وتعسة ! أين الكاثوليكية من هذا كله؟ . . لقد خطر لي أنه من الممكن أن جراهام جرين يود أن يقول إن هؤلاء الناس بؤساء لأنهم ليسوا كاثوليكيين . ذلك احتمال بعيد ، وخاصة أنهم في نهاية الأمر يذهبون إلى القسيس ويعترفون ، فيقول لهم القسيس كلاماً لا أفهم دلالته . وتزداد المسألة تعقيداً عندما يتحول هؤلاء المذنبون إلى كاثوليكيين وشيوعيين . وأحاول مرة أخرى أن أضع ذلك في سياق آخر : هؤلاء البؤساء يفعلون ما يخطر لهم ، يمارسون حياتهم بحرية فيعيشون حياة تعسة . لو أنهم تقيدوا بتعاليم الدين وأوامر الكنيسة لأنقذوا أنفسهم . مرة أخرى هذا أمر لا يمكن أن يكون موضوعاً لكل هذه الروايات . والشيوعية ، ما علاقتها بهذا كله؟

الأستاذ المشرف لا يبدو أن ذلك يهمه في شيء. إن كل اهتمامه منصرف إلى خطة البحث والمراجع والبيبيلوجرافي وغير ذلك من الأمور الهامة للغاية.

كنت على هذه الحالة عندما دخلت الكازينو في أحد الأيام (بالطبع هنالك أشياء كثيرة أخرى أحذفها، وحذفها يجعل ما أقوله عن نفسي ليس دقيقاً. ولكنني إن ذكرت كل الأشياء فمعنى ذلك أنني سوف أتحدث دون انقطاع دون أن أقول شيئاً مفيداً. كما أنني أحاول جاهدة الآن أن أتخلى عن تلك العادة التي أصبحت تلازمني وهي أن املأ حديثي بالجمل الاعتراضية). كنت أقول إنني دخلت الكازينو في ذلك اليوم فرأيت خالد هنالك. كان يقرأ كتاباً فقررت أن أتراجع ولكنه في تلك اللحظة نفسها رفع رأسه والتقت عينانا. سرت نحوه وأنا ابتسم - أو هذا على الأقل ما كنت أنويه ولا أدري إن كنت نجحت أم لا. صافحته، وعندما دعاني للجلوس لم أستطع أن أرفض.

قال:

- «أهلاً عزة.»

- «أهلاً.»

سألني عن أخباري، قلت:

- «كويسه.»

- «كويسه قوي؟»

قال، قلت:

- «يعني كويسه.»

ثم أخذت أشغل نفسي بإغلاق شنطتي المغلقة فعلاً. قال إن آخر لقاء بيننا كان منذ ثلاث سنين. فوافقته رغم أنني لم أكن متأكدة من ذلك. سألني لماذا لم أحاول أن أسأل عنه مرة واحدة طيلة هذه السنين الثلاث؟ خجلت من نفسي لأنني قد نسيته تماماً. لا أظن أنه خطر في ذهني منذ زمن بعيد. قلت:

- «كنت فاكراك سافرت.»

قال بدهشة:

- «سافرت؟ ها اكون سافرت فين؟»

قلت:

ـ «سافرت بلدك يعني.»

كان يبدو قد شاخ كثيراً. كان ذلك فاجعاً إلى حد جعلني أشعر بالخجل من شبابي. أمسكت بالكتاب الذي كان يقرأه. كان طبعة رخيصة من ذات الغلاف الورقي وحجم كتب الجيب. عنوانه «الشبشب الأحمر». على غلافه صورة فتاة مقتولة، انفرج روب أحمر عن ساقين جميلتين، تضع في إحدى قدميها فردة شبشب قرمزي، بينما قدمها الأخرى عارية وفردة الشبشب موضوعة بأناقة قرب قدمها.

قال:

ـ «رواية بوليسية.»

قلت له إنني خمنت ذلك، ثم أضفت:

ـ «إنت ما كنتش بتسأل ليه؟»

ألقيت هذا السؤال لمجرد أن أقول شيئاً. قال إنه فكر كثيراً أن يتصل ولكنه كان خجلاً. قلت:

ـ «خجلان؟»

هز رأسه، ثم أضاف أنه لم يمر يوم واحد دون أن يفكر في. ملأني ذلك بالغثيان. لاحظت أن ياقة قميصه متسخة قليلاً. قلت لنفسي: «غادريه بأسرع ما يمكن، غادريه!» ولكنني ظللت جالسة وعاجزة عن اتخاذ أي قرار. كان وجهه حزيناً، ففكرت أنني قد أهنته رغم أنني لم أقل شيئاً. قلت:

ـ «بتعمل إيه دلوقتي؟»

قال وكأن أمله خاب:

ـ «في شغلي زي ما انا.»

وأخذ ينظر إلى غلاف الرواية التي كان يقرأها. قلت وأنا أشعر أنني ازداد تورطاً:

ـ «لا، بسأل عن نشاطك الثاني.»

قال بهدوء:

ـ «بقرأ روايات بوليسية وباتفرج على السينما.»

قلت قبل أن أستطيع منع نفسي :

ـ «أفلام عربية؟»

لا أدري ما الذي جعلني أنسحب من لساني . تأملني قليلاً . كان وجهي يلتهب خجلاً، قال :

ـ «أحياناً أفلام عربي . »

ثم أخذ ينظر بعيداً . فكرت أن أغادره ولكن الجرسون جاء وحسم الأمر . قال :

ـ «بتشربي إيه؟»

قلت :

ـ «قهوة . »

انتهى الأمر وسوف يطول هذا إلى ما لا نهاية . عندما ابتعد الجرسون قال لي :

ـ «منحل؟»

اعتقدت أنه يتحدث عن الجرسون . وخطر لي أنه قد يكون أصابه الجنون . قال :

ـ «الروايات البوليسية والأفلام العربي . . . »

أدركت ما يعنيه . وفكرت : متى ينتهي هذا الكابوس؟ وساد الصمت بيننا . حاولت أن أقول شيئاً، ولكن كل اعتذار سوف يكون إهانة أخرى . إنني أعرف نفسي جيداً في مثل هذه المواقف . قلت :

ـ «الكازينو ده لطيف :»

قال :

ـ «الجو حار . »

وابتسم بأسى . ولكن الأمور سارت بعد ذلك في سبيل لم أتوقعه أبداً . قال لي :

ـ «سمعت إنك بتعملي رسالة عن جراهام جرين . »

قلت :

ـ «مين قال لك؟»

ـ «بسأل دايماً عن أخبارك . »

ثم جعلني أحكي له كل شيء عن الرسالة. كان يصغي باهتمام حقيقي. لم يحدث أن أحداً أبدى مثل هذا الاهتمام بهذه الرسالة. وعندما تكلم اكتشفت أنه قد قرأ كل روايات جراهام جرين. ولكن المفاجأة الكبرى أنه امتدح ما وصلت إليه من نتائج. أي نتائج؟ قال:

ـ «إنتي لمستي جوهر فنه.»

ـ «إزاي؟»

ـ «يعني بؤس العالم بلا إله.»

أخذ عقلي يعمل بسرعة غريبة. أصبح لكل شيء معنى الآن. قلت له ذلك. قال:

ـ «إنتي غريبة قوي. ما انتي وصلت للنتيجة دي قبل ما اقول أي حاجه.»

كنت بحاجة إلى هذه العبارة فقط حتى ترتبط كل الأشياء المبعثرة في نظرة واحدة. قلت:

ـ «يفضل (أمريكي هادئ)... إيه علاقة الشيوعية بالكاثوليكية. استنى، استنى..»

قال:

ـ «يمكن رواية (الكوميديون) توضح المسألة دي أكتر.» وهذا أمر لم أكن أتوقعه: أن يكون لجراهام جرين رواية أخرى لم أقرأها بعد. قال لي إنها آخر رواياته على الأغلب.

ثم فجأة خطر لي: والروايات البوليسية والأفلام العربية؟ هل كان يمزح؟

لم أكن أعلم أنني بتساؤلي هذا كنت قد بدأت أول خطوة لاستعادة علاقتي به. كل ما كنت أحسه في تلك اللحظة هو الاشمئزاز من الوضع الذي تردى فيه ـ القصص البوليسية والأفلام التافهة ـ ومن ياقة قميصه المتسخة. لم أكن أملك الثقة الكافية بالنفس لأن أرثي له. كان مجرد اشمئزاز.

تحدثنا عن جراهام جرين طويلاً وقد جعلني ذلك أشعر أنني أستطيع أن أغادره على التو وأكتب رسالتي كاملة في اليوم نفسه. وعندما توقف قليلاً ليطلب من الجرسون فنجاني قهوة آخرين وليشعل سيجارة، قلت له:

ـ «عايزه أقول لك حاجه.»

أفزعني للحظة أن يكون قد فهم أنني أنوي أن أعيد علاقتي به. ولكنه كان ينصت فحسب. ثم أصبح ما أريد قوله يستعصي على الكلمات. كان ينظر إلي ولا بد أن أقول شيئاً. قلت:

ـ «يعني، ما بقتش فاهمه حاجه.»

ـ «مش فاهم.»

قلت:

ـ «ما انا عارفه.»

ضحك ولكنه ما زال يصغي. ثم دفعني الحرج واليأس أن أقول أي شيء. لم أكن أدري ماذا أقول. وخلال ذلك كنت أفكر: لقد جاء دوره ليشعر بالغثيان مني. سمعته يحدث نفسه، دون صوت، إن هذه الفتاة التي كنت أحبها قد أصبحت مملة. جعلني ذلك أشمئز من نفسي، فبدا كل شيء واضحاً لي. أخذت أشرح له دون أن أهتم بعد بما سوف يظنه بي. شرحت له ضياع المعاني من الكلمات، قلت له إن تكوين جملة مفهومة أصبح مشكلة عويصة عندي، وإنني لم أعد أفهم ما يحدث. الآخرون يفهمون ذلك بأقل مجهود، بينما أنا عاجزة تماماً عن تفسير أبسط الأشياء. أفكر في مئات التفسيرات ولكن التفسير الصحيح يعرفه غيري. دائماً يحدث هذا. في كل مرة.

ـ «فاهم؟»

قلت له. قال:

ـ «بالطبع.»

وعلى وجهه تعبير غريب، وأنا أقول لنفسي يجب أن أتوقف، يجب أن أتوقف ولكن الكلام يثقل علي، يخنقني فلا أستطيع سوى المضي في الحديث.

قلت: يخيل إلي أن كل ما يحدث قد اتفق عليه الناس مقدماً. كأنهم يجتمعون في الليل، عندما أكون نائمة، ويتفقون على ما سوف يفعلونه، يناقشون كل التفاصيل. فأراهم في اليوم التالي يعرفون كل شيء، يعرفون السر ولكنهم قد اتفقوا أن يخفوه عني.

كانت عيناه تضحكان. خفت لأنني قلت له ما قلت. قلت سوف يعتقد أنني جننت. تعلقت عيناي بشفتيه منتظرة أن يصدر قراراً يحدد به مصيري.

مرت فترة صمت ففتحت شنطتي وتظاهرت بأنني أبحث عن شيء فيها. قدم لي سيجارة وأشعلها. طعمها كان لذيذاً. وأنا أقول لنفسي: لماذا لا يقول شيئاً؟ لماذا يصمت؟ قلت:

ـ «دوشتك.»

بقصد أن أستحثه على الكلام.

قال:

ـ «لما كنت إنسان كويس، لما كان ممكن أعمل حاجه، كنت بشعر بنفس شعورك.»

كان ذلك آخر ما كنت أنتظره. قلت:

ـ «مش فاهمه.»

قال إنه كان مثلي، أحس مثلما أحس أنا الآن: أن العالم يجب أن يعاد اكتشافه ـ الكلمات والناس والأحداث والأفكار. وكان يشعر مثلما أشعر الآن: أن العالم قد أخذ يعاقبني على ذلك ـ قال كلمة «يعاقبني» بالفعل ـ بأن أصبح مصمتاً، مستعصياً على الفهم. كانت الخطوة الثانية التي كان علي أن أقوم بها هو أن أصيغ تلك الرؤية وأتجاوزها. ولكني لم أفعل.

قلت:

ـ «ليه؟»

قال إن عبثية العالم قد أعجبته. أحبها لأنها جعلت العالم يبدو مضحكاً ولم يستطع أن يتخلى عنها.

قلت:

ـ «ليه؟ مش فاهمه يعني.»

قال إنه شعر بأن الزمن يسرقه ـ يسرقه؟ ما معنى ذلك؟ ـ وأنه عندما يعاني الإنسان من مثل هذا الإحساس فإنه يكون قد رفع راية الاستسلام. قلت:

ـ «بس أنا مش خايفه من الموت.»

قال أنت نجوت، لأنك بالفعل قد أخذت تتجاوزين نفسك.

قلت :

ـ «وانت؟»

ـ «خلاص.»

قلت :

ـ «لازم تحاول.»

أحسست أنني مفتعلة. فأضفت :

ـ «ما دمت عارف ده فما فيش مشكلة.»

قال :

ـ «المسألة مش بالبساطة دي.»

كنت أريد أن أبكي. قلت له بحدة : محاولة أن أمنع نفسي من البكاء، وأنا أحرضه ضد نفسي :

ـ «أنا بكدب.»

ونظر إلي منتظراً مني أن أكمل حديثي، فقلت إنني لا استطيع رواية ما يحدث لي. أحاول أن أحكي ما حدث فأجده بلا معنى، فأضيف وأحذف أشياء كثيرة.

قال :

ـ «بتهيأ لي إن الفن كده.»

ـ «الفن؟»

قال إنه محاولة إعطاء المعنى والنظام لعالم معقد أشد التعقيد وخال من الدلالات البسيطة.

قلت :

ـ «عادل بيقول لي باستمرار إني بتسوّل المديح. وده حقيقة صحيح. بفرح قوي لما حد يمدحني.»

قال :

ـ «عادل مش فاهم حاجه . »

نظرت إليه ووجهي يقول له : «كيف؟» ولكنه لم يرد على سؤالي . تجهم وجهه، تجهم جداً حتى حسبته سوف يبكي، ثم قال لي :

ـ «ونصيحتي ليكي يا عزة إنك تبعدي عني . »

ـ «مش فاهمه . »

كان ذلك يشبه ما يحدث على المسرح . لم يكن حزنه ولا مفاجأتي مقنعتين . قال :

ـ «أنا مهزوم وحا اعديك . »

كما يحدث في المسرح . معنى عبارته هذه أنه يعاني، وهكذا نكون قد فهمنا ما يدور أمامنا . ومثلما يحدث على المسرح، قلت :

ـ «مش كنت بتقول إنك لسه بتحبني؟»

قال :

ـ «بتهيأ لي إني ما عدتش قادر على الحب . »

لم يعد هذا يشبه ما يحدث على المسرح، لأنه كان عليه أن يقول :

ـ «لأني بحبك بقول كده . »

أخذت انظر إليه وأقول لنفسي : «إنه يعاني» ولم يكن ذلك يعني أي شيء بالنسبة لي .

***

ثم تتالت الأحداث وانتهت بنا إلى السرير . تم ذلك وكأنه يحدث مع فتاة أخرى وأنا مجرد متفرجة . .

لقد غادرنا الكازينو وسرنا مشياً على الأقدام إلى بيته . لم يكن ذلك بناء على دعوة وجهها إلي بل سرنا في الطريق إلى حيث يسكن وكأن هذا هو الشيء المنطقي الوحيد الذي يجب علينا أن نفعله . دخلنا الشقة فأشعل خالد نور الصالة، وفكّرت : «ها هو قد أصلح مفتاح النور» وأحسست بالراحة لذلك . بدت الشقة غريبة وكان هذا تحدياً لي .

دخلنا المطبخ سوياً. فتح خالد غطاء الحلة. البسلة واللحمة. فانفتح غطاء الماضي. فجأة وجدتني أقوم بالحركات المألوفة: أعيد غسل الأطباق والملاعق، أقرر أنه قد آن الأوان لاستبدال خرطوم البوتاجاز الذي يتسرب منه الغاز عند فتح الأنبوبة، أضيف قليلاً من الماء على الأرز الذي بدأ يصدر أصوات الاحتراق. ثم صنع السلطة. وكان الغداء جاهزاً وكأن فتاة أخرى هي التي أعدته، لأنني طيلة الوقت كنت أفكر في أشياء أخرى.

قلت له ونحن نأكل:

ـ «أم عبده ما غسلتش الأطباق كويس زي كل مرة.»

فقال إنه قال لها ذلك مئات المرات بلا فائدة. وواصلنا الأكل. تذكرت أخي، فمرت في ذهني عبارة: «لم أره منذ ثلاث سنين.» عندما ذهب إلى الحمام ليغسل يديه قمت بالخطوة التالية بشكل ميكانيكي، وضعت الكنكة على البوتاجاز وأضفت البن إليها. برزت أمامي صورة أمي تدخل علي بصينية الإفطار، فقررت أن أجعلها تتناول معي الإفطار من الآن فصاعداً. شيء لطيف أن يشاركنا الطعام أحد نحبه.

حملت القهوة إلى الصالون وكان جالساً. قلت:

ـ «ولع لي سيجارة.»

أشعل سيجارة ومدها لي بعينين ضاحكتين. ثم أخذنا نتحدث بكسل ما بعد الغداء. قال:

ـ «إزاي ماما؟»

قلت:

ـ «على ما يرام.»

وفجأة تذكرت عادل وأمي وحجرتي وصورة أبي الكبيرة، ونظرت حولي فبدا لي المكان غريباً، فقررت أن أنصرف بعد أن أنهي سيجارتي.

قلت، دون ارتباط واضح بما كنت أفكر فيه:

ـ «بيجي لي كوابيس كتيرة بالليل وانا نايمه.»

قال:

ـ «أنا بتيجي لي بالليل والنهار.»

توقعت أن يقول ذلك. نظرت إليه وقلت لنفسي: «إنه حزين» ومددت يدي ووضعتها في شعره وكأن ذلك هو الشيء الوحيد المنطقي الذي يمكنني أن أرد به على عبارته. لم أفهم دلالة تلك النظرة المندهشة ووعيت عبارته التالية كأنها مجموعة من الألفاظ متجاورة، لا تعني شيئاً. قال شيئاً مثل أن علي أن أبحو وشيئاً عن كوني أدمر نفسي. ولكنه استسلم لعناقي وقال:

ـ «تعبت!»

وأخذ يردد هذه الكلمة وقد أثارني ذلك إلى أبعد حد. ثم سرنا إلى السرير وأنا مستندة على كتفه وكانت عيناي غائمتين، لا أستطيع أن أرى بهما في وضوح، ثم لا أعرف كيف حدث ذلك.

كان أشبه بالصحو من النوم. أخذت اتساءل: ما الذي يحدث بالضبط، وكيف حدث؟ كان أمراً مضحكاً للغاية أن يتخلى خالد عن الوقار الفاجع وعن جلاله المأساوي ويصبح هكذا منطلقاً في التقبيل والعض واللهاث. تفرجت على ذلك دون أن أفهم دلالته بشكل محدد، ورغبت في الضحك ولكنني لم استطع أن أضحك. ثم أخذت أستجيب وأندمج، ولكنني رأيت وجهه شديد الجدية، وفي لحظة خيّل إلي أنه سوف يبكي، ورأيت تجعدات ضئيلة حول عينيه، وعيناه غاضبتان، فعاودتني الدهشة لما يحدث، ثم نسيت كل شيء وأخذت أفكر أنني وعدت أمي أن أعود إلى البيت في الرابعة لنذهب لزيارة خالتي في المستشفى. سوف تتألم لو تأخرت عليها ولكنها سوف تتظاهر بأن ذلك لا أهمية له. احببت أن أعرف الوقت ثم تنبهت أن خالد بجواري وأنه يجب علي ألا أفكر في أمور كهذه. حاولت أن أرى الساعة التي في يده، واستطعت بعد جهد أن أتبين أنها الرابعة إلا ربعاً ـ قد تكون الخامسة إلا ربعاً ـ وعلى أي حال فالوقت قد فات. عند ذاك أخذت أرغب أن ينتهي كل شيء بسرعة لأن ذلك أصبح مملاً جداً. ولكنه من الواضح أنه ينوي أن يطيل ذلك إلا ما لا نهاية. وحين أقول «إلى ما لا نهاية» فإنني أصور مشاعري في تلك اللحظة بدقة. ثم فجأة خطر لي هذا التساؤل: ما علاقة الكلام الذي كان يقوله بهذا الذي يحدث؟ وأحاول وأحاول أن أفهم هذه العلاقة فلا استطيع. كل ما كان يبرز أمامي هو وجهه الحزين، الوقور وهو يصغي لما أقول ومقارنة ذلك بوجهه الذي يقترب بين حين وآخر ويقبلني، أو يعض

كتفي، ثم يتوقف وينظر إلي بعينين حالمتين ويتمتم : «حبيبتي» ثم ينقض مرة أخرى ويواصل قبله التي لا نهاية لها.

أصبحت أختنق بالملل ولكن ذلك لا ينتهي أبداً.

وحين انتهى غادر السرير ورأيت جسده عارياً فاندهشت. كم يبدو الإنسان غبياً وهو عار. وعندما غاب في الحمام شعرت بألفة حميمة مع الملايات، وارتفعت الرغبة في داخلي. كانت عنيفة بشكل لا يطاق. اشتقت إلى جسد غير محدد الملامح أن يحتويني. وعندما انفتح باب الحمام مات كل شيء في داخلي، وأحسست بجسدي كمجرد ثقل على السرير. كانت مواجهة جسده العاري وهو يدخل الحجرة عبئاً ثقيلاً وددت لو تفاديته.

***

في الشارع سرت بإحساس الفتاة التي فقدت أعز ما تملك. خدعها الرجل بكلامه المعسول وعندما انتهى منها ألقاها في الشارع. كان ذلك في فيلم رأيته منذ زمن بعيد ونسيت اسمه. الفتاة تدب بخطوات متخاذلة، متألمة، مع كل خطوة يتقلص وجهها بالألم كأن جرحاً ينفتح. شعرها منثور على وجهها بخصلات جميلة دون نظام، ودموعها تتساقط ولا تحاول أن تخفيها. تنتقل الكاميرا إلى وجوه المارة الذين نراهم وهم يدققون النظر في الفراغ، ولكن المتفرج يعلم أنهم ينظرون إلى الفتاة. تتركز الكاميرا على وجه شاب جميل، يتقدم بوجه متسائل إلى الفتاة ويعرض أن يساعدها. تزجره بعنف وتأمره أن يبتعد ولكنه لا يبتعد. الأغلب أنه الشاب الذي أحبها وتزوجها فيما بعد. لا أذكر ماذا كانت نهاية الفلم ولكن خيالي رأى الشاب يغفر لها ويحبها، ثم يركع أمامها طالباً منها أن تتزوجه. لكن الرجل الآخر يظهر في حياتها فجأة فتدع كل شيء وترتمي تحت قدميه. يستمتع بها الرجل أياماً معدودة ويلقي بها إلى الشارع مرة أخرى. وللمرة الثانية والأخيرة يغفر لها زوجها الجميل، وفي اللحظة نفسها يكتشف الرجل الفظ الآخر أنه يحبها، فيرتمي عند قدميها ولكنها ترفضه.. كم أنا مملة، فلأتوقف، وتوقفت بالفعل وأنا أحاول أن أخفي الابتسامة التي ارتسمت على وجهي.

ويتسلسل الفلم في ذهني مرة أخرى، ارقبه واجعله مادة للسخرية. ثم أتنبه إلى حقيقة أنني ألفت فلماً في دقائق ودون اكتراث، وسوف يكون لو تم فيلماً ناجحاً.

وفكرت أنني أذكى من الأخريات.

وفي حقيقة الأمر لم أكن حزينة ولا مبتئسة. كنت فرحة وقد جعلني ذلك أشعر بأنني خفيفة على الأرض. وفكرت هكذا: ها هي فتاة متميزة، أذكى من الأخريات (بعد تأمل أضفت: والآخرين) ولكنها لا تعلم ذلك، بل هي مقتنعة أنها عكس ذلك تماماً. ورسمت على وجهي صورة الفتاة العبقرية التي لا تعلم ذلك ـ حاولت أن أجعله وجهاً طفلياً، مهموماً بمشاكل عملية، عادية، ولا يكاد يشعر بعزة الأخرى التي ترى هذا الوجه وتقول لشاهد كلي المعرفة والحكمة، محايد، صارم: إنها لا تعلم أنها عبقرية. فيوافق الشاهد بعد أن يتردد قليلاً في صياغة عبارات الموافقة.

ثم قلت لنفسي فلأتوقف عن هذا. فتوقفت وأنا أشعر بالخجل من عيون المارة، ولكن فرحي غالبني، واشتعل معه خيالي وعدت مرة أخرى أسائل نفسي: ماذا كنت أقول؟

***

أمي نامت، عادل في حجرته يذاكر، فأخذت أغني وأصخب، ثم أخذت في إلقاء خطبة الحجاج بين يوسف الثقفي، ثم ناديت عادل بأعلى صوت ممكن:

ـ «عادل، إني لأرى الدماء بين العمائم واللحى..»

وعندما التفت كان عادل يقف بباب الحجرة، ممسكاً بيديه إطار الباب، ورأسه مندفع قليلاً إلى الأمام. قال:

ـ «بقول لك إيه يا كابتن!»

قلت وكأنني فوجئت:

ـ «أفندم يا سعادة البيه؟»

قال:

ـ «يعني لو سيادتك تتهدي شويه خلينا نذاكر الكلمتين اللي حاننجح بيهم.»

ـ «سيادتك جالك وجع في بطنك. بقول لك إيه يا أستاذ عادل: عامل إيه مع الجو بتاعك؟»

تنهد وقال:

ـ «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.»

تظاهرت بالانزعاج وقلت :

ـ «كفى الشر يا اخويا.. مالك؟»

ـ «ما أنا قلت لك كل حاجة بالتفاصيل الكاملة..»

قلت :

ـ «تعرف يا واد يا عادل انك عبيط.»

ـ «عارف طبعاً.»

ـ «وإنك لذيذ وطعم.»

ـ «عارف.»

كان هو أيضاً يشعر بالملل من المذاكرة، فأشرت إليه بيدي وقلت :

ـ «اقترب مني يا ولد.»

سار خطوتين داخل الحجرة وتوقف. ووقف منتظراً على هيئة استعداد عسكري.

قلت :

ـ «إيه رأيك تعزمني نقعد في حته؟»

ارتسم انزعاج مخيف على وجهه فأدركت أن الفكرة قد راقت له. قلت :

ـ «ضيّعت الجنيه على المزمزيل فواكه؟»

ضحك ضحكة كبيرة، فقلت :

ـ «جتك خيبه، هوه فيه حد يحب واحده اسمها عواطف؟»

ثم أخذت أسرّح شعري استعداداً للخروج فقلت :

ـ «تعرف إني ساعات أنسى اسمها وبناديها انفعالات؟»

قال :

ـ «حا أقول لها والله.»

قلت :

ـ «طز فيك وفيها.»

في الشارع اكتشفنا أن جميع الأماكن غير مناسبة. قال : جروبي أو لاباس، ولكنهما سيغلقان بعد العاشرة بقليل. قلت : فلنذهب إلى زينة، قال إنه لا يحب المكان، اتفقت معه بعد أن استعدت صورة المكان في خيالي. قلت :

ـ «بارسيسل.»

فقال هنالك ضجيج ولا نستطيع أن نتبادل كلمة. الفنادق الكبرى أصبحت مستحيلة بسبب ارتفاع الحد الأدنى للطلبات. ثم خطر لي خاطر فجذبت يده وقلت :

ـ «تعال معايا.»

ـ «فين؟»

ـ «من غير أسئلة.»

ـ «بس قولي حاتودينا على فين!»

قلت :

ـ «ما تخافش، مش حااغتصبك.»

اشتدت قبضته على يدي ولم يقل شيئاً. قلت لنفسي : «من المؤكد أنني جننت.»

سرنا قليلاً في شارع قصر النيل ثم انحرفنا إلى الشارع المؤدي إلى شارع صبري أبو علم، بعد لاباس، قال :

ـ «حانروح فين من هنا؟»

ـ «إمشي بس.»

ثم أدرك فجأة إلى أين نذهب، فقال :

ـ «يا بنت المجنونة!»

قلت له وأنا أدفعه أمامي :

ـ «بطل لؤم.»

ـ «بجد ياعزة الوقت متأخر.»

ولكنه سار.

فتحت لنا الباب بهية. فوجئت. كانت ترتدي قميص النوم.

وأخذت تنظر بتساؤل، ثم قالت :

ـ «أهلاً يا عزة يا بنتي، أهلاً يا ابني.»

أفسحت لنا الطريق :

ـ «تفضلوا.»

اعتذرت لها عن مجيئنا في هذه الساعة المتأخرة وكنت عازمة أن أخترع أكذوبة تبرر المجيء، ولكن الأم قاطعتني قائلة :

ـ «يا خبر يا بنتي، ده انتو نورتو..»

كانت عواطف تقف في نهاية الصالة، الضحك متجمد في وجهها، وعيناها مفتوحتان بدهشة. كانت جميلة، بريئة كطفلة في ملابسها البيتية. قالت بصوتها الصغير الخافت وهي تقترب :

ـ «عزة يا حلوه!»

وعانقتني.

ـ «عزة يا حبيبتي، كنت بتخنق!»

وأخذت ألعب. قلت :

ـ «أخويا عادل. وحتة القشطة دي عواطف..»

قالت :

ـ «أهلاً عادل.»

قلت :

ـ «بيقول بقى له كتير ما شافكيش.»

قالت وهي تضحك :

ـ «النهار ده كنا سوا.»

ثم أضافت :

ـ «أولاً، نتعشى.»

قال عادل :

ـ «إحنا تعشينا.»

قالت عواطف :

ـ «كداب!»

ونظرت إلي

ـ «مش كده؟»

قلت :

ـ «أيوه كذاب.»

وبعد أن تعشينا ودخلت تانت بهية لتنام جلسنا نحن الثلاثة. ربما كانت هذه هي المرة الأولى التي أشعر فيها بالغيرة، أو على الأقل أشعر بها على هذا النحو. كان ذلك بسبب أنني أخذت أحس في لحظات أنني أقحم نفسي على اثنين يحبان بعضهما. كان التفاهم بينهما تاماً إلى حد شعرت معه أنهما يجاملانني. حاولت أن اتماسك ونجحت في أول الأمر ثم أصبح ذلك غير ممكن. فقلت لهما إنني آسفة لأنني أثقل عليهما بوجودي. ومضيت أقول كلاماً كثيراً لم أكن أعيه تماماً. لاحظت أن وجه عواطف قد شحب، فسجلت ذلك في ذاكرتي دون أن يحمل لي أي دلالة. اعتقد أنني قلت إن العالم كله ضدي بما فيه هما أو شيئاً كهذا. فتحت عواطف فمها وأغلقته، ثم دارت بلسانها على استدارة فمها، وعيناها كبيرتان وبراقتان كأنها تشاهد أحداثاً مرعبة ومدهشة. قالت فجأة :

ـ «إنتي مجنونة، بجد إنتي مجنونة.»

قال عادل بهدوء شديد، هدوء الذي يتعذب ويتجلد في الوقت ذاته :

ـ «إنتي مش طبيعية النهار ده يا عزه. لا، حقيقي ياعزه، من العصر وأنا ملاحظ ده.»

وسادت فترة صمت. أخرج عادل سيجارة وأشعلها وقدمها لي، ثم قال لعواطف بتلك الرقة الحانية، المتواطئة، الجادة التي تعبر عن تفاهم صميمي يتجاوز الكلمات التي تقال، والموقف، والمكان وكل شيء يحيط بهما :

ـ «أولع لك سيجارة؟»

هزت رأسها، كان ذلك كافياً لأن يفهم تأكيد تضامنها معه ضدي، وعلوها فوق

الموقف الذي خلقته أنا. أحدث ذلك لسعات خفيفة، متكررة في قلبي، وأحسست بأنني الطفلة التي أفسدها الدلع فكسرت الفازة الثمينة.

أخذت دموع عواطف تنساب فمسحتها بيدها. وكان ذلك فوق ما أطيق. حاولت أن أقول إنني كنت أمزح، ولكن ذلك سوف يكون إهانة لذكائهما. تقدمت من عواطف ووضعت يدي على رأسها ونظرت في عينيها وقلت:

ـ «أنا آسفة، حقيقي أنا آسفة. أنا عارفه إني النهار ده مش طبيعية.»

ثم التفت إلى عادل وقلت:

«عادل، بشعر كأني منوّمه. خلاص بقى، ما انا قلت إني آسفة.»

توقفت عواطف عن البكاء وقالت:

ـ «إنتي مجنونة، انتي مجنونة..»

ضحكت وقلت لها:

ـ «ما أنا تقريباً قلت كده عن نفسي..»

قالت:

ـ «إذا كنا بنعمل بالسياسة وانتي ما تعمليش فده راجع ليكي انتي.»

لم أفهم، ولم أجد ما أقوله. قال عادل بهدوء:

ـ «إنتي ما كنتيش عارفه قلتي إيه؟»

وأخذت أنظر إليه. قال:

ـ «قلتي إنا واخذين موقف منك علشان قطعت كل صلة بالسياسة.»

قلت:

ـ «ما كنتش عارفة باقول إيه.»

ثم صمتنا.. كان عادل ينظر إلي فتفاديت عينيه وأخذت أنظر إلى يدي. وعندما رفعت وجهي إليهما كان عادل يحيط كتفي عواطف بذراعه وهي تتكئ برأسها على كتفه. كانا جميلين إلى حد يستحيل معه ألا أشعر بأنني فائضة عن الحاجة. ربما كان ذلك هو الذي جعلني أمتلك قدراً من الحياد وأتماسك. أحسست في تلك اللحظة بأنني شاهدة على مجد الإنسان في أروع تجلياته، والذي لن يعلو فوقه أبداً، تلك القمة

الفاصلة بين نهاية الصعود وقبل نهاية الانحدار. لن يكون بعدها إلا الهبوط المتوالي : الزواج والملل وروتين الحياة.

ولهذا كان جمالها فاجعاً. أي كشف باهر انبلج أمامي ساعتها، أي فرح وأي حزن !قلت وأنا أختنق بحس الفاجعة، من هذا الجلال تبدأ المأساة، وصرخة في داخلي محتبسة : احذروا!

كان عادل يجلس مستقيماً، هادئاً، ينضح رجولة واعتداداً. بذلك الهدوء الحزين الذي يحمل توازناً دقيقاً بين انفعالات عنيفة : الحب والغضب، حزنه من أجل أخته وحبه الراسخ، هموم الحياة والمستقبل وفرح الالتصاق بامرأة يحبها ـ يجلس شامخاً يتحدى بذرة المأساة. وعندما قلت لنفسي : إنه أخي! أخذت أفكر في الكيفية التي تسمح لي بها المواصفات الاجتماعية أن أكنّ والتصق بتلك الرجولة الصلبة الحانية. وأنقب وأبحث مجهدة فلا أحوز إلا على حق التأمل من مسافة لا يسمح بعدها بالاقتراب، فأدرك أن ذلك الجنون ـ الشوق لن ينطفئ أبداً.

وكانت عواطف قطعة لدنة، لون العسل، فاكهة ناضجة استخلصت من الأرض والهواء والشمس كل عصاراتها، ولن تستطيع مهما حاولت أن تقاوم، إلا أن تشتاق إلى قضمة تندفع بعدها عصارات حلاوتها تتسرب إلى العروق، توقف الزمن، تعيد الشباب والذكريات والماضي كله. ومن المستحيل وأنت ترى خط الجسد الصاعد إلى الكتف، والعنق المائل، الشامخ، المستند على كتف من تحب.. من المستحيل ألا تذكر سبعة آلاف عام تصب في هذا الجسد كل جمال الأنثى وتاريخها السري العريق. في جسدها المائل نحو عادل، المستسلم في دلال ذلك العبث الفاتن الذي يغلف حيوية متفجرة، يحيط بخصوبة ولادة معطاءة وخبرة تتخطى مرحلة السن والظروف، وأتذكر تمثال الملكة تي وهي تجلس بجوار زوجها، وقد مالت بردفيها نحوه في إغواء لعوب، مدرب، ملامسة جانبه الأيسر، وتعلم أن هذا الجسد الشامخ، الفاجر يخفي صلابة ابنة الشعب التي شقت طريقها نحو القمة بمجهود خارق، ويخفي أعظم مبادئ الإنسانية التي لقنتها لابنها أخناتون، ومن بعد ذلك أغوته وجعلته يتزوجها ويهجر نفرتيتي. وأصرخ بهما دون صوت «وأنا أيضاً، وأنا أيضاً» وتتكاثر الكلمات في داخلي وتتوه الفكرة.

كان وجه عواطف قد التهب قليلاً بالبكاء، فاكتسب شفافية ونعومة وأناقة قد

أعدت خصيصاً لتخلق أسطورة في مجرى التاريخ، وعيناها البنفسجيتان، السوداوان الساطعتان ببقايا دمع تبثان أنوار الفجر وبريق نجمة الصبح. . كانتا متأملتين، تصغيان إلى حديث حب ينتقل إليها عبر جسد عادل، وكان ذلك الحديث يضحكها قليلاً ويفرحها كثيراً.

ثم هبطت عليّ السكينة والرضى. كان ذلك يشبه هدهدة أم. وانفسحت أمامي أرض خضراء على مدى النظر، وصحاري، وأمواج بحور، وتحولت الصرخة إلى كلمات ملأتني بالاعتداد: «وأنا أيضاً وارثة ذلك التاريخ العريق والأرض. .» وكان ذلك إحساساً بالانتماء، وأصبحت أنوثة مطلقة.

وعندما وقفت، ورفعا نحوي وجهيهما، خشية وتساؤلاً، كنت قد استعدت هويتي. اقتربت منهما وقبلت عادل على جبينه مدركة بوضوح كيف أكون أختاً. ثم أمسكت بوجه عواطف بين يدي الاثنتين وأخذت أقبلها في كل مكان في وجهها. وانبثقت الدموع مرة أخرى من عينيها وأحسست بطعمها في فمي. وعندما عاودت الجلوس ضحكت عواطف وقالت:

ـ «إنتي مجنونة. .»

كان عادل يبتسم لي. ومضت عواطف:

ـ «وانتي قاعدة بتبصي لنا كنتي حلوه، حلوه. . مش كده يا عادل. .؟ بس كنت خايفه منك. .»

واتخذ ذلك سياقاً في داخلي.

كان يشبه أن أرى نفسي من خارجي.

***

صحوت في التاسعة صباحاً نشطة، متلهفة للحياة. كنت أشعر بفرح حاولت أن أتذكر سببه، ولكنني توقفت. حين أتذكر فسوف يندرج كل ما حدث في سياق العالم المضجر، سوف يتداخل الفرح بالألم بأحداث أخرى لا تثير أي انفعال فيتبدد كل إحساس بالسعادة. ارتديت ملابسي بسرعة. «ولمَ الاستعجال؟» قلت لنفسي. كان عادل ما يزال نائماً فقلت لنفسي: «ذلك أحسن» لأنني لم أكن أرغب في التحدث إليه.

هبطت دون أن انتظر المصعد. «يجب أن أسرع». في الشارع أدركت أنني ذاهبة إلى خالد. لقد نسيته في اللحظة التي غادرته فيها البارحة. لم يكن بيننا موعد في حقيقة الأمر، بل نظر إلي وقال إنه لن يغادر البيت غداً ـ اليوم ـ قبل الحادية عشرة صباحاً، تاركاً لي لأقرر إن كنت سوف أجيء إليه.

أوقفت أول عربة أجرة وطلبت من السائق أن يسرع. وكنت خلال ذلك أفكر أنني ربما أحتاج إلى شهر للانتهاء من الرسالة، وشهر آخر لمراجعتها وطباعتها ومراجعتها مرة أخرى. وسوف أكون معيدة في الجامعة، وأن ذلك سوف يحقق دخلاً مناسباً بعد تطبيق الكادر الجديد في الجامعات. ثم توقفت العربة ففوجئت. وحاسبت السائق ودخلت باب العمارة وأنا في حالة دوار. أمام شقته أدركت بشكل مبهم أنني ارتكبت خطأ. لم أكن في حقيقة الأمر أشعر برغبة في رؤيته، كما أنني كنت ابتذل نفسي عندما أجيء إلى مكان لا ينتظرني: إنني أزور رجلاً ضاجعني وهو ينصحني أن ابتعد عنه.

فتح لي خالد الباب فأنهى ترددي.

ـ «عزة، أهلاً..»

مجيئي قد أسعده دون شك.

لم يكن ذلك الحكيم، التعس، المأساوي الذي كانه البارحة. تحدث بلا انقطاع ولم أستطع أن أتابع أكثر ما يقول. ولكنه سعيد، هذا ما لا شك فيه. وأتاني مرة أخرى ذلك الشعور بأننا نقف على خشبة المسرح، فكانت خطواتي محسوبة، أحاول أن أرضي الجمهور. كنت في الوقت ذاته أنا المخرج والجمهور والناقد.

كان يقول إنه لا يدري ماذا حدث له ولكنه اكتشف أنه راغب في العمل. لقد أخذ يكتب. لقد كتب. وفكرت أن معنى ذلك أنني غيرت مسار حياته ـ هكذا يفعل الحب. في هذه الحالة من المفروض أن أعبر عن فرحي.

قلت إنني سعيدة، ثم أضفت بعد تردد:

ـ «بتكتب إيه؟»

تتابع صوته وأنا لا أصغي، وأفكر أن الجمل يجب أن تكون قصيرة حتى لا يضجر المتفرجون. تغيرت نغمة صوته. كانت أشبه بالبكاء، وهو يقول: هذه السنين

الثلاث كانت موتاً، موتاً حقيقياً. سمعت نفسي أقول إنها، هذه السنوات الثلاث، كانت موتاً بالنسبة لي أيضاً. وفكرت أن علينا ألا نطيل فقد اتضح الموقف للجمهور بما فيه الكفاية، وخاصة وهو يكرر كلمة «عزة» دون انقطاع. قال إن ذلك يجب ألا يحدث مرة أخرى يا عزة. «عزة، سامعاني؟ لازم ده ما يحصلش تاني أبداً..» أو شيئاً كهذا. قلت لنفسي: «كيف؟ وما هذا الذي حدث ويجب ألا يحدث مرة ثانية؟» قلت له، لا، لن يحدث، لن يحدث. وأنا أتأمله وأفكر: أين أنا؟ لا أكاد أعرفه. قال:

ـ «عزة...»

عزة، عزة، كأن ذلك لن ينتهي أبداً. قال:

ـ «عزة، سامعاني؟»

ـ «سامعاك..»

ـ «لازم نتجوز..»

قلت لنفسي: «بالطبع يجب أن يتزوجا.» قلت:

ـ «أيوه. طبعاً.»

وكان ينظر إلي بذهول. «ما الذي أصابه؟ سوف يفسد كل شيء، كل شيء. استمر!» ثم اجتاحني الدوار وأخذت أهبط والأشياء تدور، وهو، زئبقي، مترجرج في وسطها يبتعد ويدنو، ثم يبتعد.

قلت:

ـ «خالد..»

جلست محاولة أن أرى بوضوح.

ـ «عزة، عزة..»

كان يناديني.

ـ «فيه إيه؟ مالك؟»

ثم «عزة، عزة...»

قلت:

ـ «يعني احنا يا عادل، يعني يا خالد..»

توقف الدوار وهو في وسطه علامة سؤال. لم أستطع أن أضيف شيئاً. قال :

ـ «حا اعمل لك قهوة.»

وفكرت أنها ذلك المذاق المر. وانصرف. كنت ميتة من الداخل، عاجزة عن التفكير. تقمصت الأشياء المحيطة بي، فأحسست بجسدي كتلة مستطيلة، مصمتة، فائضة عن الحاجة، أقحمت على نظام المكان. لم أفكر، للحظة واحدة، في الموقف الذي أنا فيه، وظللت هكذا أشعر بأن الزمن متوقف، وأن هنالك أشياء تقرر بشأني ليس لي أن أتدخل فيها. جاء خالد بالقهوة.

قلت :

ـ «خالد...»

وضع القهوة أمامي، وأخذ فنجانه وجلس في الطرف الآخر من الحجرة مواجهاً لي. قلت :

ـ «خالد، عايزه أقول لك حاجة..»

وانتظر، وانتظرت أن أقول شيئاً فلم أجد عندي ما أقوله.

قال بعد قليل :

ـ «أنا فاهم يا عزة...»

ـ «فاهم إيه؟»

كنت بالفعل أريد أن أعرف ولهذا سألت بلهفة. أعدت عليه السؤال :

ـ «فاهم إيه؟»

قال بهدوء شديد :

ـ «مبارح كنتي في السرير ميتة، وده خلاني مجرد إنسان عايز يعمل جنس.»

كنت أنظر إليه وأقول لنفسي : «لقد كان يعلم إذاً.» أضاف بعد قليل :

ـ «النهار ده، إنتي زي المنومه. لكني كنت طول الوقت باخدع نفسي.»

قلت :

ـ «أيوه.»

والتقت عيناه بعيني. قال :

ـ «ما بتحبنيش، مش كده؟»

ـ «مش عارفه.»

قال :

ـ «من مبارح لغاية النهار ده ما كانش فيه أي إحساس بالنسبة لي؟ كره؟ حب؟..»

هززت رأسي نفياً.

ـ «كنتي بتفكري فيا ازاي؟»

قلت :

ـ «نسيتك خالص.»

قال :

ـ «أيوه.»

ثم أشار إلى القهوة، وقال :

ـ «إشربي القهوة قبل ما تبرد.»

وأخذت أشرب القهوة. قال :

ـ «طيب، جيتي ليه؟»

ـ «مش عارفه.»

وواصلت شرب القهوة. قال :

ـ «يعني، يعني... إيه يعني الأفكار أو الأحاسيس اللي كانت جواكي واللي خلتك تيجي؟»

ـ «ما كنتش بفكر خالص.»

ـ «طيب، كان إيه إحساسك وإحنا بنعمل جنس مبارح؟»

ـ «كنت عايزة أضحك.»

صمت قليلاً، ثم قال :

ـ «عايزة نخرج نقعد في حته بره؟»

ـ «لا.»

قال بضيق :

ـ «أمال عايزه إيه؟»

ـ «نقعد هنا.»

استقام جسده وقال بلهجة قاطعة :

ـ «عايزه نبقى أصدقاء؟»

ـ «لا، عايزه نتجوز.»

قال وهو يحرك يديه بعصبية :

ـ «عزة...»

ثم توقف وأشعل سيجارة قدمها لي وأشعل سيجارة أخرى له، وقال :

ـ «اسمعي يا عزة، من المؤكد إن واحد منا مجنون، أو إننا في حلم. أو كابوس...»

ـ «ممكن.»

ثم صمتنا.

انتهيت من قهوتي. كان خالد ينظر إلي باندهاش. ولم أعد أدري ماذا أفعل الآن. شعرت فجأة بخفة غريبة، أشبه برغبة جارفة في الرقص، وكان ذلك أقوى مني، فنهضت، فرفع وجهه نحوي متسائلاً. لم أكن أدري ما الذي قررت أن أفعله ولكنني سرت نحوه وجلست على مسند الكنبة التي يجلس عليها. اشتقت أن ألمسه، فقبلت شعره ودفنت وجهي فيه فصعدت الرغبة في داخلي، فأخذت أقبله وأضمه، ومع كل حركة كنت أشعر بالرضى، وفي الوقت ذاته تنفتح لهفة لا ترتوي، وأخذ ذلك يتصاعد دون توقف.

ـ «خالد!»

كان صوتي غريباً عليّ.

نهض ليستطيع مواجهتي فتعلقت به. كنت أشعر أنني سوف أفقده، أنه سوف

يتلاشى مني لو أرخيته لمدة ثانية واحدة. التصقت به، وكان إحساسي بجسده ويداه تنسابان على ظهري أكثر مما أطيق.

ـ «يا لله بينا يا حبيبي.»

قلت ذلك بضراعة لم يكن يتطلبها الموقف، ودفعته إلى الخلف فأخذ يسير متراجعاً نحو حجرة النوم.

كان للسرير ملمس أليف، أحسست به يبث معرفة مختزنة في جسدي فيحدد خطواتي.

قال خالد :

ـ «عزة، أنا مش فاهم.»

وكان صوته خشناً، مختنقاً. قلت :

ـ «أسكت، أسكت، ما تتكلمش.»

وأوقفت كلامه بقبلاتي.

ارتفع جسده فأصبح وجهي في نحره. ابتعد قليلاً وأخذ ينظر إلي وقال :

ـ «عزة...»

قلت :

ـ «عارفه، أسكت، أسكت.»

قال :

ـ «عزة؟ مش عايزه تضحكي؟»

قلت بحدة :

ـ «لا، لا، إنت مجنون؟»

كانت الرغبة تنفجر في داخلي في توق لا يرويه شيء، وكان ذلك الالتحام جميلاً ومدهشاً.

الأعمال الروائية الكاملة

غالب هلسا

البكاء على الأطلال

ثلاثة وجوه لبغداد

تُعَدّ الأعمال الروائية للكاتب الراحل غالب هلسا(١٩٣٢ ـ ١٩٨٩) أكثر النتاجات الأدبية الأردنية إلفاتاً في القرن العشرين. فهي تحظى بمكانة رفيعة داخل السرد الروائى العربي ، وبتقدير خاص من لدن القراء والكتّاب والنقّاد العرب على السواء .

ومع ذلك ، لم يتسنَ للعديد من أبناء آخر جيلين من هؤلاء الإطلاع على روايات هلسا جميعها؛ إذ صدرت هذه في سنواتٍ متباعدة وأمكنة متفرقة ، ولم يحظَ أغلبها حتى بطبعات ثانية ذات انتشار واسع يتفق مع قيمتها وأهميتها ، كما أن أيّاً منها لم يصدر في بلد الكاتب .

من هنا أخذت دار أزمنة بعمان على عاتقها إنجاز هذا المشروع الأدبي الضخم والملحّ، ألا وهو إصدار الأعمال الروائية الكاملة لغالب هلسا ، معاً ، ووضعها بين أيدي القراء بعامة ، ودارسي الأدب والرواية بخاصة ، بعد أن كانت قد أعادت طبع ونشر مجموعتيه القصصيتين في العام الماضي .

وتجدر الإشارة إلى أن هذا المشروع ما كان له أن يتحقق ، هكذا ومرةً واحدة ، لولا الدعم الكريم والمتفهم الذي أتاحه البرنامج الثقافي المشترك بين أمانة عمّان الكبرى والبنك الأهلي الأردني .

وهكذا نكون ، ولأول مرة ، قادرين ، قراءً ودارسين ، على مقاربة التجربة الروائية الخصبة لراحلنا الكبير ، كمثقف متميز ، على نحو متكامل يمكننا من إستنطاقها ، واستلهامها ، ونقدها ؛ الأمر الذي سيطلق ، حتماً ، دينامية جديدة في الحركة الأدبية الأردنية والعربية .

إنّها خطوة ، كما نأمل ، من أجل خطوات في مسيرةٍ طويلة.

البكاء على الأطلال (ردمك) ISBN 9957-09-085-2

ثلاثة وجوه لبغداد (ردمك) ISBN 9957-09-089-5

أزمنة

تلفاكس : ٥٥٢٢٥٤٤ ● ص. ب: ٩٥٠٢٥٢ ، عمّان ١١١٩٥ الأردن